السماء تعود إلى أهلها

وفاء عبد الرزاق

رواية

مدخل

على مشارف الريح افتقدنا الخطى، اتّسع غبار المسافة، تبعنا شرطيّ إلى مرايانا، يلوّح لنا مبتهجاً بعتمتنا، زحف ألم الدقائق على أجسادنا، فغدونا مثل وطن يبحث عن قلب أو عن اتجاه للنهار، وطوّق الصليب صدورنا. الحقائب لم تزرّر قمصانها، بقيت ظلالنا وحيدة كأمنية بأعقاب السجائر، والرحيل طارد أشجارها.

وفاء

إهداء:

قلبٌ يسكنهُ الفقرُ

قلبٌ تسكنهُ المدينـةُ

قلبٌ تسكنهُ الفأسُ

سكني بهذا الثقب

..

أيها الصاعق سآوي إليك.

و

ف

ا

ء

فصل

غصن تدلـّى من إطار

ما تكون الذاتُ التي تحيا في آنٍ ضحيةً وجلاّداً.

" أدونيس"

*** * ***

تلمّستْ خاتمها، أطبقت يداً على يد، تجوّلت عيناها في كلّ أرجاء المعرض، تقادحت يداها كشعلة أوقِدت للتو، حرارة الكفين لم تجد الباب يُفتح على مصراعيه، شارحاً مفسراً ولو باختصار عن سبب تسمية إحدى اللوحات انبهروا بدمعة حائرة في عينيّ المرأة، استوقفه أحد المعجبين:

- إنها اكتمال النضج.

- اسمح لي أن أطرح عليك بعض الأسئلة إن أمكن .

وليد: بكل سرور.

– أسئلـتي عن سرّ الدمعة، أهي دمعة فرح أم حزن، لقاء أم وداع؟ أم مدينة لم تجد من يكتشفها؟

كلمات الرجل أعطت لروح وليد جناحين حلاً وثاق قلبه المرتبك في لحظة عصيبة حرجة، ها هي حواء تحتلّ الصدارة، بهذا الحماس يقف متفرّجاً أحياناً ومبتسماً ابتسامة المتفائل، ريشته ما عادت تسخر منه، قدرته في استيعاب اللمسة الأخيرة التي رسمتها بفطرتها سمراء اللوحة، رعشة النظرة المتوسّلة بحبيب يجهل أضاميم باقات العشق، قولها له تعال وعش معي في كوني وهواي، كلّ هذا يعني أن ريشته موج أناشيد من غزلٍ ، ترجمت صمتاً تعرّق في ملامح امرأة ذات جمال خاص، إنّه صمت ربّاني يتهدّج داخل الروح.

نظرتها المحدّقة إلى المجهول كما لو أنها مغروسة بنار، خطّت كحلتها ريشةٌ صدّاحة على مسرح التكوين، حين يرى معجباً بمحبوبته الشقراء، يرشقه لهب الجسد، هاجس الفوز يزيده توهّجاً، يزوّق تفاصيله شارحاً حالات انفعالاته ومعاناته ساعة متعة جنونية. جنون بلا حدود يملؤه بكلمة إطراء لصورة الشقراء.

لوحة البحر تدفّأت بزرقتها، أطبق الموج أجفانه وصفا في هدأته.. حين قال "غارسيا لوركا" مرة : (حتى البحر يموت)؛ لم يعرف أنّ وليداً أعطى جناحاً لكل رملة، وجعلها تحلّق حول روح البحر كي لا يموت. هي أيضاً توقفت طويلاً عند اللون الأحمر، وميّزت بين اللون الذي شربه القماش واللون الذي امتزج البارحة، امرأة في نهاية الأربعين، شعر متوسط الطول، قامة بين الطول والامتلاء، ترتدي ملابس محتشمة، تحمل بيدها حقيبة رمادية، تستخرج منها قلماً ودفتراً صغيراً تدوّن عليه ملاحظاتها بين الفينة والأخرى. تخطو متباطئة، تصفو نظراتها، ثم تشوبها لحظة غموض، تنصت لمجادلات الزائرين .

ـ هذا الفنان لم يقلّد الطبيعة كما هي، بل جنّد الطبيعة كلّها لمنطقه، ليصرخ من خلال الطبيعة ذاتها ولتسبق الزمن صرخته المدوّية، في حركة البحر من تلك الزاوية يصوّر انفعالاته، يجوز لنا تسمية لوحة البحر هذه لوحة رواسب أعماقه، أعماق الأستاذ "وليد".

احتفظت برأيها الخاص، ولم تنخرط في الكلام معهما، كانت ترى ذات الرداء الأحمر كغصن تأرجح في إطار.

تجمَّع بعض الأصدقاء حول "وليد"، استجابوا لدعوته بعد طول غياب واحتجاب عن الأنظار، صديق قديم قبّله على جبينه، عانقه بقوة وحرارة،

تنافست ثلاث نساء على عزلة نجمة في سماء لوحة (الوجوه الأربعة). قالت إحداهنّ :

– إنها تمثل حالة الفنان، سمعت أنه منزوٍ لا يخالط أحداً حتى أقرب أصدقائه إليه.

ردّت عليها الأخرى :

- عندما نعجز عن مواجهة الحقائق ننزوي مختبئين وراء لوحة أو قصيدة أو موقف بشجاعة كاذبة. ليس للفنان حق التقوقع على نفسه أو يجلس في غرفته يعدّ على أصابعه سنين عمره، الفنان مَن تعايش وأعطى.

سمعهنّ عن بُعد، وابتسم في وجه السيدة بعد أن تبسّمت بدورها. رفع يده بالتحية المعهودة لديه، إذ يهزّ كفّه ثلاث مرات متتالية معبّراً عن ودّه.

عاشقان يحتضنان بعضهما أثارا انتباه الجميع، شاب إنجليزي وفتاة عربية، التفّ ساعده حول خصرها مداعباً وسطها، تمادت يده وامتدّت إلى مفرق الورك. ألصقت ظهرها ببطنه وصدره، وتابعا خطوهما الجذل بين تجمهر المعجبين وعدسات المصوّرين.

موعد للشوق ومساحة للروح، لقاءات خارج البيت، خارج الترقّب. إلتصاق جسدها بجسده أثار فضول العرب، خاصةً من لهم علاقة بأبيها. امتدّت يد الشاب داخل التنورة القصيرة، دنت من صورة ذات الرداء الأحمر، ارتجّ صدرها في قميص فضح الحلمتين. رقبتها السمراء امتدّت كجسر، فرّقت بين أصابعها المطليّة بصبغ لامع و مسّدت شعر الصورة.

شاركهما وليد نظرات الإعجاب، كان يبدو أحياناً على بلاهة وذهول وكأنه يقول: من أين جاء كلّ هؤلاء؟

عيناه تشوبهما لمعتان رماديتان، الإنهاك الشديد خطف بريقهما، بشرته مالت إلى الصفرة، فنّانٌ مهجور، غائر في جدب أيامه، ليس في حصيلته غير أيّام طفولته العالقة بمخزون الذاكرة، إلى قربها نافذة معطّلة بانتمائها الحزبي. الكلمات تحتاج اختراعاً وإعادة نظر في القواميس لتعيد إليه ما سُرق منه وما فاته من وقت. العمر لا يُعدّ بالسنوات، بل باللحظات الفاعلة.

***

في رائحة الزيت الممزوج بألوانه كان يشمّ رائحة أبيه (بائع النفط) ممّا كان يضطرّه أحياناً إلى السير في طرقات مدينة الناصرية خلف أبيه، خارج براءة الطفولة ونعومة أظفارها، وقد امتلأت يداه بالنفط حتى يبستا وتقشّرت جلدتهما وخشنت.

طفلٌ لم يبلغ العاشرة، تعلّق بخضرة النخيل والأغاني الشجيّة، يرسم بأصابعه في استراحته القصيرة كلّ الصور التي مرّت أمامه. ماء النهر يتركه ينام في مخيّلته، يحفر بسبّابته على تراب الأرض أعذاق

النخيل، عربة أبيه، صورة الحمارة وهي تجرّ العربة، ابنة الجيران "عليّة"، كانت تحبّ الرطب كثيراً لذا يرسمها وشمروخ بيدها.

انتقل إصبعه من التراب إلى القلم، تأخّر في دخوله المدرسة، الفقر يحول دائماً دون تحقيق الرغبات إلا أنّه يفجّر الإبداع. أوّل صورة رسمها على سبّورة المدرسة لـ "عبد الكريم قاسم"، كان ذلك في الصف الرابع الابتدائي، ولبراعة الطفولة وقصر التجربة صفّق معلّم الصف، وصفق التلاميذ معه.

يخلو إلى لوحاته في غرفة المرسم، فيجد أنّه يحدّث البياض. يترك الريشة من يده ويهيّئ نغمة بيضاء، وفي مساحة قماش أبيض يقرأ بداية لون جديد، كلّما شاهد مكاناً أبيض رسم عليه، عادة اكتسبها في السادسة عشر من عمره، في أوّل يوم لتنظيمه في الحزب الشيوعي، تعلّم ملء جدران البيوت والدوائر بالشعارات، يخطّها بقلم الطباشير الملوّن.

حين اشتدّ عوده وقوي، أصبحت مناوبته في المساء، (سطل بويَة)، وفرشاة، بأحلام بيضاء، كما

تعـوّد حين يتجول ليلاً ليعدّ أعمدة النور في الشارع الرئيسـي وفـي الشـوارع الفرعيـة لقيـاس المسـافات والالتحام بهمس الذكورة. مراهقته ونضـج شاربه هيّأه لترقيـع نعلـه بيديـه. قفز إلـى خـاطره هاجس مفـاجئ، الفنـان يخلـّد التـأريخ، أم التـاريخ هـو الـذي يخلـّد الفنان؟" فوجدهما يعملان على استنزاف بعضهما!

على مرأى من الجميع قبّلت عشيقها متحدّية تقاليدَ وقيماً تظنّها متهرئة بالية. لا شكّ أنها تنتقم من أبيها الـذي هجرها وأختها فـي حضـن أمّ عزلاء، إحساسـها بالجنس وممارسته في إحدى حدائق لندن. شاهد وليد من خلال ساقها جمال المرأة العربيـة وامتلاء فخذيها. كـان هارباً ذات يوم من غول الوحدة ملتجئاً إلـى الـ (هايد بارك)، بين الأعشاب رآها مبلّلـة بشبقها، جف العِرق العربـي فـي وريـده، وشـعر بـه كعملـة خاسـرة، تذكر القضبان وكم كفن مرّ على حديده وكم لحد غرق فيه.

وقتها أغمض عينيه واستلّ ورقة من جيبـه وقلمـاً، وراح يرسـم علـى مساحة الورقـة الصـغيرة رجـلاً مبتـور الأطراف

راقداً قرب شجرة في الـ(هايد بارك)، لسعه لسان الإنجليزي وهو يتلمّظ حول شفتين غليظتين.

***

استرجع الشهيّة الأنثوية، شوك عذب، وخز لذيذ صعد إلى مسامّه.. صعد السطح، ببطء رفع رأسه من جدار السطح، شاهد "عليّة" نائمة، ملتحفة شرشفاً أبيض من رأسها حتى أخمص قدميها.

أعاده ضوء الكاميرات إلى واقعه، شمّ رائحة فحيح يملأ المكان، عاد لرفقة الصمت. اهتزّت الرؤوس طرباً لسماع صوت أغنية عراقية رغب أن ترافق زمن العرض.. (أنا وخلّي تسامرنه وحكينه).. اهتزّ هو أيضاً، اقترب من ذاته وتجمّع ماء النهر على شكل أقواس يلامس أرضه، لام غفلته على تواطئها مع الزمن، ارتجفت يده اليمنى ورعش شيء تحت قميصه وصوّبه نحو القلب، شمّ رائحة تعفّن يده اليسرى.

***

في وقت تعفّنت فيه أعمدة الضوء التي مازال يتذكّر سيرها خلفه ترسل شعاع نورها على كتفيه، تراقص أنغاماً خاطئة على فوانيس الطرقات، وتسكّعِ النغمِ الخاطئ في كلّ أحياء بغداد، وأصبح كومة مزبلة تجول في شوارع العراق. المزبلة ذاتها أرسلت طبيبها لبتر يده اليسرى بعد أن اهترأت وتمزّقت حدّ التعفّن، في زنزانته الضيقة التي بالكاد كان يرفع رأسه فيها.

ارتفاع الزنزانة لم يكد يصل حدّ رأس رجل قزم، وفي التعذيب الجماعي كان يستردّ قوته من الآخرين، من إنهاكهم وتهشّم أضلاعهم. لكن في التعذيب الانفرادي، وهو معصوب العينين وموثق اليدين والقدمين، كانت تمتدّ عصا غليظة بين الوثاق، فتبرز عقيرته على شكل كرة لحمية عارية، تسيل الدماء من دبره، يسحّ الشحم فوق دمه بعد تمزّق الأحشاء. بقي ثلاثة أيام غائباً عن الوعي، وحين استردّ وعيه زعق زعقة هزّت أركان السجن. تحرّكت الأصفاد وتقلّبت بتقلّبه، فرح شرطيٌّ جاء إثر زعقته، لمظ لسانه وهو يتابع وليداً الفزِع في السواد والزرقة والتورّم وتفحّم أصابع يسراه بعد اقتلاع الأظافر

منها. قرار الطبيب بالبتر، عطيّةٌ من عطايا القائد في الإبقاء على جسده حياً واستئصال ما تعفّن منه.

***

على حذر، دخل وفد صغير من ثلاث نسوة وأربعة رجال. رصانة إنجليزية، ابتسامات هادئة، هزّ رؤوس هادئ، يستطيع أن يكوّن فكرة عن منبعهم الثقافي من خلال ارتفاع الياقات البيضاء وانخفاضها، كم حلُم أن يرى الوفد الصغير هذا يهزّ ياقاته إعجاباً أمام إحدى لوحاته في (المعرض الوطني) في العاصمة لندن.

رجلٌ صامت غارق في حفرةٍ دون ماء، عاد له الماء ثانية وتلمّس أرضه، تعرقَ، غاب، سكنَ، بينما الرجل الذي دخل معه ساعة تغليف اللوحة ظلّ طوال الوقت بسؤاله الحائر على شفتيه، يقف صامتاً مستغرقاً في صمته، وكلّما شاهد زائراً جديداً شدّته ذات الرداء الأحمر.

ابتهج لاقتراب السيدة إليه واختراقها توحّده بدمعة حيّرت الحاضرين، وهو يرتشف نظرتها حادثته السيدة:

ـ بلـغ الفنـان أوج اللـذة حين تسرّب إليـه دفـء الجسد البضّ، حالـة زنبقيـة بين أنثـى وريشـة وإيقاع لـون وخبز احتواء، ثم استطردت:

- هـل سـبق لـكَ أن مشـيت حافيـاً كـي لا تـوقظ امـرأة نائمة؟

تفاجأ لسؤالها، عدّل ربطة عنقه، بلـع ريقـه، تبيّن لـه أنّهـا مـن الـنمط الـذي يحـبّ أن يتثـاقف أمـام المثقفـين، كـوّن فكرته هذه بسبب صديقة له تزوره، تسمع أقوالـه وأحاديثـه عن الثقافـة وتضـيف عليهـا فرادتهـا بمعلومـة تتبـاهى بهـا أمام نسـاء عقيمـات مثلهـا، وممّـا يضـحك فـي الأمر، أنهـا تُعيد على مسامعه الحديث ذاتـه، لكن بشكل آخر، تخلط بين الجهل ومـا تـدلي بـه علـى أنّـه فكرتهـا أو رأيهـا. لكن بعـد لحظـات مـن تبـادل الحـديث تـيقّن أنّهـا مـن الشـكل الآخر، ذات خلفية ثقافية وجرأة في طرح الرأي والموقف.

سؤال جديد صدر منها أزاح عنه غمّ صديقته الرعناء:

- أليست المرأة أسطورة حين تتزعّم الفنون؟.

واصلت حديثها دون أن تنتظر الجواب:

- يجب أن يسجّل الجمال قبل أن يذبل تحت وطأة السنين، فليس أقدر من ريشة الفنان على تحدّي الزمن.. انظر، انظر لذات الرداء الأحمر، خرساء ناطقة تتحدّى الفناء. لم تدرِ " فيكتورين مورنييه" عن دورها الإنساني حين وقفت عارية أمام الفنان، إنه التعرّي الذي يصنع الجمال ويسمونه بالغرائز. لو رأت (الموناليزا) الطوابير المتوافدة على متحف (اللوفر) لما اتسعت الدنيا لفرحتها.

"أجابها مشدوداً لحديثها : جذوة الريشة التي يشعّ منها النور لا تنطفئ.

انسجاما مع حديثهما الشائق، بدّد " وليد" صمته وشارك في الاستماع والحديث، أجاب دون أن يسأله أحدهم:

– وبقينا نرسم بيد واحدة.

ليس من المصادفة أن ينقاد المبدعون إلى بعض"هم، انتعشت الأحاديث بفيض ثقافي، وفيض المطّلع تقلقه حيرة عن قيم موروثة وقيم يحاول أن يتعايش معها.

قالت: لقد أثبتت الروائع الفنّية أنّ مجهولين احترقوا من أجل أن يتوحّد الجمال..الموديل،الفنان، ولحظة التأمّل.

كانت واثقة من نفسها، تطرح آراء ذات قيمة حين واجهته:

– سيد "وليد"، هل بمقدور الفنان العربى أن يتخذ من زوجته موديلاً؟ أم سيبقي حصراً لانفعالاته المؤقتة؟ محاطاً بهالة من التبجيل الذكوري؟.

أجابها وعيناه على أوّل زائر:– المعادلة صعبة يا..

ـ اسمي" راوية ".

ـ تشرفنا سيّدة "راوية". مازلنا بين الشدّ والجذب، ومازلنا في مرحلة بتر الأطراف. نحن بحاجة ماسّة للتخلّص من تراكمات كثيرة، ومازال حاضرنا يضيف تراكماته حتى صرنا رتل تراكمات أقرب إلى الرنين.. أنا مثلاً خير مثال.. (صمت).. أعتذر، هناك زائر جديد.

شعرتْ بإحراج ومضيعة الوقت وتورطها مع رجل معتدّ بذاته.. رغم أنَفَته كان يدور حول نفسه متوسلاً

أنثـاه أن تخـرج مـن إطارهـا. ابتلعـت "راويــة" وقارهـا، وتحرّشت به:

ـ كلانـا لـه شـيء يفتقـده، غنـوة، صـديق، حبيبـة، امـرأة نطاردهـا مـثلاً. بكلمـة امـرأة اختصـرت عليـه الطريق، أجابها:

ـ أناشـد امـرأة تملـك جمـال الكـون ونسـيت فـردة حذائها.

مـدّ يـده فـي كـيس يحملـه طـوال الوقـت، واسـتخرج حذاء :

- حذاء أدفع عمري من أجله.

ضحكت "راويـة"، وراحت تخاطبـه بلغـة مأزومـة، لتُكمل الحديث حول ما يدفع عمره كلّه من أجله:

– نـدفع عمرنـا مـن أجل حـذاء، ومـن أجل حـذاء دفـع أجمـل شـباب بلـدنا أعمـارهم، كمـا دفعتهـا أنـا مـن قضيتي.. إرمِ الحذاء عنك، صاحبته لن تعود. كاد أن يقفز عليها ويحتضنها.. نسى أنّه في مكان عام، صاح بأعلى صوته:

. هل تعرفينها؟ وضغط على ذراعيها.

- "عيناء".. وكلّ الحياة التي تدور حولنا، زخارف على السطور.

أربعة كراسٍ متفرقة تأخذ أركاناً متباعدة، جرّته من يده، جلست على أحد الكراسي وطلبت منه أن يحضر كرسيا له:

- أنت يا" محمود" مشحون بالذكريات .

قاطعها:

- وتعرفين اسمي أيضاً؟

- أجل.. وأراك الآن تريد مزيداً من الإيضاح.

- كلّي شوق لمعرفة أيّة تفاصيل عنكِ فأنت لغز بالنسبة لي..حضورك في المعرض. معرفتكِ كلّ شيء عنّي وعن كلّ زائر، هذا يثير فضولي كي أعرف.

قالت له حسنا وتابعت الحديث:

- أنا أيضاً مشحونة بالذكريات. أكشط عن أوراقي كلمات قديمة، وأكتب ذكريات أحبّ إليّ من كلّ أحبار الحروف وأقرب إلى نفسي، تفضل لنجلس، سأبدأ من كلمة كنتُ.

***

– كنـتُ فـي ميـوع الزهـرة، أحـبّ الجميـل فـي أحلـى الأشـياء، فـي النـاي، فـي الربابـة، أعشـق النـاي حـدّ الجنون، فالناي صوت نفَس العازف، ألمه المباشر، لا يمرّ علىّ وتر ويقرع طبلاً.. أحبّ المطر، منذ الطفولة وأنـا عاشـقة للمطر، وكانـت عينـي أوسـع مـن واقعهـا، ومـن أجل الجمـال قيّدتُ العمـاء بربطـة عنقـه، أطلقت عصـفوراً كتبـت علـى جناحيـه وصـاياي، وقـرأت فـي لوحي عن حسناء لم يتعرّف عليها حلمها، ولم تمتطِ نجمـة فـي سـماء الخيـال، سـمعتُ مـن جـدّتي عـن مصـباح عـلاء الـدين، فصرتُ مصـباح نفسـي، أسـند جـداري علـى جـداري، وأتّخـذ لـي موقعـاً فـي الحيـاة. تمرّدت علـى سماء الشرق الرصاصيّة وعلـى حواجز تمنــع تــوهّجي، أصــغيت لصــوت الإنســان بــداخلي، وقطّعت خرقـة أسمال باليـة التصقت بـي. تبنّيت فكرة النهـوض مــن العتمــة حــين ناشــدت نوافـذ جديـدة، حسـاباتي كانـت فـي الموقـع الخـاطئ أو بـالأحرى لـم يتركونـا نحسـبها بشـكل صـحيح، مثلمـا لـم يتركـوا لنـا

أصواتنا. تصوّر.. أنا الآن أزعج صوتي وأقول له؛ تحمّلني أيّها الأبله، بلا منطق أتمنطق.

* * *

فوجئتُ به يروي آلاف السنين في نظراته، استمرّ يتطلّع في وجهها لخمس دقائق كزمن، فيلسوف يستطلع ما وراء نظرة سيدة قلّما يجد مثلها بين نساء مررن بحياته، في نظرته لها شهوانية غريبة، اضطربت لرجولة لمعت في عينيه. شمّت رائحة أنوثة فيها أرجعتها إلى فخ القبُلة الأولى ساعة هروبها من المدرسة بأمنياتها البسيطة وأحلامها الممزوجة بزرقة السماء. جرّت قميصها الأبيض إلى الداخل ليبدو أكثر التصاقاً بجسدها . كانت الشمس شيطانة والأرض يؤلمها حفيف الأشجار، بذات الحفيف اهتزّت وتعرّفت على إله غريق بين الشفة والشفة، بقبلة كانت لها.

انتبهت أنها في ردهة المعرض، استأذن منها محمود ليعدل لوحته المفضلة التي مالت قليلاً على الجدار.. دارت نصف استدارة تقيس مساحة الفراغ

الـذي يباعـد بـين الفتـاة وحبيبهـا، لـم تجـدهما، غـادرا القاعة وتركا رغبتهما محبوسة في شفاه الرجال.

بحلول وقت الغذاء، تنـاقص عدد الحضور، اعتبـر وليـد أنّ الزمـام بيـده وأنّ أمامـه فرصـة للتعـرّف أكثـر على السيّدة "راوية"، سحب بدوره كرسيّاً ثالثاً وقابلهمـا في جلسته، ثم وجّه سؤالاً للسيدة:

. أيّ لوحة أعجبتك؟ يهمّنى رأيك.

أجابت: لوحة البحر، ولوحة المرأتين.

استذكرت شيئاً طارئاً:

. إنـها اللوحة الوحيدة دون اسم:

- ألم يطلق عليها الجميع اسمَ لوحة الرداء الأحمر؟

- لم يجبها منتظراً جواباً لسؤالها، حين تابعت:

- المهم أنتَ أولاً، أنتَ خالقها وخالق اسمها.

قالت ذلك، وحرّكت يديها ارتباكاً.

شاركها ارتباكها:

ـ بصـراحة، لـم يسـعفني الوقـت. لقـد جئـتُ بهـا صباحاً، وسأنقش عليها اسم تناغم.

تـدخّل محمـود: أيّ تنـاغم تقصـد؟ إنهمـا امرأتـان مختلفتان كليّاً.

. عفوك سيدي، قلتَ لـي إنّ اسمك محمود، أم أنـا مخطئ؟.

. لا.. لستَ مخطئاً.

ـ أقصـد تنـاغم الثـوب الأزرق مـع الشـعر الأشـقر، كيف ينسجم اللونان ويتناغمان مع جسد رشيق . اعذر لي جرأتـي أخ وليد، أنـت فنّـان، والفنـان مرهـف الحسّ، لكنّي أجدك لا تدرك بهجة دمعة مشبّعة بـالملح وحارقـة ومتورّمة بـالحزن، إنّهـا عصارة ألـم وفـرح وحـزن ولقـاء ووداع.. أم لـم تلحـظ دمعـة السـمراء؟ والانسـجام الـذي تحـدثت عنـه أراه فـي انسياب الشـعر الأسـود المتمـاوج على المنكبين .. أنتَ رسمتَ دواخل نفسك.

ـ مـا هـو الاسم الـذي يليـق بهـا فـي رأيـكٍ؟ سـيدتي راويـة..؟؟.

ـ أفضّـل أن تظـل اللوحـة بـلا اسـم.. أو لربّمـا سـأجد ابنـاً مـن أبنـائي علـى ورق لسـتَ فيـه، يكـون أكثـر التحاماً بدمعة محيّرة، يطلق عليها اسمها القادم.

عقد حاجبيه تساؤلاً واستغراباً:

. أتقصدين أنّنا حبرٌ على ورق؟.

. بل مجرد صور تعبر في مرآة الحياة.

أشارت إلى ذاتها والى الجميع: نعم إنّنا حبرٌ على ورق، ولا حبر ولا ورق.

. أهذا لغز؟

. سمّهِ ما تشاء.

قال وليد: لغزي الأول رسمته في الصفّ الرابع الابتدائي، صورةِ لعبد الكريم قاسم، وصفّق الصف كلّه لوليد فنان المستقبل. تحدثت معه كثيراً، لم يسمعني رغم كبر أذنيه. وآخر الصور كانت لمومس نصف عارية، نصف يعرض بضاعته ونصف تغطى بأخطائه، لا تكتمل الرجولة إلا بالجنس.

قالت السيدة: لستَ وحدك من يكمله الجنس.

واستدارت تقول لمحمود:

– لي صديق شاعر، يقولب طاقاته الجنسية إلى نتاج فني، يكتب بالتماع الرغبة، إنّه لا يختلف عن أيّ شاعر جاهلي. انظر يا سيّد "محمود"، لقد رسم

وليد امرأة أخرى عارية تماماً، لولا الشال الذي اختنق بين نهديها، وارتخت أطرافه على أسفل البطن :

- هل أنت الشال يا "وليد"؟

انقطع الحديث فجأة، حين انتبهوا إلى رجل فارع الطول، عرفوا من هيئته وملابسه أنه من أصحاب الأموال. فتح زراً بجيب سترته الداخلي، استخرج دفتر صكوكه ملتزماً بأدب الارستقراطيين، انحنى باتجاه وليد مستفسراً عن ثمن لوحة أشار إليها.

تلعثم وليد بردّه:

- عذرك، هذه ليست للبيع. إن رغبتَ بصور النساء العاريات، فأرشّح لك لوحة (عبث الحرير).

لم يرق الجواب للرجل، وبكلمات معدودة ولباقة شكر وليداً، واستدار ليتفحّص عبث الحرير. على مدى وقفة امتدت ربع ساعة أمام جسد عارٍ لامرأة تكشف عن مفاتنها، عاد إلى" وليد" ثانية، نفث نفثة طويلة من سيجاره تغلّب بها على صمته؛ بادر بوضع الثمن وهو يردّد:

. ثلاثة آلاف جنيه، أهذا يكفي؟

أجرٌ ليس له نظير بالنسبة لوليد، ها هو يقبض أجر سهره وتعبه، سعرٌ لم يحلم به، وافق على الفور. عندها وقّع الرجل الثري صكاً، وقدّمه إليه قائلاً:

. سآتي لأخذها بعد أسبوع.

لحق به وليد مسرعاً، حين لاحظه يهمّ بالخروج:

ـ سيدي العرض ليوم واحد، اليوم فقط، أعطني العنوان وسأوصلها بنفسي.

. لا داعي، سآتي لأخذها غداً، شكراً.

رجع إلى جلسائه منتشياً، ومتفاخراً بالرجل الذي لا يعرفه:

ـ إنّ شخصاً مثل صاحبنا على درجة من العلم والفن كان خليقاً بلوحة أدمت أصابعي، يا سيدة راوية.. اضطراب أعصابي تجدينه في كلّ جزء منها.

ـ هذا يعني أنّ اللون الأحمر هو لون أعصابك على ثوب عيناء.

. مَن عيناء؟

أجابت: أقصد ذات الرداء الأحمر.

ـ اللوحـة هذه هـي روحـي، عليهـا استعرضـت كـلّ حياتي، أتظنـين أنّهـا مجرد لوحـة؟. الحبّ فـي لوحـات العشاق رسالة للعاشقين.

أجابته متبرّمة:

- رسمت امرأة واحدة أحببتها، وتقول دمـي واضطراب أعصـابي، مـاذا لـو أحببـتَ سـبع نسـاء مثـل بيكاسـو بأفكـاره المتمـرّدة والمتطرّفـة، هـل تتطـاير أعصـابك بالمقلوب؟

وأكملت:

- في حياة كلّ فنان امرأة واحدة وعدة عشيقات، امرأة هي حياته، لتكن ما تكون وإنّ صورة وهمية من بنـات أفكاره. المهم بَصمَتها في روحه، وروحه في إطار.

- قال لها: من خلال العشق نتمرّد، نصلـّي، ونعصـى، نُجلد، ونفقد أعضاءنا.. ولكلّ عصيان ثمن.

- اسمعي سيدتي، هناك شيء ضائع نبحث عنه، ربّما ضوء في أصواتنا لم ندركه، أو نظرة عاشق. ثم وقف منشداً مداخلة طويلة عن الفنان والعشّاق والعشق من أوّل نظـرة. ولكـن قطـع حديثـه عنـدما بـدأ زوارٌ جـدد

يتوافدون، بينما راوية عمدت إلى كتابة جملة خطرت ببالها. أرجعت دفترها الصغير إلى الحقيبة، ودنت من وليد هامسة:

- يدك قطعها الالتزام.

- بل من أجل الحرية سيدتي، أنتِ على خطأ.

- قالت: كيف لأصحاب الارتباط بحزب أن يطالبوا بالحرية للآخرين وارتباطهم عبودية، أليست شيوعيتك عبودية؟.

- سألها: مَن قال إنّي شيوعي؟

نزفت السنون في صدرهِ وارتاب ممّا تعرفه عنه سيدة تعرّف عليها قبل قليل، سيطرت عليه فكرة جاسوسيّتها، ماذا لو كانت من عيون السلطة السابقة، أبعد الشكوك عنه، رفع حاجبيه قليلاً وردّد في سره:

- وإن كانت من أعوانهم، لقد انقلبت الدنيا عليهم وتحرّرنا من موتنا. لن يستولي علينا الخوف بعد الآن.

***

تزاحمت الأفكار عليه، برز حائط السجن المحفور بأظافر قاطنيه، سمع طقطقة براميل النفط، شمّ رائحة دشداشة أبيه، سمع صوت عراك أمّه وهي تتوسّط الحوش، تصبّ الماء الساخن في طست وتدلق عليه الصابون وترطن:

- إي متى يريحني ربّى من الضيم، يدي تورمت من (غسل النفط).

تراءى له الموت الكامل والعظام الناتئة بعد سلخ الجلد وتهدّله، السلك الكهربائي حُني وأدخلوه عورته، طوّقه بالألم والعجز.

منذ أن وطئت قدماه أرض لندن لم يذق طعم النساء، رجعت إلى مخيلته صور الشبابيك المتّسخة بفضلات الذباب، الكلاب الملتصق جلدها على عظمها، الاستعطاء في الشوارع، ممرّات ضيقة متعرّجة، وراح يسأل نفسه بهدوء من يخاف الرقيب:

- هل نحتاج أربعاً وثلاثين سنة من الانتظار لتخلصنا أمريكا من حزب ظالم ومن طواغيته الزناة؟

على مقربة من " محمود" مشت" راوية"، ذكرت له أسماء ولحظات ومواعيد لم يذكرها أمام أحد، مكالماته الهاتفية، ثلّة السكر والعربدة.

حبّه لفتاة لا يعرف عنها شيئاً يركض خلفها بحذاء لا يعرف كيف يتعامل معه، عمله في جريدة صاحبها كان من أقرب المقربين لـ (عدي بن صدّام) وصراعه مع نفسه بين القبول والرضا، مصداقية علاقات السكر والنساء، أنّى لها أن تخترق صدره؟

***

كلّ هذا أظهرت السيدة معرفتها به، هل كانت معه؟ أبوسعها اختراق الجدران؟،.هل كانت ترتدي طاقية الإخفاء،هل شاهدت عريه على السرير؟

لا بدّ أن يعرف، كما لا بدّ أن يكون يقظاً. حتى المخابرات العراقية التي تعرف عدد شعرات إبطه، ليست كمثل السيدة" راوية".

طلبت منه" راوية "أن يسأل "وليداً" عن آخر ساعة للمعرض، وعلّقت:.

أعتقد أنه سيقول الساعة السابعة والنصف.

. مادمت تعرفين الموعد لمَ تطلبين مني سؤال عنه؟.

واستمرّ يسألها:

- أختي، اسمحي لي، أنت شرطي متنقل؟ لكن شرطي مثقف، هذا ما لم نتعوّد؟

ضحكت حتى كادت ضحكتها العالية أن تخرجها عن وقارها، ربّما سيستنتج الحقيقة. مرّت على أسماء العراقيين الذين تعرّف عليهم في لندن، نساء ساقطات عاشرهن، سماسرة مغاربة في ساحة الطرف الأغر (ترافلغر سكوير)، مشاعره، كيف توصّلت لمشاعره؟

***

ذكّرته بكلمة سمعها من لاجئ عراقي ذات يوم، يوم سُرقت من جيبه محفظة نقوده، حيث عبّر عن استيائه وهو يتفحّص أوراقاً مهمّة وضعها في الجيب الخلفي لبنطلونه، سنوات من عمره في الغربة سُرقت منه، جواز سفره، بطاقة التأمين وتذكرة سنوية اشتراها للتنقل.

رأى رجـلاً قادمـاً ممسكاً بيد شـاب فـي السـابعة عشـرة من العمر:

. لقد أوقعت به سيّدي، شاهدته وقت سرقك، راقبت وقفته، لم يرنـي وأنا أتابع حركاتـه، ها هو خـذه وقدّمـه للبوليس.

توسّل إليهما الصبي بعربية كردية:

– (أنــا ابــنكم، عراقــي مــن الشــمال، لا تنطــوني للإنجليز).

أشـفق عليـه "محمـود"، وطلـب منـه أن يسلـّمه مـا سـرقه. أفـرغ جيوبـه، وجـد ثـلاث سـاعات نسـائية، وسلسلة ذهبية.

. (عمّي خذهنّ كلهنّ.)

ـ سـآخذ خاصـتي، والله يعوّض أصـحاب السـاعات والسلسلة.

. (ممنـون منـك عمِّـي والله بعد مـا أسويها تبت لـن أعيدها ثانية).

كان محمود يحاول التخلص من لوم نفسه على سهوه، وكان الشاب خائفاً يبكي ويطلب المعذرة والسماح، و محمود يرد عليه:

. لا عليك لست المخطئ، إنه خطأ الأوطان.

(ضحك وقتها على الذين يكتبون عن الأوطان) واستمرّ قائلاً:

ونضيع نحن في الخطأ.

. الصمت راحة بال أليس كذلك سيّدة راوية..؟.

سألها وصمت، ثم استطرد قائلاً:

– هل أنت (مُخاوية)؟

. لم أفهم.

ـ يعني هل عندك جنّي ينقل إليك أخباري؟ حتى كلمة الرجل الذي قبض على اللص حفظتِها؛

لم تجب على سؤاله، بل راحت تشير بإصبعها إشارة استخفاف تعقيباً على قوله عن الذين يكتبون عن الأوطان:

– الوطن كالسرير، كلّما اهتزّ أكثر لمّك في حضنه، بشرط أن تمحو من جبينك كلمة شرف.

اكتشف دموعاً حبيسة في عينيه وهو يجيب السيدة :

– والله يا سيدة "راوية "لطالما تمنّيت لوطني أن يرحل من هذا الوطن قبل أن يصبح قشرة بصل.

. للأسف الشديد. (متعجلاً)

. للأسف أصبحنا قشرة بصل.

شعر بضيق أصابها، لم يلتحق بها وهي تنزوي على كرسي في زاوية بعيدة من المعرض. رأت من مكان جلوسها" وليداً "يشرب قهوته ببرود.

***

بسبب حبّها للفن تمايلت على صوت وحيدة خليل (نزهة والبدر شاهد علينه، والعذْيَبي تنسّم)، ومن كلمة مرحبا، عرفت" راوية " أنّها من مدينة الموصل، أمّا الشابّة، فالمصحف الصغير في رقبة" راوية" جعلها تتطفل وتسألها متقرّبة في فضول شبابي:

. من أين حضرتك؟

أجابتها السيدة مبتسمة:

. أنا من البصرة، وأنتِ من الموصل، هذا واضح من لهجتك. كم سنة أنت في لندن؟.

- أنا جئت مع أبي بوقت كان عمري سبع سنوات، أنتِ مسلمة، صح؟

– نعم، مسلمة.

ـ الإسـلام عنيـف، ونحـن دينُـنا يعلّمنـا المحبـة والسلام، أليس لديك فكرة جيّدة عن هذا؟

أجابتها السيدة راوية:

. نعم لكن كلّ دين يختار لنفسه طريقة تقرّبه من الله وطريقة حسابه وعقابه، ومثلما لكلّ دين حسناته فلكلّ دين أخطاءه.

ـ لا ما هكذا، حين ذهبت للكنيسة، كنت بوقتها كثير صغيرة، ما سمعتُ القس يقول يسّوع على خطأ، ماذا كان يقول لكم السيّد؟

– يا بنتي هذا حوار عقيم، استمتعي بالمعرض، هذا المكان لا يتحمل حواراً بالدين، تفضلي خذي راحتك.

بين الفينة والأخرى تتابع انفعالات "وليد ومحمود"، امرأة تحب رجلاً لا يحبّها ورجل تثيره امرأة لا تحبّه، ومن أجل إثارة الصورة النهائية لرجلين يغيبان حول جملة فارغة. ليت وليداً يعرف كيف استوطن في قلب عيناء، وليتها تشعر بوجودها في قلب" محمود".

الزمن يثأر من محمود على تصرفه مع " لبنى" التي تعلّقت به حدّ العبادة، واعتبرته ملاذها وحضنها. لكنّه تركها تلوك أيّامها بعد أن نال منها ما يريد، بينما الأغاني التي يؤلّفها الرجال تُبرز إضافة لجمال الإناث خياناتهنّ وألاعيبهنّ، حتى ضاعت مفاهيم الخيانة ابتداءً من الجسد وانتهاء بالوطن.. لم نعد نعرف تنقّل الرجل من امرأة إلى أخرى أهو أحقيّة له وحده منحتها له رجولته أم هي طبيعة البشر؟ كيف لامرأة قدرة على هوى عدّة رجال في آنٍ واحد، أتُجمَع الرجال وتكدّس كتكديس المجوهرات؟ آدم وقت خالف ربّه هل أراد أن يصبح خير مثال لبني جنسه؟ أم كان يدافع عن حقّه في الحرية؟ وتعدّدت الحريّات والزنى واحد.

جلست تعاقب وتحاسب الرجال، وهي تنتظر قيامةً وانطباق الجدران على الجدران، يوم نشور الكلمة. رنّت بمسامعها أصوات الغانيات في رواية "تولستوي" (الإنبعاث) ، وكشاعرة وروائيّة كانت تسمع أصوات الكلمات والفضاء العام للمباني والشتائم التي تتعرّض لها البغي على يد الشرطة للحصول على بطاقة رخصة البغاء، عدالة عرجاء تحبك التدمير.

في غمرة الكآبة والقرف ودونيّة المجتمع ودونيّة المخابرات في تجنيدها لنساء غانيات وإعطائهنّ شرف الدفاع عن الأرض والدولة، علاقة الرئيس بالبغاء العام، الابن غير الشرعي للخطيئة الكونية التأريخ.

عذرت الحروب الخاوية وعلامات التذكير والتأنيث في اللغة، وعذرت "لوليد "براعته في تجسيد إرثه على قماش الرسم، ركضه ولهاث فحولته ساعات وساعات يملأ بياضاً لم يتعوّد رؤيته على لوحة الحياة، بعصارة التكوين الهش لعشق شقرائه.

***

كان يقبّلها قبل أن تكتمل في يديه، يقبّلها حين يبدأ وحين يكل، كيفيّة تسليط الضوء، كيفية تسليط العتمة، اختلاط الضوء بالعتمة على ثوبها؛ بينما أنين امرأة من تكوينه عشقته من اللمسة الأولى من النقطة الصفر، شكوكها وتودّدها، ثورتها وانتظارها، غضبها الصامت وصمتها الغضوب، الاحتياطي من الصبر الذي استنفدته في خلق أعذار لخطيئته، قهوته الباردة، سيجارته بنصف احتراقها، أصابعه المصفرّة من الدخان والتبغ، رائحة عرقه، انهياره، سكره، عربدته، العتاد الفاشل لمن خانهم المبغى العام، القصائد التي يتلوها، أسماء الرسّامين والأدباء.

حفظتهم من خلال أنفاسه اللاهثة والمتقطعة والخافتة ساعة اندماجه باللاوعي الفني، استعادته لوعيه، نومه، صحوته، خروجه من دورته الدموية في مدحه شقراء ذات قلب عاقر لا ينجب حبّاً كحبّها.. حفظت معه أسماء الفائزين بجائزة نوبل، وتساؤلها لخيبتها:

- أما كان الأجدر للجنة التحكيم أن تمنحها الجائزة.

اشتداد الحزن والتصاقه في قلبها، في أيّ وقت من أوقات تغزّله بعشقه الوحيد.

كان يسمعها قرآنه، يتلو آيته الوحيدة، هو لم يؤمن بالتوحيد ولم يعرف الله، لم يعرف غير لوثته بعشق يشرب عصير دمه. وقفته مبهوراً بفضائل الجمال والطيبة من شقرائه عليه، حيثما يذهب وحيثما يعود يُسمعها آيته؛

. الله يا شقرائي.. أدفع عمري كلّه، مالي، سعادتي، رضاي، نومي ويقظتي من أجل نظرة رضا من عينيك.

كم شكرتْ السجن ورجال التعذيب على إخصائه وإلاّ لحمّل الرجولة عذاباً كعذابها، الصرخة لا تخرج إلا من أعماق المخذول، ولكن ليس المخذول برجولته.

تمنّت أن تفوز بجائزة نوبل للقهر لتبرعت بفوزها للقلوب المخذولة، ولطرقت أبواب البيوت المغلقة على نسائها .. وأعطت نساءها حصةً من فوز ألمها.

ابتسامته لها من وراء قدح الخمر، قبولها بفراغ كأسه واحتسائها ثمالة الحب، تجاهله رعشتها وهو يضع لمساته على رقبتها، شراعها المنعطف نحوه،

مسحه حافة قدحه بعد فراغه، شعورها بالضآلة في تلاوته عليها آيته الوحيدة، طرحها أسئلة دون أن تجد جواباً من صمتها:

ـ لماذا رسمني في لوحته؟

تبهجها أيّة كلمة منه، لكن تصرفاته تقتلها باليوم عشر مرات لعلّه يقول في سرّه كيف تريدين موتك؟

يطاردها خياله حتى حين يغلق نور الغرفة ويترك الألوان مبعثرة على الأرض، لتحلم به وتتمنّى أن تكون حقيقة وليست صورة، هو من رسمها، هو من جعلها ممتلئة وصبغ شعرها بالسواد كما صبغ قلبها بألمه، هو خالقها وخالق مفاتنها، هو الخطأ إذن، وهو ذنبها وتوبتها.

وضعت" راوية" رجْلاً على رجْل هاربة من تفاصيل تعتبرها كشرارة الجذع المحترق، سمعت عجوزا بقبّعة حمراء وطقم أحمر فالتفتت إليها وقد ردّدت: ما أعمق هذه النظرة.

ـ الله يا عيناء.. حتى الآن لم يتعرّف على دمعتك التي لم يسعفك الوقت لمَسحها ساعة رجوعك المرسم،

ها هو يفرح بفوزه متوهماً أنّه حبا كطفل إلى عينيك وجسّد نظرة اعتراها الألم. أنت صاحبة الفوز. جائزة المعرض وإعجاب الوافدين أنت مَن يستحقهما، لا هو ولا صديقته القديمة سما، التي جاهدت في التقرّب منه كامرأة ورجل ولم يصل جهدها إلى جدواه. كلّ ما فعلته بعد مكالمته لها بدعوتها حضور معرضه، هو اتصالها بأصدقاء لها يعملون بالصحافة.

ها هو يقف مطمئناً هادئ البال، يستلم من الجيوب المنتفخة ثمن فنّه وثمن تزييف الواقع المادّي.. دمى آدمية، وزبائن تشترى نظرات تطلّعت باتجاه واحد وجمدت إرضاءً لثرائهم، بؤرة رخام تبتلع كلّ شيء حتى غرور" وليد" في هذه اللحظة.

***

في الضفة الأخرى قرأت راوية في مفكّرة حياتها أوّل يوم لها في امتلاكها ذاتها واستردادها بعضاً من آدميتها، وهي تطأ أرض لندن، استعادتها لأنفاسها النقيّة، خوفها من أيّام تجهل كيف سترتّب لها

المشـهد القـادم وتخطّط لها حياتهـا القادمـة، احتياجها لقلـب بعـد أن طردهـا قلبهـا، احتياجهـا للمسـة حنـان حقيقيّة.

على مرمى من الخديعة، من حريـة لـم تتحرّر من صدور أصحابها، تعرّفت علـى شوارع المدينـة، علـى الوجوه العربية والآسيوية، علـى العيون الـزرق والقوام الرشيق، علـى العجـائز الأنيقـات، والعجـائز البـدينات. علـى الفـرح المعلـب، القهـر المسـتورد والتلـف المعبـأ بالقنـاني العربيـة فـي واجهـات محـلات (أجـورد رود)، على الجميلات بملابسهن القصيرة وكعوبهن العالية.

سـيقان عاريــة، وسـيقان ملتحفـة بعبـاءات سـود، وجهه سمراء بمساحيق وعدسات لاصقة، عرب، كرد، هنود، أفارقـة، إيرانيـون، طقوس عزاء حسينية فـي الـ (هايد بـارك)، رجـال الشرطـة المحيطـة بالموكب حمايـة لـه. ورائحـة الـنفط فـي (أجـورد رود)؛ تمنطق خارطـة ثرائها بشرب الشيشة في المقاهي، رشوة للوقت، رشوة للمطر ولهواء عذب.

علـى الضـفة التائهـة نفسـها التقـت بعينـاء، وقـت عودتها من ديوان الكوفة، بعد انعقاد ندوة حـول ديـوان أدونـيس (تنبـأ أيّهـا الأعمـى). خـلال المحاضـرة كانـت تتخيّـل العميـان، المبصـرين الـذين يناشـدهم الشـاعر، وتتساءل:

ـ مـاذا لـو تنبّـأ العميـان، هـل ننـال المقصـود؟ أم يسوقنا القطار الى دوّامة جديدة؟

وتخيّلت كيف يتنبأ كلّ أعمى على طريقتـه الخاصـة وعلـى مستوى وعيـه الفكري ونضـجه الثقـافي وفهمـه لما كان يدور خلف نظارته السوداء.

*** * ***

فُتحت ستارة المسرح، المشـهد الأول: عشـرة عميـان يسيرون باتجاه معاكس على خشـبة المسرح، المكـان قـاتم بـلا أنـوار، لفتـة إيحائيـة مـن المخـرج بتصـوير العمـى للجمهـور، تـزداد حركـة الرجـال بازديـاد إيقـاع الموسـيقى المصـاحبة للعـرض.. يتخبطـون بالسـير،

يصطدم بعضهم ببعض، كلّما احتدمت الموسيقى زاد الرتم، تدخل نساء مسرعات بنفس سرعة الإيقاع، سكارى، وأعون، أميرات، أمراء ، عبيد، حاشية، رجال يحملون كتباً ،غواني، باعة صحف، نغمات تتوالى بسرعة دخول وتوالي أمثلة الحياة على الخشبة، واحتشاد المكان بالعمى..

دخان يتصاعد من جهة واحدة، يصبح المكان ضبابيّاً، الاختناق يبدو على الوجوه، الرقاب تتدلّى إعياءً ، شخير الاختناق يعلو على صوت الموسيقى، تنشقّ الخشبة لنصفين، يخرج من الشقّ عميان جدد، يفور المكان ويدور حول ناسه، تتشقّق كلّ أجزاء الأرضيّة، تتهاوى من سقف المسرح أحجار البنايات والبيوت، أصوات رعد وصيحات.

فجأة يسود المكان الصمت.. يُضاء المسرح.. يعلو تصفيق الجمهور، يحني الممثلون رؤوسهم تشرّفاً بالتصفيق، يستمرّ العرض. استعمل المخرج أسلوب الإنارة والظل، ظهرت خلفية المسرح كشاشة عرض، ظلال لبشر مكبّلين بالحديد، أحمالٌ ثقيلة على أكتافهم

ولكن بتفاوت، أثقال خفيفة من السهل حملها، أثقال أوقعت أصحابها أرضاً، أثقال بصناديق خشبية كبيرة يجرّها شخص واحد، أثقال تجرجرها جماعات مجنزرة قيودهم.

انشقّ المسرح على شكل نهر بضفّتين، مراكب ورقيّة ترسو، مراكب خشبيّة، في الضفّة الأخرى، عينا ماء منفصلتان، يباعد بينهما نهر عميق.. واحدة تفوح منها رائحة المسك، يدور حولها صبيان وصبيّات يرشون عليها ماء الورد، من العين الثانية فاحت رائحة أبخرة ماء مغلي.. رجال ذوو عضلات مفتولة يرمون فيها أسياخاً من الحديد، الممثلون المربوطون بالسلاسل بعد أن تفتّحت عيونهم يفقدون الذاكرة، لا أحد يعرف اسمه.

صاح رجلان دخلا مع ثالث أكبر منهما سناً:

. كيف سنعقد جلسة المحكمة؟.

أشار لهم الرجل الوقور، وهو يتوسّط الجلسة إلى دفتر كبير معهم:

ـ لا داعـي للحيـرة، أمـامكم كـلّ شـيء . فقـط نـادوا بالاسم وزنوا الثقل، وينتهي كلّ شيء .

. لكن يا سيدي نحن مَن أنسيناهم أسماءهم.

أمّا الشخص الرابع الذي دخل قبلهم، فقد وقـف وقفة المتفـرّج. مـطّ رقبتـه وفـرد طولـه، تكتّـف ووقـف يسـتطلع.. أحـد الـرجلين يرتـدي جلبابـاً واسـعاً بنـيّ اللون، يفتح أوّل صفحة من دفتره، وينظر إلى الرابع الذي كان يهزّ رأسه هزّة العارف:

. ونعرفهم جيّدا .

دوّت مطرقة الرجل الوقور : محكمة.

أعاد المخرج فكرة التلاعب بالإضاءة، أنـوار خافتـة جـداً، بالكـاد تبـدو الظـلال علـى خلفيـة المسـرح. موسيقى صاخبة، ثم أطبق الصمت بعدها على جو المسرح. أدرك الجمهور أنّـه المشـهد الأخيـر، تهيأت الأصـوات والأيـدي للتصـفيق والإعجـاب والتعظـيم. أضيئت الإنارة على المسرح والقاعة كلّها.

الصناديق والأثقال مركونـة علـى الضفة القريبـة مـن المحكمـة، لا أحـد علـى المسـرح غيـر الرجـل الطويـل

الذي تفرّج فقط، ورجل في نهاية المسرح، يهزّ رأسه بحركات تعاكس بعضها، خرج في هذه اللحظة رجال من عين الماء، وبخروجهم عبق المكان برائحة المسك وماء الورد، قدّمت لهم الصبايا مناشف بيضاء معطّرة، التحفوا بها وجلسوا على سجّادة خضراء، صبيان قدّموا لهم أطباق الفاكهة، ووقفوا وقفة المطيع.

نفخ صدره بانتصار، وراح يتلمّس الصناديق، ويفتل شاربيه متلذذاً بانتصاره، تضاحك بخبث، وكلّم الرجل الواقف في نهاية المسرح:

- تعال.

- أنا سيدي؟

ـ لم أستطع أن أكون سيدك.

ثم سأله عن كتاب بيده: ما هذا الكتاب؟

ـ إنه كتاب اشترته لي صديقة، اسمه (تنبأ أيها الأعمى). وطلبت منّي أن أحاضر به، قادتني إلى هذا المسرح. لكن كيف سيّدي، كيف أحاضر عن كتاب لم أقرأه؟

ـ لماذا لم تقرأه، ألست مسؤولاً عن المحاضرة؟

ـ كـان بـودّي.. (واقتـرب منــه مشـيراً إلـى فتحتـين غائرتين في وجهه)

– انظر سيدي، أنـا بـلا عينـين أصـلاً، وكلمـة أعمـى تُطلق على الـذي كانـت لـه عينـان وفقد متعـة البصر. لـذا حين عنـون الشـاعر ديوانـه لـم يجد لـي اسماً فـي قاموسـه مـن كلمـة واحـدة مثـل أعمـى، ومــن أربعـة أحرف لآخذ نفس المساحة علـى كتابـه.لا أدري سيدي لمَ طلبوا منّي أنا بالذات أن أحاضر بهذا الكتاب ، ربّما عرفوا أنـي أستأجر قارئا اعتمد عليه

***

صفّق الجميع، وصفّقت راويـة معهم. سمعت صديقاً اتخذ لـه مقعداً قربها:

– هل أعجبتك المحاضرة؟

– أيّة محاضرة؟.

. عجباً.. شاهدتك تصفقين بحرارة، علماً بأنّني لم أفهم من المحاضر كلمة واحدة مثلما لم أفهم شعر أدونيس.

- أنا بصراحة (والتقطت حمّالة حقيبتها من الأرض) أنا دخلت مع أدونيس عالمه غير المرئي للجميع.

*** * ***

المسافة بين شقتها وديوان الكوفة ليست بعيدة، رغم ذلك فضّلت صعود الحافلة رقم (7) الأشياء لا تتفجر مصادفة، ولا تتدفق إلا إذا وجدت ما يدفقها. لاحظت راوية أن عيناء تدسّ أصابعها في محتويات حقيبتها اليدوية، وتخرج فارغة. أغلقتها وأعادت فتحها ثانية، وبنفس التوتّر سألتها فيما إذا كانت بحاجة إلى مساعدة.

أجابتها؛ شكراً، لقد كنت أبحث عن حبة مهدئ للصداع.

رجلٌ عربيٌ يرتدي نظارة طبية، أكرش تفوح منه رائحة الخمـر، تسـمّرت عينـاه علـى صـدر الفتـاة وراحتـا تلتهمـان مفاتنهـا.. نظرة التلصّص تسير حيثما يسير العربـي، عرضـاً وطـولاً، مـن تخـتّلـه بين الأشجار، من السطوح والنوافذ، من الثقوب الإسمنتية. ويـد التحـرش تهاجر معه لترتعش باكتساء آخر، وتتلمّس رقة اللّحم الأبـيض، بعد أن كانـت تختـرق العباءات السود وقت العزاء الحسيني، أو تستقرّ علـى الصدور البـارزة فـي الأسواق. وتصدح الحناجر المهتاجة (فدوة أروح لهذه العيون) ، ويتغنج الغضب الأنثوي بين اللذّة والخجل. بعد أن امتدت يد الرجل إلى ظهر عيناء، وتحركت هـي بدورها غاضبة، ردّ عليها:

- (اشدعوه داده..عيوني ليش شنو سوّينه)؟

عرفت "راوية" أنها في المكان الصحيح، في الموكب ذاتــه، أو فــي الأسـواق المكتظّـة ببضـاعة النسـاء، بادرتـهـا بتصـرف يقيهـا حرجهـا، وفسـحت لهـا مجـالاً قربها:

– تفضلي قربي.. هنا أفضل.

في تلك اللحظة ولد الكلام بينهما، وبعد ابتسامة ودعابة دارت بينهما، اطمأنّت عيناء وأخذت تبتسم بعض الشيء لابتعادها عن العاصفة.

طلب محمود من المصوّر الخاص بالصحيفة التي يعملان بها، أن يلتقط له صورة تذكارية قرب لوحته المفضّلة، أخذ وقفته المعهودة بفتح ساقيه وميّل وسطه جانباً وابتسم، ثم طلب صورة أخرى على أن تكون قريبة جداً، ورغب أن يكون وجهه ووجه ذات الرداء الأحمر لصيقين. أسرع" وليد" إليهما وطلب هو الآخر أن تكون لديه صورة تذكارية مع الجميع، بعد أن وقف من الجهة الأخرى من اللوحة.

استدركا تصرّفهما، وقدّما اعتذارهما بصوت واضح للسيّدة "راوية": عذرك سيدتي، تصرّفنا غير مقصود.

أجابتهما: لا عليكما، لكلّ منكما صراع داخلي ترغبان أن تجسّداه في صورة تذكارية، أمّا أنا فصراعي في ثمن الكرامة، هل بمقدور مصوّر تجسيده في صورة؟

شعر وليد بحرج واعتبر كلام السيدة موجهاً إليه، ترك محموداً على وقفته ووقف قرب السيدة: لم أدفع كرامتي ثمناً لإبداعي، لم ولن يكون هذا في أيّ يوم.

بعد أن وضعت يدها على كتفه، هزت رأسها:

- أعرف يا وليد، أعرف، لكن في مختبر الحياة تكون النظرة معكوسة دائماً خارج المنطق.. كم تدفع، كم تقدّم تنازلات، ولو فعلتَ أيّ واحدة مما قلت ستجد سرب الحشرات يركض وراءك، إنّه التواطؤ مع الشذوذ، وما علينا إلا أن نكون خارج الفراغ. صدق محمود درويش حين قال؛ (ما أضيق الأرض التي لا أرض فيها للحنين إلى أحد). وأنا أقول ما أضيق الأرض التي لا أرض فيها للشرف.

ارتدّ وليد إلى نفسه كطفل مرتبك، واعتذر آسفاً على فوات وقت الغداء دون أن يجلب ولو شطائر أو أيّ شيء لسدّ الرمق، أنا لم أذق الطعام منذ ظهيرة أمس.

- لا عليك، ردّت" راوية":- في عالمك الجميل لسنا في حاجة لمعدة. إنّه الجوع المخلّد، غداً سيذكر

التأريخ عن جوعنا وشبعنا الإبداعي، وسيقول: ثلاثة مبدعين ممتلئي البطون، وسيتخرج آلاف الأساتذة في علم التأريخ وينالون شهادات الدكتوراه بشرح وتحليل مفردات كهذه.

فتحت حقيبة يدها لتدوّن ما قالته، سقطت ورقة على الأرض، التقطتها بسرعة، ردّت إليها كلمات سبق أن كتبتها، وعاينت في وجه وليد:

– أنا مثلك أرسم على الورق، الورق هو ستري وغطائي.

ابتسم محمود:

– ما أرخص الورق في أيّامنا هذه، تركتها منشورة في غرفة نومي، دوّنت عليها حتى اللحظات العابرة.

قاطعته راوية:

– هل قرأت نفسك فيها؟ هل سبق أن استيقظت من نومك مذعوراً ودارت حولك كلماتك تجسّد شخوصها أمامك، حادثتهم مثلاً؟.

. لا سيّدتي، وإلّا لجُننت.

. ما رأيك بالذي يجالس ويحادث أبطال أعماله؟ هل تسمّي هذا جنوناً؟ (وأكملت):

– أنا آكل معهم، أتنزّه معهم، أدخل شذوذهم وسكرهم، خياناتهم وذكورتهم، ممارساتهم الخاطئة وخذلانهم، أدخل زنزانات توزّع حبوب منع الحمل على أوطانها، أدخل شوارع متكرّرة لها صورة واحدة وإن تعدّدت أسماء الأوطان، سورية، العراق، فلسطين، مصر، مرآة زائفة أرى فيها رجالاً يركضون خلف نصفهم الأسفل. أقرأ المنطق المقلوب، فأرى النظريّة النصفيّة، أقصد السفلى. أضف إلى نظرياتك يا وليد (التنظير السفلي).

رفع محمود يديه مستجيراً:

– الله الله، كلّ شي ولا تترك كاتباً يتحدّث.

ردّ عليه وليد:

– كن صبوراً أو تهادى كالجمل.

ضحكت" راوية" حتّى سالت دموعها على خدّيها:

ـ وأنـتم علـى الجمـل، لا تنسوا أنّكم كائنـات تتحـرك بشبقها النصفي، وتـركتم النصف العلـوي تستخفّ بـه أمريكا.

حاول وليد استمالتها إليه :

– لم نقرأ أشعاراً في الصحف اللندنية إليكِ؟.

أجابـت بعـد أن احـتقن الـدم فـي وجههـا: لأنّــي لا أتعامل بمنطق النصف.

محمـود: بـالله عليـك فسّري لنـا كيـف تتحـاورين مـع أبطال أعمالك، هل تأكلين معهم حقاً؟ أهذا يُعقل؟

ردّت:

– ولمَ لا.

* * *

مرّة طرأت لي فكرة زيارة إحدى المقاهي، فكّرت في محـاورة إحدى بطلاتي وهي تقرأ الصحف فـي مقهـى. اقتربـت منهـا حيث كانت تدخن الشيشة، كانت وقتها لا تعرف ماذا تقرأ، فالصحـف كلّهـا سواسيّة، الكذب علـى واجهـات الصفحات بالعناوين الكبيرة، وبما أنّـي أطلقت عليهـا اسم عينـاء بعد

أن وجدتها بلا اسم في الحافلة، أخذت تسألني عن معنى اسمها، وحين شرحت لها أنّ العيناء هي ذات العيون الواسعة السواد فرحت وقالت لي: إنّه يترجم صفتي، كلانا كانت على عجل، وكأنّ الريح تحتها.

طلبتُ منها أن تحتسي القهوة بسرعة كي نخرج لنتمشى قليلاً، جمعنا أعضاءنا المتناثرة وأخذناها مشياً، سألتني وقتها:

- إلى أين؟ ثم ضحكت وبدت أسنانها البيضاء كأنّها حبّات لؤلؤ، يبدو أنّ قولي المقاهي للكسالى أثلج صدرها، وأدخل بعض بهجة عليها.

في سيرنا كنّا نعدّ الكنائس التي نمرّ بمحاذاتها، كثرتها جعلتني أقارن بينها وبين عدد المساجد في بلداننا العربية.. إذا كانت الموسيقى ترافق صلاتهم وفنّ الرسم والحفر يملأ كنائسهم، فنحن لنا فن الزخرفة والمنمنمات حيث أعطى مساجدنا خصوصيتها.

أذكر أنّي دخلت المسجد مع أبي مرة وأنا في الثانية عشرة، بعد أن طلبت منه ذلك سألني فيما إذا كنت طاهرة، استفزّني سؤاله فسألته :

– وهل أنا نجسة يا أبي؟

– لا يا ابنتي، أقصد، أقصد.

استدرك قصده في دهشة وجهي، وعرف بأنّي لم يمرّ علي طقس المحيض. رحت معه يوم الجمعة، وأدخلني إلى مكان ذي ستر مخصص للنساء.. كنت أبحث عن روح الله في ساحة المسجد.

***

ـ لمَ توقفت سيّدة "راوية"؟

ـ تعال، نسأل وليداً عن سعر ثالث لوحة بيعت اليوم. اقتربا من "وليد"، وجداه غير مسرور، فمازحه محمود:

ـ ستصبح برجوازيّاً، هذا ثالث رجل أعمال يشتري منك، من أين وفدوا؟

ـ صديقة قديمة لها معارف كثيرون، وعلى ما أعتقد هي وراء كلّ ذلك.

(ثم واصل): لغة رجال الأعمال لا تضع النقاط على الحروف في لغة الفن.

وفيما هم يتبادلون الأحاديث دخل مصوّر يحمل كاميرا تلفزيونية وبرفقته مذيعة، ترتدي بنطلونا بنّي اللون، وقد تركت قميصها الأحمر مسدلاً على جانب البنطلون، بينما باقي أطراف القميص عقدتها وتركت العقدة مربوطة من الأمام، وقد زرّت ثلاثة أزرار سفلية فقط من القميص.

بعد أن ترجرج نهداها، وتمايل خصرها الممتلئ بعض الشيء، سألت عن وليد. أسرعت إليه وقتما حدّدوه لها من بين الجمع الغفير، مشطت شعرها الأسود بأطراف أصابعها، وأشارت إلى المصوّر (أن اتبعني) وقالت:

ـ لو كنت غير متزوّج لخطبتكَ، مرحباً سيّد وليد. وعذراً، هذه طريقتي في الكلام؛ لا أحبّ التكلّف والتصنّع.

ارتبك وليد وهو يجاملها :

ـ أبداً، واللّٰه أنتِ لطيفة جداً وعليك السلام، هل من خدمة أقدمها إليكِ؟.

ـ أنا مذيعة من تلفزيون (ARB) وأرغب بإجراء حوار معك، هذا إذا لم تمانع.

ـ بكلّ سرور.. لكن اسمحي لي، مَن أخبرك عن معرضي وكيف عرفت مكانه؟.

– اتصل بي الأخ" محمود " قبل ساعة.

ـ آه. فهمت. تفضّلي، كيف تحبّين، أنظلّ واقفين أم؟ (تطلّع إلى الكراسي الأربعة فوجدها غير شاغرة، فأكمل) :

– الوقوف أفضل.

– لن أسألك عن بداياتك وحياتك الخاصة، إنّه سؤال متهرئ، صفة المذيعين السذّج.. سيّد وليد، الجزء البسيط من حياتنا أُعلن عليه التلف، حتى عواطفنا بتنا نخاف عليها من بخار الدمع، كيف تستطيع كفنّان أن تحتفظ بجزئكَ البسيط أو بما تبقى لديك؟

– يقول "نيتشه" :

– إنّ إرادتنا خير مَن يهدم القبور، عواطفنا ومبادئنا الحقيقية هي الشفاء لبؤسنا، فليعلنوا الحرب كيفما شاءوا.

– هذا يعني أنّك لا تخضع للمقايضة؟

ـ يا سيدتي.. (وراح يتحسّس ذراعه).. أنا يا سيّدتي حتى عند حافّة الموت أحمل صليبي وأمشي على تلك الحافة. أما ترينني بيد واحدة، أصافح أصدقائي وهذا الحشد الذي اختارني هو ولم أبذل جهداً للوصول إليه؟

– سمعت، وأرجو المعذرة، سمعت أنّك مقطوع من شجرة.. أي لا أحد لك، فلمَ العزلة إذاً؟

احمرّت وجنتاه بحرج سؤالها، وسال عرق جبهته، تردّد في الإجابة، ثم انطلقت الكلمات من فمه مسرعة:

ـ الابتعاد أو العزلة كما تسمّينها هما أوّل نقطة الجريان.

– جريان ماذا؟

وطلبت بطرف عينها من المصوّر أن يقترب منه أكثر.

– جريان النهر، أيّ نهر يبدأ من نقطة، ثم قطرة.
قالت بعد أن عقدت حاجبيها:
– من خلال نظرتي السريعة للوحاتك وجدت أنّك في صراع مع الظلام.. مرّة يتغلّب عليك، ومرّة تنتصر عليه بتسليط الضوء، أليس كذلك؟ أم إنّ حدسي الفني قد خانني؟،.
ـ لقد أصبتِ.. أحياناً تعتريني فرجة أمل، فأبعد الضرير عنّي وأتحرش بالضوء.
. قبل قليل سيد" وليد " كنت تردّد مقولة نيتشه عن الإرادة، وردّك الآن على سؤالي يظهر شخصية غير متوازنة الكفّتين. هل أنت من الرجال الذين يكون منطقهم عكس تصرّفهم؟. بصراحة إني أجد تسعين بالمائة من الشرقيّين والعرب تحديداً متناقضين، أين تضع نفسك؟

عن بعد كانت راوية تسترق السمع، ربّما يردّ وليد على سؤال يتحدّى به نفسه. وحين وجدته (نيگتف)

لكلّ الصور، اتخذت لها كرسيّاً فرغ للتو، وراحت تعيد ترتيب الصور والأحداث.

***

فاجأتها صورة "عيناء" الباكية، ووجهها يرسم طفولة منكسرة، وتذكّرت أنّها طلبت منها أن تكفّ عن البكاء، وتتصبّر.

الخروج من عتمة الألم هي أن تتذكّر سوقيّة العصر، وتنظر للتلفاز، قالت لها: افعلي شيئاً من أجلك أنت لا من أجل رجل لا يعجبه غير فحيحه، ثم يطلق عليك طلقته ويمنعك من الانضمام إلى عالمه.

وتابعت شعرها الأسود خصلة خصلة، خصرها الذي أطبق عليه ورك شرقي وجعله كغصن يلتوي من ثقل ثماره، تتبّعت كلّ أجزاء جسدها، كلّها تنبض عشقاً، سقطت على خدّها دمعة دون قصد منها، هكذا خرجت نافرة من حرارة جفن ظليل، حتى كادت "راوية" أن تشمّ رائحة تلك الدمعة، لم تكن دمعة نافرة بل طفلة في حضن العمر. طبطبت على كتف عيناء قائلة:

ـ الحبّ هو ترياق الحياة، حفنة من رماد الحب تحيي القلب، حالتان لا يمكن العيش دونهما، الحب والحرية.(واصلت الحديث) لكن يا حبيبتي، حزنك روّضيه، ومخاوفك من فقدان رجل تعبدينه لا مبرّر لها، مَن يراه وهو يتعطّف عليك بابتسامة أو نظرة من خلال ألوانه المجنونة مثله، يتمنّى أن يخنقه.

. دخلك ست" راوية"، لا تكوني قاسية عليه، تركته يفعل ما يريد، إنّها طريقتي في الحب، يكفيني صوته ورائحته. (ثم استطردت بعد أن وضعت المشط في وسط فرشاة للشعر):

– أنا يا ست" راوية" أنظر إليه من زاوية أخرى، فمثلاً عندما يهزّ رأسه طرباً وهو يتغزّل في شقرائه أمامي ويذكر محاسنها ومميزاتها، أعطف عليه لأنّه بعين واحدة ومريضة. فنظره باتجاه واحد، لا يستطيع تحريك عينه يمنة أو يسرة، ولطالما وضع شقراءه نصب عينه لا يرى غيرها .

– إذن؟

. كيف تعشقين رجلاً أحادي النظرة؟

. هذا أعذب عشق.

ـ قرأتُ مرة لـ "شمس الدين التبريزي"، (لا تكلّف نفسك في الذهاب إلى البستان، انظر إلى وجه العاشق) وأحادي النظرة خاصتك لم يكلّف نفسه حتى النظر إليكِ.

– لا بل ينظر إليّ، وإلا كيف رسمني؟

ليست العين هي التي ترى، بل القلب، القلب يا "عيناء". العين ما هي إلا ساعي بريد بين القلب ومن نحب، إنها الثقب الذي نُدخل إليه نهارنا وجراحنا.

***

في محاولتها لإعادة ترتيب الأشياء، وإعطاء البداية أحقيّتها بالظهور على مسرح ذكرياتها، بلغ سمعها آخر سؤال وجهته المذيعة إلى" وليد":

– لماذا لا ترسم الموت والمقابر الجماعية في بلدك؟

فرحت وقتها لجوابه:

لأنــي لا أجيـد تعظـيم القتلــة. ثـمّ.. ثـمّ.. (تلعـثم) هـل هناك ما يكفي من اللون لرسم الدّم؟

عدّلت "راويـة" من جلستها، ومن خلال ثقب عينيهـا أدخلت شريطها، وراحـت تستعيد كلّ مـا فعلتـه الكتابـة على أوراقها.

فصـــل

فكرة اللون

أنتَ طائر نفسك
وفخّ نفسك
وصدر
نفسك
وأرض نفسك
وسماء نفسك. "جلال الدين الرومي"

* * *

في جهة العمر، تعبر حفنةٌ من السنين، بلا هوية تتحسّس قيدها في اختصار الهواء، تشرب قهوتها كطائر غالبه النعاس.
لوحة مخدوشة لفنّان معتزل الحياة، تشاركه عزلته منفضة سجائر، ضباب يترنّح بسكرة الذبح، من المدن

والشوارع والأرض، لوحة خشبيّة نُقش عليها شقة رقم (202) . كـان مـن المفتـرض أن تـدُق علـى بـاب الشقة من الخارج. وبملل طريد تكوّر الوقتُ على شكل دائرة، وعجز" وليد" عن إضافة لمسة فنية لشقة فقيـرة الأثـاث. بقيـت لوحـة رقـم الشـقة مرميـة علـى الأرض ومنذ شهور، بالتكرار اليومي الممل وإيقاع رتابـة أكثر منه مللاً يقضي وليد معظم وقتـه، ويعدّ علـى أصابعه احتمالات أيّامه الباقية في كأس الحياة.

موكيـت أزرق باهـت اللـون لقدِمــه، أريكـة لونهـا أبيض، (صوفا بيد)، مصنوعة من الخشب الرخيص، طاولـة طعـام صـغيرة لا تسـع أكثـر مـن كرسـيّين، فـي المطبخ.. رفّان مستطيلان، المطبخ جزء من الصالة، فضـاء لتسـعة أمتـار بمثابـة قبـر، علـى الرفـوف بعض علـب مـن الفـول والحمـّص، كـيس مـن البصـل مفتـوح وكيس بطاطس مفتوح أيضاً. حبتا بطاطس قرب فوهة الكيس ذبلت عروقهمـا، علـب فارغـة مـن البيـرة مرميّـة بفوضى قرب الأريكة. بالنسبة "لوليد" يكفيه سدّ رمق، لذا لا تحتوي ثلاجته على أكثر من شرائح جبن وخبز

وثلاث تفاحات ذابلات، اللون والشاي وقليل من سدّ رمق، هو الزهو بالنسبة إليه، علّمه السجن على ضمور البطن وعلى التقشف.

مسجّل صغير أسود اللون ولقِدمه يخرج الصوت منه شبه مبحوح، كثيراً ما يجلس جلسته المفضلة حيث يضع ساقاً على ساق ويخطّط في مخيلته صورة للوحة جديدة. لم يعتد الخروج إلا نادراً، وأغلب الأحيان لشراء أبسط حاجياته. يتصل هاتفيّا بأصدقائه ويطمئن عليهم، وإذا ألحّوا عليه بالخروج يرضخ لإلحاحهم، ثم يعتذر هاتفياً بعد نصف ساعة.

لوحاته أكثرها تعبيرية، قدره اختار له الفن، على عكس ما كانت ترغب به أمّه، إذ تمنّت له أن يصبح طبيباً يمدّها بالطمأنينة ساعة وقوع المرض، رغم أنّه لم يرفض لها طلباً وإن كلّفه حياته، فإنّه كان يطمئنها ويداعب ضفيرتيها :

. ابنك يعالج المرض باللون يا أمّي.

حين لم تفهم قصده راح يسألها ويفسّر لها في الوقت نفسه:

ـ لـدينا طبيـب مخـتص بالقلـب، وآخـر مخـتص بالعيون، أليس كذلك يا أم وليد؟.

– إي والله يمّـه ما تقول إلا الصحيح.

. وأنـا طبيـب ألـوان، أعالـج مرضـاي بـالألوان ولـيس بالدواء .

ـ الله يسلمك يمّـه مـن كلّ شر، أكـو صـيدلية تبيـع الألوان؟ (ثم تبدّل لهجتـهـا): المهم طبيب وبس، حتـى يصيحوا لي أم" الدكتور" وليد.

– وبَسْ يا حلوة وليد.

ـ وحتـى تـداوي أهـل المحلـة، كلّهـم بعـوز يـا يمـّه، حتى الموظف ما قادر يأكل خبز، الله يخليك إلهم.

***

مـن بـين الجامعـات والكليّـات المتعدّدة اختـار كليّـة الفنـون، وعليـه أن يعـزم علـى الرحيـل، والسـفر إلـى بغـداد. تفاديـاً لعوزه باعـت أمّـه قـلادة مهرهـا بثلاثـين دينـاراً، وهـي تعرف أنّ قيمتهـا أكثـر مـن ذلـك، فلطالمـا سـمعت مـن عمتهـا أمّ زوجهـا أنّ مهرهـا ثمـين وثقيـل

الوزن. وهي تتطلّع بوجه الصائغ، تفقدت يدها، إذ سبق لها أن باعت أسورتها لعوز، امتلأت أعماقها صرخة وإصراراً، لا حاجة لها بالذهب، الغالي للغالي. أجبرت خاطرها بمحاولة خداع نفسها أنّه أقل من ثلاثين ديناراً، من فرط غيرة عمتها منها تتصور أن قلادتها ثمينة.

. منين يا حسرة، قالت للصائغ، ثم استدركت أنها تحادث نفسها.

لكنه سألها: ما بك يا أختاه؟

– أخي أسألك سؤال.

– إي تفضلي.

– من يشتغل ببيع النفط يقدر يشترى لامرأته قلادة غالية؟

وضع القلادة في الميزان، ودون أن ينظر إليها ردّ على سؤالها:

. من جاء لنا بالبلاء غير النفط.

. أرجو أن تزّد عليها شوي، والله أحتاج فلوسها.

رماها في وجهها؛ بطّلت اشترى.

– لا عيوني لا تغضب، ثلاثين، ثلاثين؛ أمري لله.

خيطت له كيساً من القماش، وضعت فيه الثلاثين ديناراً وعشرين أخرى من أبيه، وتركته يتدلّى من رقبته. بعد أن عوّذته بالمعوذات، طلبت منه أن يخفي الكيس تحت ملابسه، وأعطته كيساً من البلاستيك فيه متاع للطريق، فقد خبزت له (خفيفيّات) في التنّور ورشّتها بالسمسم والسكّر. في شقته المتواضعة لم يبقَ طعم للسكّر، غير ما تركه في بيته في مدينة الناصرية.

حين استقل القطار كان كلّ شيء يركض وراءه، ولا تزال تلك الأخيلة تلاحقه. صوت القطار، صفيره، الغبار المتطاير من النوافذ، أصوات بائعي الماء البارد، وبائعات الخبز الساخن، بائعي الشاي والكعك. كلّ تلك الذكريات تسكن جراحاته وتتولى الدفاع عن يده المبتورة.

من أجل الكشف عن شلاّل مخيلته الفنية، يدخل الحمام، يستحم ثلاث مرات بالصابون والليّفة، كأنه يطهّر جسده ممّا علق به من وسخ السجن.. لم

يستطع أن يتحرّر من حالته هذه، لازمه مرض الوسواس منذ خروجه من السجن.

***

تتزاحم عليه الأفكار وتحاصره، تأخذه إلى ركنها الحميم، الركن الجميل ما بين تعلّقه" بعلية"، ابنة الجيران وتنظيمه الحزبي، وقت تعرّفه على جسده وهمهمة رجولته تخترق نومه ويقظته، يغتسل منها صباحاً وتغويه رغماً عنه، يلوذ بمكان بعيد عن أعين الرائحين والغادين، يأخذ ركناً تحت شجرة توت، ويتعامل مع الذي يخترق دشداشته فاضحاً برطوبته الدافئة احتياجه لأنثى.

أصول الجيرة وما توارثه من أعراف، وكلّ القيم والأخلاق تقيّده، فابنة الجيران لا يمكن التحرّش بها ولو بالنظر، هي شرف ابن المحلّة وعليه المحافظة عليه.

وقت يشعر بحاجته للاغتسال يرمي نفسه في النهر، يتحرّر من ذكورته بمائه وموجاته العذبة. يعرف وقت

ذهابها إلى المدرسة، يخرج قبلها، يقف بباب الدار ويعيد الكرة ذاتها عند عودتها. يرتجف شاربه كأنه نبات طري نبت للتوّ في أرضه، الشعور بتبادل الحب، عار، لذا يجب إخفاؤه ومداراته.

غير أنّ أسلوبه بالكشف عن عشقه تلوّن بعدّة ألوان، بنظرة من طرف عينيه، وبابتسامة يخفيها بين شفتيه لئلا تفضحه "علية" بشموعها المتراقصة، تختلق الأعذار لتدخل بيتهم، تارة بطبق خبز من تنّورهم ومن يد والدتها، وتارة أخرى بما احتاجته أمّها ساعة الطبخ، كرّاث أو بصل أو ثوم. وجفناها المراهقان يضيئان لها مساحة العمر.. تطلب من أمّ وليد وعينيها على (السوباط) تقصدان وقفة وليد، تلتقطان من عينيه ما تبحث عنه، تنفذ إليه، إلى الداخل وتبقى عالقة فيه.

ذات يوم انقطعت عن المدرسة، تهيّأ له أنّه عارض مرضي أو ألم الأنثى الشهري أعاقها من الذهاب إلى المدرسة. لكن الأيّام توالت، لم يستطع مقاومة قلقه

بعدها، فطلب من أمّه أن تزور جيرانهم، حق الجار على الجار:

. يا يمّه صار أسبوعين ما زرتِ بيت أم لطيف.

فتزداد خفقات قلبه، وعندما وجدها متباطئة ومتكاسلة، وجد أنّه لا بدّ من إخبارها بحبّه. تخابثت وكأنّها لم تلحظ ذلك، ثم سارعت لارتداء فوطتها النظيفة بعد أن نزعت القديمة الملطّخة بالعجين. وأخذت بيدها ثلاثة أقراص من الخبز المسمسم، لم يمض على خبزها نصف ساعة.

عادت مسرعة، تعرف أنّ ابنها على نار، لم تقوَ على محادثته أو التركيز في عينيه، وقت فتح لها باب الدار. تمنّت أن لا يسألها، تشاغلت بإدخال الرغيف إلى داخل الغرفة، ونهرته على أنّه تركه ينشف في الهواء، وأبوه يحبه طرياً :

. ما تفكر بأبيك، ما عنده سنون.

دنا منها وقبّل خدّها، أدرك أنّ في الأمر شيئاً، ابتسمت بوجهه، ثم عادت تختبئ بأعذارها وهياجها،

تركها كما هي، وذهب الى شجرته المفضلة، شجرة التوت، يشكو لها:

. يا عمّتي يا شجرة ما تعرفين شي عن علية، قولي لي وحياة من رفعك عالية وأثمرك؟

بقي حتى الليل.. راعه ظلام المكان فأسرع راجعاً إلى داره، حال دخوله وجد أباه جالساً في وسط الحوش، يفترش حصيرة من خوص النخيل، يلفّ سيجارته، وأمّه جالسة إليه تقدّم له الشاي. لم يسلّم عليهما كعادته أو يقبّل يد أبيه، سمع أمّه تطلب من أبيه أن لا ينهره لعدم لحاقه به للمساعدة ببيع النفط بعد انتهاء دوام المدرسة.

عبرت الدماء الساخنة غاضبة في عروقه، خرج مسرعاً وجلس في السوباط، دون أن يكلّم أحداً، لكنّ أباه اختصر عليه صمته :

– لماذا يا بني لم تخبرني، كان خطبتها إلك أقلها وبعثت خطّاب..

أضافت الأم : منين يا حسرة، الخطّاب ما تريد وعود، ما تريد مهر مقدّم، ما تريد.

وثب "وليد" بعد سماع أمّه:

– قولي إنها مخطوبة، ها.. قولي لماذا الصمت؟

– إي يمّه خطبها ابن عمها اللي يشتغل بالكويت.

تحوّل ارتباطه بالحزب إلى عشق جديد يعوّض فيه خسارته الأولى، لم يضجر من أيّ أمر يأتيه من مدرّس اللغة العربية الأستاذ" عبد الأمير"، بل راح يتصرف كأمير، وأصبحت البيوت والشوارع والمدرسة مملكة أخرى، لها طعم ولون جديد، ومن أجلها وزّع المناشير في المقاهي في متوسطة البنين ورمى بعضها قرب متوسطة البنات. وراح يعلّم أباه ويشرح له أنّ عمله في بيع النفط ليس عيباً ولا نقصاً. ماركس يقول: (العمل هو تعبير الحياة الإنسانية).

حالما سمعت أمّه بهذا الاسم تقدّمت نحوه:

ـ يمّه هذا اسمه صعب؟ من أين هو يا يمّه لا أعرفه، ألم يجد غير هذا الاسم؟

– إي يمّه هذا إمام جديد طالع، لقوا قبره يمّ الشط.

ـ إي يا بعد أمّك، ما تأخذني إله، يمكن أزوره واطلب منه يطيّب راسي شو الوجع ما يفكني ليل نهار.

من وقتها تركه أبوه يفعل ما يريد، يتأخر في الليل، يخرج في الظلمة من باب الحوش الخلفي، يأتي فجراً بصحبة ثلاثة أو أربعة يخبئهم في المجلس ويطلب من أمه أن تقدّم لهم الطعام والشراب، وفمها مغلق، ويحذّرها ويؤكّد سرّية الأمر.

ذات يوم طفح الكيل بها:

– ما تشوف صرفة مع ابنك، منين أجيب أوكلكم لو أوكّل ثلاثة آخرين؟. الفلوس اللي تعطيها يومية ما تكفي ، ماذا أفعل؟ دبّر أمرك، دخيل مار.. نسيت اسم هذا الإمام الجديد؟

– ماركس.

– إي دخيل مار، يطيب عيوني ويرزقنا شوي.

ردّ عليها الأب مؤنّباً:

ـ الـرزاق هـو الله، وبعـدين ابنـك راح يصـير شـي، وبـاكر يصبح مهم وإلـه اسم، سترين، قولي أبـو وليد قال.

وضعت يدها على صدره:

. بمحبتي عندك أبـو" وليد" منين جبت اسم وليد، وأبوك كان يريد تسمّيه خلف، على اسمه؟

– كنـت متعـدّيا علـى مدرسـة الأولاد وسـمعتهم يقولـون "خالـد بـن الوليـد"؛ فقلـت أسـمّيه وليـد وابنـه نسميه خالد، حتى يصير اسمه خالد بن الوليد وتذكره المـدارس.. خلـّي قلبك بمـاء بـارد، الولـد راح يصيـــر مهم. هي ثالث سنة وهو على هذه الحال يسهر للفجر برّه وينجح في المدرسة، بعد ماذا تردين؟

– قول لا إله إلا الله.

فردّ عليها بنفس التعويذة، خوفاً من عيونهم .

- اسمعي يا مرة، مـا يحسد المـال إلا أصحابه؛ قولي قل أعوذ برب الفلق..

وهو يضع كيس الخمسين ديناراً في رقبته تلبية لطلب أمّه، سمع صوت سيارة تقف قرب بيت الجيران، كما

سمع كلمة يمّه انقطع قلبي على غيابك؛ ترك كلّ شيء من يده، سقط كيس متاعه أرضاً، عليه مجابهة قلبه الآن.

فتح الباب، فوجد علية تنزل من سيارة مرسيدس خصوصي سوداء، ثلاثة أولاد صعدوا على واجهة السيارة، وبقية الأطفال يحومون حولها. كانت علية تحمل بيديها طفلة تشبهها تماماً، وعندما جاءت عينه بعينها أطرقت أرضاً، وطلبت من زوجها أن يحمل عنها الطفلة. لكن تلقفتها أم لطيف، وهي تتطلع في وجهها قائلة؛

- (ولك يمّه هاي علية صغيرونه.. والله العظيم هاي علية الثانية).

***

اختراقات الذاكرة تُقاس بحجم الهاوية وبسنتمترات التيه، بعد أن حفروا بسكاكين الأكل والملاعق في سجن نقرة سلمان، سنة كاملة، عشرة سجناء محكوم عليهم أن يناموا على التراب المحفور ويخالطوا

الديدان والصراصير. ثم يعمدون إلى تغطية الفتحة في الصباح، ويسوّون التراب، حتى حانت الساعة التي أوصلتهم واحداً تلو الآخر إلى مدخل مزرعة، وتوزّعوا دون هداية أو دراية. فقط توزّعوا، واختبأوا كلّ على طريقته.

أمّا "وليد" فقد خرج بنصفه المبتور، ويد متعبة من الحفر والتعذيب، وكرامة مهانة كلّ صباح ومع كلّ وجبة طعام تُقدّم لهم. قصد بيت صديق له، كان بائع ثلج في بغداد، تعرّف عليه في مقهى يرتاده البسطاء، ونظّمه في الحزب. وهذا بدوره أخذه لصديقة له تعيش مع أمها فقط، وخبأته أسبوعاً في دارها، خططوا فيه طريقة هروبه خارج العراق عن طريق سوريا.

تكفّل صديقه بالمصاريف، كما وضع في جيبه عشرين ديناراً، ووعده بأنّه سيخبر أهله لاحقاً بمغادرته. تحقّق من دقة العنوان، وأكّد كلامه ووعده له، بعد أن تهدأ الأمور: اطمئن يا وليد، سأخبر أهلك.

في طغيان الظلّ، تبقى النوافذ مشرعة، تتصفح الريح. وصرخة تتراكض لنهاية خربة، بعيداً عن الحكام الذين يصنعون الظلام لشعوبهم.

ضمن باب النسيان يكون أوّل دخول السيف حيث اختراق الرئة إلى باب المذبحة، لا عصافير تغرّد على نافذة تُثير الروح لفرحة هادئة، غربان تعدّد الأسماء الجديدة، وتضحك على موتاها المتحركين. ترافق وليداً في رحلته البرية آخر نظرة من عيون" علية"، وآخر إيقاع لقلب أمّه، صوت عربة النفط، نهيق الحمار، مغزل جدّته، وزاوية من ارتباط مقدس بشجرة التوت، وقليل من كلمات أعلن فيها اعتصامه وانتماءه الحزبي. كما رافقه يقين يد مبتورة، وسنوات دراسية لم يكملها. إذ كان اعتقاله قبل انتهاء السنة الدراسية الأولى بتهمة تنظيم الطلبة وإثارتهم على الشغب وقلب نظام الحكم.

سنة كاملة في سوريا وهو ينتظر قرار قبوله كلاجئ سياسي في بريطانيا، يده المبتورة كانت هويته

للعبور، لكن على الطريقة الإنجليزية، يجب أن يقف في الصف ليأتي دوره .(The line – queue).

حفظ هذه الكلمات، زخرفها على حيطان الدار القديمة التي استأجرها لمدّة شهر، وجابه الحياة الجديدة. صبيّ في مقهى، كلّ ما أراده الابتعاد عن وليد معذّب، وليد مضطهد في ماضيه وحاضره، والجَلد للروح كي لا يصل ارتجافها لذاته.

أهو حُرٌ الآن أم مسجون بوليد لا يعرفه؟ هل يضع قدميه على عتبة هشة؟ هل يخلع نعليه في وقت الدخول؟ هل ينتظر بعثاً جديداً لموته؟

هل يلعن الموت، و مؤسّسيه أم المنتمين إليه؟

الكلمات التي حفظها لـ (جلال الدين الرومي) كانت قوّته وتجلّده، في السجن وخارجه، سنده كلّما ضاقت عليه الجدران واستحكمت؛ (أنت طائر نفسك، وفخّ نفسك، وصدر نفسك، أرض نفسك وسماء نفسك).

يعود إليها ويختصر المسافات، إذ لا وجود لإنسان حرّ في البلد العربي، أيّ بلد دون استثناء، تختلط الأشياء

بعضها ببعض، لكن كما هي أوامر الحكومات: أنتَ لست إنساناً.

في لندن غربة من نوع آخر، يلاقيها وليد في وجه الأطفال اللاجئين مع ذويهم، بحثاً عن آدميتهم. الأمسيات تقترب لتألف بعضها، كلّ شيء، الزحام، المشي المستعجل، بائعات الهوى، العربيّات والإنجليزيّات، الروسيّات والقادمات من أوروبا الشرقيّة. هزّة صدر لراقصة من (سراييفو)؛ مصادرة للرقص الشرقي، غجريّات عراقيّات يرقصن في المطاعم الفاخرة، مطربون من الدرجة العاشرة من بقايا أندية عدي؛ وسماسرته، أميرات عربيّات، مجلات عربيّة، راقصات مغربيّات، أسماء لا تعلق بالذاكرة، أسماء مألوفة، رجال متزيّنون بزينة نسائية، روج وملابس نسائية وشعر مستعار، رائحة النارجيلة، سندويشات الشاورما، الهامبرجر الأمريكي، كلّها امتحان للصوت، ومفاتيح لعبور الأرصفة. كلّ خطوة يخطوها وليد على الرصيف يقف بعدها متردداً، أيبادر

بـالأخرى؟ بعـد تسـاؤلات يلـتقط أنفاسـه مـن صـدره ويحادث نفسه: أنت أكثر أمناً من رصيف وطنك، سر.

مـع إحـدى الخطـوات انتبـه لبقالـة تبيـع ورق اليانصيب بباونـد واحـد للعمـود الواحـد. خلـع معطفـه الأسود الذي اشتراه من سوق الحميديّة، وراح يبحث فـي جيبـه الـداخلي عـن بقايـا عطـاء الإنسـانية الإنجليزيّـة. حين اشترى البطاقـة قرأ عليهـا (لـوتري)؛ كان يعرف أنّه من المستبعد الفوز بها.

وقف في الشارع يقرأ بعض الملاحظات المدوّنة في الورقة، واسترجع ذاكرة تذكرة لم تبادر والدتـه بشرائها لـه.

وقت سفرها بالقطـار إلـى بغداد قاصدة زيـارة (الإمـام الكاظم)؛ حين جاء المفتش، انزلق العرق علـى رقبتـه، صكت أمّـه فخذيها وقدميها، وأنزلت عباءتها كـي لا يظهـر للمفـتش رأسـه، بعـد أن خبّـأته تحـت المقعـد الخـاص بهـا. سـاعتها تصرّف المفتش كمـا لـو كـان الخطأ متجاوَزاً من قِبل رجل يدرك العوز، ويدرك أنّـه

بثمن التذكرة اشترت المرأة متاعها ومتاع من اختبأ تحت عباءتها، غضّ طرفه، ومدّ يده للطفل:

. قم يا بني، أنت في أمان لا تخف.

خرج وليد كدجاجة مخذولة، وعندما اختلطت رائحة العشب برائحة "الصمّون" والحلوى المصنوعة من الراشي، التهم المقسوم بشراهة وكأنّ شيئاً لم يحدث.

* * *

بعد هطول المطر، انتبه "وليد" إلى ورقة اليانصيب المبتلّة، وأكد لنفسه بهزة رأس: ألم أقل يا وليد إن بينك وبين الحظ مسافة. وهو في الطريق، بين الحلم والرصيف والتذكرة، شاهد امرأة مسنّةً ترتدي عباءة سوداء، وقفت متوثبة للشتيمة بعد أن سمعته يطلب منها أن يمسك يدها ويقبّلها:

– أبمقدوري أن أقبّل يدك سيدتي؟

ألقت عليه نظرة، وقطبت حاجبيها غضباً:

. أما تستحي يا مجنون، أنا بعمر أمك؟

أجابها: ولأنّك هكذا وددت تقبيل يدك.

تركها تهذي وتسبّ، رغم تدخّل شـاب كان يسير خلفها وقوله لها إنـه "لم يقصد شيئاً، وربّما رأى فيك شبهاً بأمه.. يا أماه".

لم يمر القطار بمساحات الروح، ولم يكن المفتش حاضراً وقت نهرته العجوز، ولم يكن سؤاله خطأ؛ أدرك لحظتها أنّه اشترى تذكرة غربته. تعانق عرق خجله مع قطرات المطر المتزاحمة، التي بلّلت معطفه، أخذ يضحك على جسد يرافق روحه ويقول له:

ـ امش أيها الصنم، ولا تسأل، ألم تتعلّم من المسطرة التي كسّرت أصابعك في درس التأريخ؟ قال المدرس:

- لا تسأل عمّا لا يعنيك، أحفظ ما يُطلب منك وامتحن، لتنال درجتك.

كان يعني له السؤال وقتما سأل مدرّسه: هل سنصبح غداً في التأريخ؟

ردّ عليه المدرس باقتضاب :

- نعم.

لكنـه كـان لحوحـاً، واسـتمرّ يجـادل مدرّسـه، فهـو فـي بدايـة الصـبا وعمـره ثلاثـة عشر عامـاً، بدايـة الفـوران في كلّ شيء. وحيّر مدرّسه، ولم يعرف بماذا يجيبه، فقط قال لـه :

ـ مـن الآن وصـاعداً اخنـق تسـاؤلاتك ولا داعـي أن تطلعني عليها.

رفع إصبعه ثالثة:

– أسـتاذ، ردّك هـذا يعنـي أنّ التـأريخ الـذي نتعلمـه كاذب، ويحتاج أن نبكي عليه.

فرح بسؤال المدرّس: ولمَ يا ولدي؟

لقد نعتـه بولــــدي؛ هذا يعنـي أنّـه هـادئ البـال، ولـن يزعق به ثانية. في وقفته المسرعة تجاه ما يدور في خـاطره مـن أفكـار، علّـق قميصـه فـي طاولـة الـدرس، وشُقّ الجيب وتهدّلت خيوطه. لم يخَف من توبيخ أمّه القادم، بل وقف وقفة المتحدّي:

ـ أستاذ، قلت قبل قليل نحن سنصبح تأريخاً، لكن أبي والناس في البيوت والحافلات والشوارع، أسمعهم يقولون متذمرين:

– كلّ شيء أعوج، كلّ شيء غلط.. يعني يا أستاذ راح نصير التأريخ الخطأ.. مو؟

أكل عشر مساطر ضرباً على أصابعه، وقرص قوي في أذنه.

عبر صوت العجوز إلى أذنه ثانية، تحسّسها فوجد قرص مدرّسه مازال عالقا عليها. وهو يدخل المفتاح بباب الشقة، شعر بإجابة لحيرته طمأنته أن لا حاجة له بالسؤال، ولا شأن له بموت المؤرخ، والكتب أيضاً ليس لها حاجة أن تعرف عنه شيئاً.

المؤرخ موثّق للحقائق، ومزوّر غير موثوق به، كما هي تقنية توزيع الجوائز لكتّاب عظام أرّخوا مرحلة ما، في أعمالهم أو كتبوا التأريخ بعين الواقع، لكنهم نسوا توثيق الأحاسيس وفكرة اللون.. في غير مرسمه لم يجد لون الفكرة، فأوثق يده اليمنى بما تبقى من يسراه، وراح يستكشف حقيقة ألوانه.

* * *

حين فتح باب الشقة، صادفه رجل نحيل، يميل إلى الطول، أسمر اللون، كثيف الشارب، أسود العينين، لمعة حادة تتوسط اسودادهما، تنمّ عن ذكاء وقدرة في إدراك الأشياء واستيعابها. العزلة هي حدود الكرامة، كرّر هاتين الكلمتين بعد أن حاول جاهداً تحرير الأسمر الذي صادفه في المرآة من معطف مبلّل، مدّ يده على شاربه وخاطب أسمره:

- لم تبق لديك شعرة سوداء.

تذكّر أنّه لم يتيسّر له ما يسدّ الرمق، فقد ألهته بطاقة اليانصيب عن ذلك. فتح الثلاجة فوجد علبة بيرة وكعكة، راح يغمس الكعكة في البيرة بعد أن صبّها في كوب الشاي الكبير. وجلس على الأريكة، قضم قضمة واحدة، وغاب بعيداً.. حين انتبه وجد أنّه يضع كوب البيرة بين فخذيه. ضحك ضحكة عالية، واحتسى البيرة كلّها دفعة واحدة، ثم رمى نصف الكعكة في منفضة السجائر. استخرج قدّاحتة من جيبه، ودخّن. سحب بكلّ قوته نفَساً عميقاً وراح يراقب حلقات الدخان الهاربة منه، تنهّد:

- هه.. إنه مثلك أيّها الدخان، بارد مثل البيرة. يدي لم تحرّك له ساكناً، لو تدري تلك العجوز أنّه مخصيّ لما شتمتني.

- ثم ضرب على عجزه:

- الحزن كبير، كبير يا.. يا ماذا، أنت مجرد لحم متهرئ يبحث عن جواز سفر، ولست من طوابير الإناث كما لست من طوابير الذكور. (ضربه بقوة)؛ أنتَ بحاجة إلى تعمير. لو حصل لجلال الدين الرومي ما حصل لي، لما قال: كن نفسك.

من خلال تأمله المتواصل بعواطفه وحزنه العميق، فشله وتحويله إلى خنثى عاجزة، يطرح أسئلة تدبّر له مخرجاً للوصول إلى لون إيقاع الحياة. اثنتان وخمسون لوحة لم تأت بإيماءة لثوب فاتنة يراها في حلمه، الرسائل المتبادلة بينه وبين صديق له في ألمانيا، كانت الوسيلة الوحيدة لديه لطرد الوحشة عنه، كما هي الزاوية التي يتذكر فيها علاقته مع شوارع سوريا وطعم الخيار الطازج والطماطم الطازجة

والخبز الساخن، ضحكه على قصائد" عبد الحق"، بعد نثر الخيار والطماطم على طاولة متواضعة وانتقاء أصغرها وتقديمها لعبد الحق.

المحطات البعيدة تقترب، ثم ترجع إلى تجزئة المكان، تثور فيه على نفسها وعلى مَن قاس خطواته بلون الدروب وإغراءات المطارات، إذ تتحوّل الأقفاص من سجن إلى ثكنة عسكرية ثم إلى ملاجئ لإحالة الجسد إلى التقاعد، والعقل إلى التلصص على حقيقة كانت من نوافذ لا تسمع ولا تفهم معنى أغنية (نخل السماوة يقول طرّتني سمرة).

من ذات النافذة يفسّر لقاموسه المتضاحك عليه معنى كلمة طرّ؛ طرَّ طراً كان طريراً، ذا رواء وجمال، لا هذه لا تعنيك يا وليد. يتركها ويلجأ إلى تفسير آخر، فالطرير تعني ذا المنظر والرواء، وفي العراق منذ صغره كان يسمع في الشارع كلمة أطرّك طر، أي أقسمك نصفين، كما سمعها مراراً في التلفزيون:

((اللي يخالفنا نطرّو طر، هـ..هـ.. مو هإ إي))

بالتأكيد لم يقصد التلفاز أن يزيننا بغرتنا ويسدل شعرنا على الجبين، فالطرّة هي زينة المرأة في شعرها المصفّف على جبهتها، لكن كلمة طرّيته نصفين قديمة، الله كم حاكم يا وليد طرّ أجساد شعبه طراً، وقصّه قصاً؟

لتعبر الذكريات المطرورة بنصفيها الممتلئين بالدم، سخرية حمقاء لا معنى لها. الشيء الوحيد الذي يضحكه بعض الطرف والنكات الوسخة في رسائل عبد الحق إليه، إذ كم تمنى أن يسمعها منه صوتاً لا مكتوبة.. الغربة ليست شرطاً من شروط الإبعاد الإجباري أو الاختياري، الغربة هي شعورك بنفَس يصعد ويهبط في صدرك وهو غريب عليك.. هذه الغربة العمياء والأكبر في طرّها.

شدّ على يده بأطراف أصابعه، ضغط بقوّة كأنّه يرسم شيئاً ذا معنى، ضغط أكثر من ذي قبل، استعطف رائحة المكان، صداقته، والتقاءه بعبد الحق في سوريا. استحضر لحظات توديعه في المطار، جرّها جرّاً إليه، رفّ قلبه إلى عيني صديقه. اكتشف

على شفتيه كلمة غريبة، فحّت رائحة حفرة عمياء على ساعده، مرّر أصابعه المرتعشة. هذه المرة استوضح الشكل الذي بين أصابعه، كان كفاً بخمسة أصابع.

وكأعمى يهتدي إلى شيء رآه لأول مرة، فتح عينيه فوجد أصابعه تتلمس الفراغ.

استخرج رسالة قديمة من "عبد الحق"، قرأ اسمه مكتوباً بالإنجليزية (From Abdulhak). آه لو نتخلص من إرث عبوديتنا، لأصبح لدينا الحق لطرح الأسئلة.

وبقي يحادث نفسه: كلّ ما أردته أن أزخرف الأشياء الجميلة وأطرحها على شكل سؤال، أبعِد عنها ما شككت به ومازال يحاصرني شكّه، سألت ما يمكن أن أسأله، وطرحت ما أشك به مستوضحاً. نلت بعدها مساطر على كفيّ، وتورّمت أصابعي.

البـراهين؟ لا، لسـنا فـي حاجـة لبـراهين، فـي طـابور المدرسة؛ قفوا، اصطفوا، احفظوا، امتحنـوا، تعـالوا غداً نظيفين سيزورنا مفتش وزارة التربيـة.

كـل مـا أردتـه مـن أبـي أن يعطينـي دينـارين لشراء قميص، فقد تعبت أمّي من ترقيـع قميصـي. لـم أبـادر بسؤاله؛ لماذا؟ وكلّ ما سمعتـه:

- (جيب يا كلب، أنت عارف بالحالة شلون بنت كلب).

خجـل أبـوه مـن نفسـه، بعـد أن تطلّعـت إليـه والدتـه مؤنّبة، التجأ إلى حضنها، مسحت دموعه .

ـ كلّ ما قصدته أن.. أن.

ـ اسكت يا بني، لا تعذّبني أكثر.

فأكرمهـا بسكوتـه، وأكـل تأنيـب مـدرّس الصـف لـه، فالمـدرس رغـب أن يقدّمـه كأشـطر الطلبـة ويتفـاخر بـه أمـام المفتش، لكنـه قدّم عليـه ابن تـاجر الغنم، الذي ارتدى قميصاً نظيفاً لم تظهر عليه آثار الترقيـع.

***

بعيداً عن نافذة الخيال، بعيداً عن "عبد الحق"، رمى الرسالة أرضاً، أشعل سيجارة، أعد كوب شاي، وراح يتأمل طفولته وألوانه.

***

جلس يستعيد اللوحات التي رسمها الطلبة في كليّة الفنون، ناقشه وقتها أحدهم، حين وجده يرسم أشكالاً غير واضحة الملامح، مجرّد حُفَر في وجوه، العيون حفر، الأفواه حفر، الأشكال غير مترابطة، مجرّد فوضى وهياج.

سأله:

- ماذا ترسم؟ أنت تسيء للفن برسومك هذه.

أجابه:

- هذا ليس من شأنك، والنقاش بيننا عقيم، لكلّ منا طريقته في التعبير عن ذاته.. وأنت ماذا ترسم؟

- أرسم ابنة العراق السمراء، أنثى غامضة أليفة الجمال، انظر كيف الأنوثة تصفو في عينيها.

رد عليه "وليد":

- ترسم ابنة العراق، وأنا أرسم العراق كلّه.

احتدم النقاش بين الأصدقاء، تدخّلَ أحد الأساتذة الذي خرج على صوت نقاشهم الحاد، تطاول عليه صاحبه ونعته بالشيوعية، ثم وجّه كلامه للأستاذ "جلال":

- أستاذ، كلّ لوحاته صراخ.. إنه يحرّض للثورة.

نظر إليه وليد كقزم خسيس، متأكداً أنّ لوحاته ستُباع في الأسواق بثمن بخس وفي متاجر الفن الهابط. وحاول أن يلتمس له المعاذير، قائلاً: تذوّق الفن يحتاج إلى ثقافة عالية وعريضة المساحة.

من وقتها لم يتدخّل وحيد في رسومات رفيقه وليد، كي لا يفضح ثقافته السطحية، إلا يوم قادت الشرطة وليداً من الكلية إلى التحقيق مكبّل اليدين.

وقف متسائلاً، بعد استئذان الشرطي :

- ألم تعجبك صورة المرأة التي رسمتها؟

ردّ وليد بشجاعة:

– لا (واستمرّ): كلّ يبحث عمّا ينقصه، وعمّا يترجمه من الداخل، أنت بحاجة لما يترجم نقصك الجنسي.

نهره الشرطي:

- وأنت أيها الكلب تنقصك الثورة، اسمعوا، هذه إجابة صريحة، إنّه يدين نفسه أمامكم ويبرهن على تحريضه ضد الدولة والرئيس والحزب.

***

في لندن يحوك عزلته في غربة نفسه، مجموعة لوحات تنتظر من يعرفها أو يستكشف ببياضها، مجاميع من الأماني لا وقت لها الآن ولا محلّ لها في ركن من الحياة. يتخيّلها عارية، حلمة متورّدة لا يجرؤ على الاقتراب منها. يفتح الثلاجة، لم يجد زجاجة بيرة، يمشي متوتّراً صوب المرآة:

- ها أنا أعود لامرأتك يا وحيد.. لمَ لمتك وقتها؟ لمَ وبّختك ؟ لست أدري.

تساءل وقطّب حاجبيه:

- هل كنت أكذب على نفسي وقتها؟

شعر بحاجة ماسّة للتبوّل، دخل الحمام، ولعب لعبته المعهودة في إغلاق الضوء وفتحه من خيط متدلٍ قرب الباب:

- ألا يكفي الإنجليز علبهم وأقفاصهم التي يتوهّمون أنها بيوتاً؟

ضرب الخيط كي يتأرجح، سحب السيفون، وترك الضوء منبعثاً:

- كم أنتم تقليديّون.

* * *

رجع إلى جلسته، استحضر أعزّته، كانت أمّه تبتسم والمغزل بيدها على آخره. سمع طقطقة صفائح النفط، ابتسامة "علية" الأخيرة، نظرة طفلتها الجميلة. صديقة تعرّف عليها أوّل مجيئه إلى لندن، بعد فترة اكتشف أنها تتجسّس عليه، وكانت تعامله كامرأة مثلها، لم تكن تحب الرجال، أسرّت إليه: أنّها تعرفت على غانية مغربية تعمل سكرتيرة لدى ثري إنجليزي، بعد أن أغوته

وتزوجتــه، كمــا ذكــرت لــه علاقتهــا بــامرأة ذات ثــراء وزوجها الثري، كلاهمـا فـي الإمـارات. ولمعرفتـه الجيـدة بالناس وتجاربه الحياتية استنتج من أحاديثها أنّها لا تصادق إلا من تجد لديهم مـا تحتاجـه وتصبو إليـه، لا يهم إن كانـت غانيـة سيئة السمعة، من أجل حاجتها تتـرك أولادهـا وتبيـت فـي بيتهـا ثـلاث ليـالٍ، المهـم كـم تسـتفيد مـن علاقتهـا بهـا. ومـن تلـك النظـرة ذات المصــلحة وطــدّت علاقتهــا بالخليجيّــة، التــي بحكــم الطيبة المعهودة في بلادها شربت المقلب.

استحضـر مـن يحـب ومـن لا يحـب، تنفسـت مسـام جلده إثر ابتسامة تلتها ضحكة عاليـة، إذ طرأت عليـه فكرة ذات يوم للتنزّه في شـارع (هـاي ستريت كنـزكتن) استقل الحافلـة (72) ثـم سـار مشـياً ممشـطاً الشـارع ومحلاتـه وفنادقـه ومقاهيـه، الشـقق الفـاخرة، محـلات البضــائع النســائية والرجاليــة، مكاتــب العقــارات. شــم رائحة بخور هندي ، استدرجته الرائحة ودخل المحل ذا الطـابع الشـرقي، الـديكور الهنـدي بألوانـه الزاهيـة بـين

الأحمـــر النـــاري والأزرق الفـــاتح، بضـــائع حريريّـــة، ملابس نسائية وحلي، حقائب نسائية يدوية.

دخـل فاتـــحاً منخريـه علـى آخرهمـا، لـم يقصـــد الشراء أو التجـــوال فـي الشوارع، بـل رغب فـي رؤيـة وجوه النسـاء لعلـّه يجد من يتمنـى رسمها. ابتسم لـه صاحب المحل، ردّ على ابتسامته، لحقـه البائع الشـاب عارضاً عليه خدماته. شكره، ثم ردّ علـى سؤال طرحـه البائع حول مسقط رأسه :

-(I am from Iraq)

. (أوه.. صدام.. You are from Saddam)

هزّ رأسه مؤكداً :

- لكـن كمـا لـديكم (غانـدي)؛ لدينا..(مبتسـما)، مـع الفـارق طبعـاً. وبمـا أنّ فـي بلادكـم حكمـت امـرأة مثـل (أنديرا غاندى) منذ زمن، نحن جاءنا الفرج، لقد رفعت نزيهة الدليمي ورفيقاتها صوت المرأة عالياً. وطبعاً مع فارق الزمن.

- اســمح لـــي ، أظنـــك فخـــوراً (بطـــاغور) ، ونحـــن فخورون بالسيف الذي تغنّي بـه المتنبـي. أنـتم تعودتم

لغـة السـلام ونحـن لغـة السـيف ، تفنّنـتم بالتجـارة والزراعة والعلم والفن وكلّ ما يحتاجـه الإنسان، ونحـن قمنا بطمر الإنسان ووسّعنا قبره.

وضع يده على وليد: لا تكن متشائما.

- (أوه .. سوف أفعل. "مستهزئاً").

ثم خرج مودّعاً، كأنّه يبحث عن شيء فقده .

استوقفه محل للوشم.. طوابير الفتيات المراهقات، النسـاء والرجـال. دفعـه حـبّ الاسـتطلاع إلـى الدخول،غرفـة ذات أربـع كنبات حُشرت عليهـا أجسـاد الفتيـات المنتظرات دورهن، صور معلّقة علـى الحـائط بكـلّ الرسـومات الصـغيرة والكبيـرة مستعرضـة الأشـكال والمواقـع الموشـومة، علـى السـرّة والأفخـاذ والأوراك والأثداء .

شـاهد صـورة امـرأة وصـورة صـليب موشـوم علـى عورتهـا، بينمـا صـورتان لـرجلين أحـدهما جـالس علـى ركبتيـه الموشـومتين والرسـومات تمـلأ فخذيـة وعلـى مؤخرته، بينما وقف الثاني منتصب القامـة كـأنّ منظره الموشوم يقول ها أنذا برجولتي المزخرفة.

مدّ يده إلى بنطلونه يتحسّس شيئاً فقده منذ زمن، وفكّر؛ ماذا لو حجزت لي موعداً مع الوشّام، ربما نغز الإبر يوقظ المقتول بين فخذي، هزّ يده مستنكراً، وخرج.

* * *

شعر بحرارة الكرسي تحته، كان الوقت يُغرقه بالذكريات، وكانت الساعات الثلاث التي قضاها على جلسة واحدة قد تركت النمنمة والخدر يدبّان في قدميه حتى لم يعد قادراً على تحريكهما. فركهما بيده، شعر بوخز قويّ في رجله اليمنى، فركها أكثر، دعك ساقه وقدمه، اعترف بالخطأ الجسيم أمامها:

– من حقك أن تخدري، أكو مجنون يجلس ثلاث ساعات مرة واحدة؟ أي وين كنت يا ابن الكلب أكو واحد يسوّي عملتك هذه؟ إي ما جعت؟ ما عطشت؟

– أدري بأنّك كنت ترسم صورة في خيالك، تستحضر كلّ الوجوه في (هاي ستريت كنزكتن)، تتفحّصها وجهاً وجهاً، ثم ما الذي استفدت من اجترار أشعار عبد الحق؟

حتـى التليفـون كـان مصـرّاً علـى الصمـت، كـان متواطئاً مع ساعاته. نهض متعباً، لم يكن راغباً بفتح التلفاز، ولـم يستحضر امرأة ببالـه. وقـف أمـام المـرآة في مدخل الشقة، تفحّص عينيه المحمرّتين، ثـم أشـار بإصبعه:

– نعم، مازلـت تشبه وليـداً الـذي عرفتـه. وليـد بـائع الـنفط، وليـد الرسـام، وليـد الـذي لـم يسـاوم.. انتبـه فجأة.. ووليد النصف، وتريد أن تهواك امرأة؟

– النسـاء تحـب الرجـل الكامـل، المـرأة أيهـا النصـف تحـب أن يمسـكها الرجـل بيديـه، يطبقهمـا ويـتفحص الجسـد، يتنقـل مـن نقطـة إلـى نقطـة،يرتجف عشـقا ورغبة فأين يداك؟

ثم أنت فاقد لحاسة الشم، تشمّ ماذا؟ ها. كيف تتغزل بعطرها؟ وعضوك المخذول مـاذا تفعل بـه؟ هل تتـذكر أوّل (قحبة) جئت بها من (البيكاديللي) إلى هنا؟

هل نسيت ما قالته إليك؟ أنا أذكّرك، قالت لك:

– لا جيب ولا رجولة أحضرتني هنا لتلعق ثديي، طيّب هات نصف أجرة إذاً؛ ودفعت لها أجرة كاملة لتغطّى عيبك.

ماذا لو كانت "علية" الآن أمامك، وأنت لا جيوب ممتلئة ولا سيارة فارهة ولا رجولة؟ مجرّد زبالة تتصوّرها وليداً، (تفو عليك).

بصق وراح يتابع بصاقه كيف انزلق على سطح المرآة، حتى وصل إلى النصف؛ نعم:

- استقرّي هنا. (وينك يا علاّوي تشوف صاحبك، حتى التفلة عرفت وين تستقر)

***

"علاوي" أحد أصدقائه الذين استقرّوا في الإمارات منذ السبعينيّات، وأصبح تاجراً الآن وذا نفوذ في البلد. كاد أن يُغمى عليه فرحاً حين شاهده ذات يوم صدفة، وهو يتجول في محلات (ماركس أند سبنسر)؛ في شارع (أوكسفورد).

ـ علاّوي.. ماذا تفعل هنا؟ متى وصلت؟ ما هي أحوالك؟ هل أنت وحدك أم مع نسوان؟

وليد.. يا للصدفة الجميلة، وأنت ماذا تفعل هنا؟

ـجئت لأبحث عن امرأة أرسمها، وأنت؟. للتسوق أكيد.

خرجا معاً، كانت سيارة بسائقها في خدمته، أشار للسائق بالانطلاق والتوجه إلى مطعم (مسقوف) .

بعد تذوق أطيب الأكلات وألذّها قرّرا أن يلتقيا ليلاً في دار مراكش، هناك ألذّ المأكولات المغربية والشيشة. هل تعرف المكان جيداً يا وليد؟

ودّعه وليد مؤكداً على معرفته المكان وعلى الذهاب إلى هناك لانتظاره في التاسعة مساء.

معدته لم تألف مثل هذا الأكل، فثارت عليه مترجمة رفضها بآلام حادة، صاحبها قيء وصداع. فقرر عدم الذهاب حسب الموعد قائلاً:

- هذا أحسن، ألم معدتي لم يكن من التخمة بل من فراغ الجيب.

المفروض أنا من يضيّف، هو الزائر وأنا ابن البلد. ثم إذا ذهبت هناك هل أتركه يدفع عنّي، وأنا لا أملك سعر علبتين من البيرة ؟ يا الله، هذا أفضل. شكراً أيها المغص المنقذ، خلّصتني من ورطة كبيرة، من الدفع ومن سيل لعابي على النساء وعلى حديثي عنهن:

- الصدر بضّ، الشعر ناعم، المؤخرة مدوّرة، تفعل ما ترغب به، هي في خدمتك، بينما زوجتي.. ثم يصمت علاوي.

التقط قطعة لحم بالشوكة وقبل أن يضعها بفمه يبرّر لي سبب خيانته لزوجته:

صحيح أنا أحبّها بجنون، لكنّها أكلة واحدة، يا أخي ملّيت كلّ يوم بامية، بامية.. إي هم يشتهي الواحد اللحم الروسي الذي غزا شوارع الإمارات ودوائرها ومحلاتها؛ ثم أنا مللت من اللحم الفلبيني.

(حين كانا في المطعم، كان يضع قطعة من لحم الكباب في صحن وليد ويقول له) :

-كُل يا وليد، كل. هذا لحم إنجليزي.. ويغمز له، أكيد ذقت اللحم الإنجليزي؟

تمدّد "وليد" على فراشه، وراح يقرأ رسالة "عبد الحق" التي وصلت صباحا، قرأها أربع مرات، ثم الخامسة، استفزه شعر عبد الحق، تخيل صورة ما، ودخل المرسم، يستعيد الكلمات ثم يرسمها. يتناول الألوان، ويضع حرفاً على شكل قوس، وتمرّ الساعات.. يقف يتطلع ، يرسم، يشعل سيجارة، يشرب قليلاً من البيرة، يضعها أرضاً ويواصل .

أذهله سحر اللوحة، إنها كيان وليست ألواناً فقط، لا بل قصيدة، لغة بالألوان. يحدث لوحته، يقف وهو يسند ظهره إلى الحائط : وينك يا "عبد الحق"، وينك تجي وتشوف بيت الشعر الذي قلت فيه:

خضّبتُ المستباحَ

حمّلتُه ميعادكَ وانفلقتْ.

– ها هي انفلقت.

كلّ المستباح، من رجولتنا إلى أرضنا. ثورة ألوان. أحمر، أخضر، أصفر، أزرق؛ سأسمّيها المستباح؛ ولن أعرضها في أيّ معرض، هي لي.. يجب أن

أعلّقها على هذا الحائط. لا، في غرفة نومي، لا.. هي هية يا عبد الحق، هدية.

وراح وليد يدير قرص التلفون، بعد ثلاثة أرقام تطلّع إلى ساعته، وجد أن الوقت غير ملائم، فقرر الاتصال بعبد الحق في وقت لاحق.

لم يلتقِ بعبد الحق في سوريا، لكنه التقى به في كلية الآداب في بغداد، وتصادقا بعد أن التقت أفكارهما وآلامهما. كان يلحظ ألماً دفيناً في عيني عبد الحق، وبعد توطّد الصداقة حكي له كلّ شيء، وصارا لا يفترقان. لكن فرّقهما السجن، من وقتها لم يسمع عنه أيّ شيء، إلا مفاجأة "عبد الحق" له عبر الهاتف في لندن.

***

كانـت أمّـه قاسـية جـداً، تضـربه كثيـراً وبعنـف. كانـت تعكس مشاكلها العائلية وسخطها على عائلة زوجها التي تغار منها لكونها جميلة، ولكونها استحوذت على قلب أبيـه. لـم يكـن متعلّقاً بأمّـه، بـل بأبيـه الـذي كـان عاملاً في شركة البيبسي كولا، ثم شرطياً، ثم سائق تاكسي. كان متفوّقاً في المدرسة، وخاصّة في دروس اللغـة العربيـة، وكـان موضـع اهتمـام مـدرس اللغـة العربية، حيث أهداه مجموعة قصصية لـ"فهد الأسدي". هرب من البيت إثر ضرب وإهانة من والدته، وسكن عند عمتـه. كانـت طفولتـه فـي (الشـاكرية). و كانـت (الشـاكرية) عرصـات وصـرائف للعمّـال والفلّاحـين النـازحين مـن الجنـوب، لـيس فيهـا مـدارس أو مراكـز صحيّة. وعندما كان أحمد حسن البكر رئيساً للوزراء، انتقـل مـع عائلتـه إلـى مدينـة الثـورة، أرض مهجـورة متعاطفـة مـع عبـد الكـريم قاسـم ، وفـي عـام 1963 اعتقل الحرس القومي الشباب من جيلـه، ورحّلوه بعد هجوم علـى بيـت عمتـه وسـحل زوج العمّـة بدمـه. ثـم خـرج بعـد شـهور مـن الاعتقـال والتحقيـق، حيـث لـم

يعثروا على ما يدينه. كانت ميوله دينية في بادئ الأمر، لكن القراءات في فترة "عبد الرحمن عارف"، لِنجيب محفوظ، وإحسان عبد القدوس وغيرهم أبعدته وهو في سن المراهقة عن الحس الديني، ونتيجة تأثير الأقارب والأصدقاء الذين ينتمون للحزب الشيوعي، والذين كانوا يزوّدونه بالكتب وهو في سن السابعة عشرة، أصبح شيوعيّاً، ثم عضواً في اتحاد الطلبة.

في سنة 1972 تعرّف في جامعة بغداد على فتاة سمراء، معه في القسم نفسه، وتزوّجها بعد ذلك، وفي السنة ذاتها قُدّم ضدّه بلاغ بأنّه ضمن خليّة حزبيّة تتآمر على اغتيال قائم مقام مدينة الثورة. واعترف عليه شيوعي سابق من المنطقة بعد تعذيبه، وعلى مجموعة من الشباب. حين داهموا بيت عمّته مرة ثانية، لم يجدوه في البيت. وسجل اسمه إثر هذه التهمة الملفّقة مع الممنوعين من دخول الجامعة، فطلب منه الحزبُ الاختفاءَ لمدة سنة.

في أوّل سنة له في الجامعة، كوّن مع أصدقاء له من شعراء وكتّاب ورسّامين أصبحوا معروفين الآن (جمعية اتحاد أدباء مضاد) ؛ رغم أنّ بينهم من البعثيين والشيوعيّين. ولقاءاتهم في مقهى المثقّفين في بغداد حمّسته على كتابة الشعر ومواصلة الثقافة. ومن خلال اتحاد الطلبة توطّدت علاقته مع جريدة (طريق الشعب) وتمّ ترشيحه للحزب قبل السنّ القانوني.

إثر تسرب معلومات لوالدته عن مكان الجريدة، جاءت إليه وزارته في مقر جريدة طريق الشعب، وأصبحت العلاقة بينهما إثر تلك الزيارة، رغم توتّرها، فيها شيء من الألفة وحنان الأم.

إلا إنّه بقي في بيت عمّته، ثم انتقل بعدها إلى بيت ابنة عمته التي تكبره بكثير، أرملة استشهد أخوها إثر اعتقاله سنة 1963 مع مجموعة القيادة المركزية بعد أن حقن في رأسه إبراً أودت به إلى الجنون ثم الموت.

أمّا هي فقد كانت توزّع المناشير في علاّقة، الخضار وهي ذاهبة تتسوّق، كانت غاية في الجمال، وحادّة الذكاء، وتحب الحزب بشكل تلقائي وعفوي، وصاحبة نكتة.

تزوّج عبد الحق سنة **1979** وفي السنة ذاتها ترك العراق، قدّم على جواز سفر بصفته عاملاً بكفالة قدرها خمسة آلاف دينار، ووقّع على وثيقة صحيّة لكونه ذاهباً للعلاج في بلغاريا ثم السياحة في تركيا، وعقوبة تكذيب هذه الوثيقة هي الإعدام. في الحدود بقوا ليلة كاملة، بعد أن أعياهم السفر من الموصل إلى دهوك. نقطة "إبراهيم الخليل" كانت مرحلة الشكّ في سفرته، سمحوا لزوجته بالعبور لوحدها. سمحوا للمرافق أن يمر، بينما أمروا المريض أن يرجع مع شقيق زوجته الذي قادهم إلى نقطة الشكّ بسيارته مدّعياً أنّه صاحب تاكسي.

انتقل مسرح التدبير للخروج من العراق إلى والد الزوجة، رجل بسيط صاحب محل لبيع وتصليح الزجاج، يمرّ عليه ضابط يعمل في الجوازات. فطلب

منه جواز سفر جديداً لصديق اسمه مظلوم، وأعطاه صورة شخصية لعبد الحق، وحين سأله الضابط عن صاحب الصورة أكّد أنّه عامل بناء، لكن الضابط أصرّ على أنّه صحفي، وأنّه شاهد صورته في جريدة طريق الشعب.

فأقسم له:

- لا والله يا أبو مخلص، هذا رجل بسيط لا يعرف طريق الشعب ولا طريق الحكومة.

عندها وافق الضابط على ذلك، وقبض قيمة الجواز مئة دينار، وهو يقول: إكراماً لك يا عم أسقط حقي في الأجرة، لكنْ لديّ عمل صباغة في الدار وأريده أن يقوم بذلك.

انتقل "عبد الحق" من القلم إلى الفرشاة، يلطّخ هنا ويعربد هنـــاك، ولمدة شهر كامل. غادر بعدها إلى سوريا، ومن سوريا التحق بزوجته في بلغاريا.

هناك أصيب بإحباط، كانت بلغاريا بالنسبة إليه صدمة حضارية وثقافية، فبينما كان فرحاً ومتهيئاً نفسياً لمشاهدة بلد ديمقراطي مقارنة بالوطن، وجد

شيئاً آخر، لكن العيب لم يكن في البلد، بل في الناس، كانوا نصّابين باسم الرفاق، أين الرفاق الذين عهدهم في العراق؟ فلاحون وعمال، مثقفون وبسطاء، أين هم؟ من هم الحقيقيون ومن هم المزيفون؟. إنه يعرف الكثير منهم والذين جاهد معهم، وتوقف واعتقل معهم.

ترفّع عن الصغائر واهتمّ بالانتماء، بانتمائهم ابتعد عن التشكيك بالآخر كما كانوا يفعلون. سلبيّة الأحزاب بالحكم وسلبية البيروقراطية والزجر والأوامر جعلته ينهار، إلى درجة أنه لم يقوَ على ممارسة الجنس مع زوجته لمدة سنة، بعد أن خضع لجلسات علاج لدى طبيب نفسي.

من الصعب أن يجد المرء القدوة والمثل ينهار في نظره، رغم أن الكثير من النساء والرجال ضحّوا من أجل قناعاتهم وانتمائهم الحقيقي والمبدئي. كانت تراوده صورهم وهو في المصحّة، منها صورة تلك المرأة الجميلة، زوجة صديقه الذي يسكن في مدينة الثورة. كان لا يستطيع أن يلتقي معها في البيت أو

في مدينة الثورة كي لا يكشف صلتها الحزبية معه، فيواعدها في ساحة النصر.

سابقاً كانت العباءة العراقية هي ستر المرأة، والغانيات هنّ من يرتدين القصير والعاري من أجل جلب الزبون. ولكن في أعوام السبعينيّات تخفتّ المومس في العبـــاءة، وصار ارتداء المرأة لملابس محتشمة يُعدّ جذباً للتحرشات والمعاكسات. تعرّضت تلك الرفيقة للإساءة، وكان الراغبون في امرأة يسألونه، وهو يسير معها لتوصيل خبر أو تعليمات حزبية، عن أجرة الساعة بصفته القواد، المرافق.

لقد تعرضت للاعتقال والتعذيب، وسمع في بلغاريا أنّها ماتت صامدة ولم تخبر عن رفاقها، كما سمع عن إعدام شقيق زوجته الذي وقع على كفالته بأنّ المعلومات الكاذبة التي قدّمها هي معلومات صحيحة. قصته تكفي أن ينتظر قليلاً، ويكفّ عن الكلام. لذا لم يكمل عمّا عانى في بلغاريا، وظنّ أن هذه المعلومات تزيد إحباط وليد، فاختصرها في رسالته الطويلة.

أخبره أن الأوامر اقتضت إرساله إلى اليمن، وأرسل

عن وضعه في اليمن ديواناً شعرياً يترجم فيه كلّ شيء، سمّاه "الصهيل المبتور".

ثم وضع نقطة سوداء كبيرة في نهاية الرسالة، وترك ملاحظة يشرح فيها كيف عرف عنوانه من صديق يعمل في الصحافة في ألمانيا، فكانت تلك اللحظات بالنسبة إليه لحظات استثنائية أن يعرف عن صديقه الفنان. كما أن الصديق ذاته دبّر له عملاً معه ، وراح ينشر أشعاره مترجمة إلى اللغة الألمانية، ومرة بالعربية.

***

عاين وليد يمنة ويسرة، فوجد أشرطة تسجيل مرميّة أرضاً حيث يعتبرها أشرطة غسل الذاكرة، أدار المسجّل بعد أن وضع فيه شريطاً لأغانٍ قديمة، وترك هاجس المرأة يعبث بمخيّلته.

غمرته نشوةٌ جنونيةٌ وهو يحاول الوصول إلى حلمة متورّدة، كلّما انتهي من رسم امرأة من المخيلة مزّقها، وبحث عن أخرى. يقترب منها، تسحره عيناها، تزحف

النشوة إلى جسده وهو يحرك الكرسي الهزاز ويداعب شفتيها.

تسير يده ببطء، تقرأ وجنتيها ورقبتها، يمرّر طرف إصبعه على زندها وعظمات رقبتها ناحية الظهر، ينزلق إصبعه في ممر العظمات ويستقر عند قراءة المفرق، آخر عظمة تتربع بين تليّن من اللحم الأبيض.

خطوط جديدة تزيح اللحم البضّ عن مخيّلته، فتأتي عابرة ودون استئذان صورة "علية"، يفتح عينيه ويهرب من صورتها القدّيسة، يجلس على الأرض، ومعه ثلاث علب من البيرة، يضعها أمامه دفعة واحدة، ويضع عشرات من السنين في خزانة قلبه.

يقضم أظافره بأسنانه، لا يجد أمامه غير صورة الفراغ، يفرك عينيه باحثاً عن لون. يبرهن لنفسه أنّه مازال يتنفّسها ويشمّ رائحتها:

- تعالي، تعالي يا علية، تعالى ولو في الحلم.

يسند ظهره إلى حافّة الأريكة، يندف شعره الذي تركه على سجيّته دون حلاقة أو صبغة، يستحضر كلّ

ما يمتّ" لعلية" بصلة، فيجده عصيّاً عليه، يتمدّد على الأرض كسفينة لا تجرؤ على الإبحار، يجلب له خمس علب أخرى، ويتركها قرب الثلاث الفارغة. ثم يرجع لسفينته، ليعطيها قليلاً من جرأة، وحين عصت.. حثَّها، ولما استكبرت، دفعها إلى حافة الرمل، انزلقت قليلاً إلى الماء.

أغمض عينيه بارتخـاء ساخن، كانـت على صدره اثنتان تجدّدان القُبل، وختم الشفتين يزيّن رقبته ويديه وبطنه العارية. نفَس حار، وشعر أشقر أُسدِل على وجهه، شمّ رائحة عطر لم يشمّه من قبل، نساء (هاي ستريت كنزكتن)، (أجورد رود)، (بيكاديللي)، (الناصرية)، (بغداد) ، لم يجده على بطاقات السفر اليومية وعلى تذاكر الطائرات. بينما سمراء متمرّدة بشعرها المتمرّد، تطوّقه وتشمه، وتصطك أضلاعه بأضلاعها، ويكاد أن يحيي الميت فيه.. فإذا بعربدة جاره السكير تستقر في رأسه وتعيد إليه صحوته.

أفزعته الوحشة والفراغ بينما العزلة أصابته بالخرَس، لم يجد أثراً لقُبل. تفحّص بطنه، فتح

منخاريه ليشم رائحة امرأة، لم يجد أية شفة تتصدق عليه بقبلة، كان قلبه بوسعه أن يتّسع لحلم استثنائي. وكاد أن يدخل صدر الشقراء، يخترق نبضات قلبها ويدخل.

دار في الصالة عشر دورات، دخل غرفة نومه، شعر برقصة على أصابعه. عضّ شفتيه ومدّهما، عضّ الفرشاة الصغيرة، ابتعد مسافة مترين، تحسّس يده المبتورة، سكت، فاض في قلبه شيء غريب، أحسّ بجسارة سؤال في صدره : ما الذي يمكنه أن يصوّر امرأة تفضح النهدين؟ امرأة هي غايتي وجرحي العابث باللذّة.

التفّ حول نفسه، وقف أمام المرآة :

- هذه اللوحة الأخيرة، وسأعلن عند إتمامها عن معرضي، وأدعو إليه أصدقائي المقربين؛ لقد نالت مني العزلة ونلت منها ما يكفي. نعم يا (دافنشي)، العزلة هي الحرية، وصدقتَ حين قلت:

- (إذا كنت وحيداً فأنت تملك نفسك، وإذا كنت مع رفيق واحد فلن تملك إلا نصفك).

بعد حمّام دافئ، فتح صدره لهواء الشرفة، صرختُه اليوم أكبر من صدره، وجدها تهتزّ مع الشجر على مرأى من الهواء لسعته البرودة، زرّ بلوزته الرمادية ضامّاً صدره إليه، قبل أن يغلق النافذة أخذ نفَساً عميقاً، وأغلقها بهدوء، أعدّ كوباً من الشاي، استخرج رسائل قديمة وصوراً قديمة لأهله، تضاعف حجم السؤال حين وجد صورته في الناصرية، ابتسم لنخيلها:

-أيتها الجميلة يا ناصريّتي الموقّرة، سأحفرك في مجرى الروح.

احمرّت عيناه، واحتقنت وجنتاه، تطلّع إلى المنفضة، وجد السيجارة قد أكلت نفسها. خطا نحو مرسمه فرحاً: أيتها اللوحة خُذيني إليك. سألته الحبيبة: لا بدّ أن أطير على جناحيك.

لم يسمعها، هيّئ له أن صوت "علية" مرّ قرب ريشته المغموسة في اللون الأحمر، سأل وجه أمّه من الفرشاة، دهش حين وجد الوجه يبتسم له قائلاً:

– جِدْ نفسك يا بني، جدها. هيا ارسم، مازال في الوقت متّسع، ومازال في العمر نفَسٌ لعزف ناي.

ضرب جبينه براحته اليمنى:

– مازلت تحلم يا وليد، خذ ما يكفي من اللون، خُذ ما يكفي من النسيان، ما يكفيك من التذكّر وارسم.

بعد أن شعر بالجوع يعصر معدته، تطلّع إلى ساعة يده، وجدها تشير إلى السادسة مساء. لم يعبأ بالوقت الذي مرّ، ولم يعِر للجوع أهمية، استسلم للألوان، اهتدى إلى شعاعها ، راح يهذي كمن يحادث شخصا حقيقياً :

- سأرسمكِ كما رأيتك في الحلم أيّتها الشقراء، مومسٌ بحفنة امرأة.

- سمرائي أين ساعدك الجميل، سأرسمه صيحةً تعرّي إطارك، واعذريني فقد قلت سأرسمك وأجسّد شقرائي، هذه حكمة الرجال حين يصبحون عبيداً لسراويلهم. أرسمكما لتمثلا الحرب، وسأردّه إلى ضميره وضمير سادته واعذريني حبيبتي "علية"، لن تموتي

حرباً إثر حرب، لقد حفرتك في مجرى الدم، لا تقولين يهذي أو يثرثر.

شمّ رائحة نساء مختلفة المصدر، عجين أمّه، غطاء رأسها. بعثر ملابسه أرضاً بعد أن داهمته سخونة الرائحة، صوت أنثويّ يصبّ بمصبّات الجسد. اقتربت منه حوريّة سمراء، دنت من رقبته وقبّلتها، شقراء ضمّت رأسه بين نهديها، دارت به دوامة مومس، بينما مومس ثانية تتبادل معه سكرته، تعيد له النصف الخالي من العمر، وتسكره معها ثانية.

لم يدرِ كم مضى من الوقت، لكنّه حين أفاق إلى نفسه، اكتشف أنّه جالس في ركن قريب جداً من اللوحة المربّعة الشكل. غمس فرشاة جديدة باللون الأصفر: شعرك كالحصان سأتركه يلتفّ على عنقك، الفجر يخاف من القمر، أنتِ قمري.

فتح ثلاثة أزرار من ثوبها، فبانت استدارة النهدين البضّين:

- ويحك يا وليد أمازلت تحدّث لوحاتك؟

غيّر طبعك هذا، وإلا أكلتك الألوان؛ لن تحتاج لوليد آخر.

مرّر إصبعه بين نهديّ الشقراء بينما السمراء ظلّت تراقبه، وعيناها تكادان تأكلانه. سحب كمّ فستانها، ليظهر الكتف عارياً محدّثا لوحته:

- في الناصرية حين يتعرّى الكتف يعني يا قاتل يا مقتول، والدماء تصل الرُّكب، فالعار لا بدّ أن يُغسل. أما في لندن فالأكتاف العارية ببلاش، والنهود النافرة على قفا من يشيل.

أحسّ بثقل قدميه، تحرك ببطء باتجاه التلفاز، سمع صوتاً يناديه:

- عيناك متورمتان يا وليد، خُذ قسطاً من الراحة.

رجع ووقف قبالة الصورة، أغمض عينيه، تذكر أنّه اشترى زجاجة عطر غالية الثمن (Givenchy) لغانية رافقها ثلاثة أيام، وحين وجدته غير قادر عن إحياء ميّت بين فخذه تركته هاربة من فشله .

جلب العطر إلى شقراء اللوحة، الأنثى وحدها تنصت لهمسه الخفي ، رآها بالقرب منه تسيل نظراتها عليه،

التصق فيها ورشه على عنقها، اقترب من شحمة أذنها وقبّلها عليها، اشتعل مصباح جسده، احتاج لاحتراق، سمع صوت المطر وهو يعانق الأشجار، أبعده عن سطوة الجسد، لكن رائحة الأنثى اتجهت صوبه، اقتربت منه، شمّ أنفاسها، بذل جهداً لمقاومتها.. رمت شالها البرتقالي، بحركتها العفوية تفتقت أزرار ثوبها، وضغطت على خدّه، ثوب أزرق وجسد بض، عناق الضدّين، تآمر عليه.

أطبقت السمراء شفتيها على شفتيه، وطبعت قبلة حلوة، لكن عينيه شاخصتان باتجاه حلمة وردية وثدي نفر من ثوبه الأزرق.

صلّى فؤاده بمحراب الأنثى، لصق وجهه في سُرّة الشقراء، وبحركة عفوية أبعد عنه ذات الرداء الأحمر. يرتاح لصوت أعماقه، نده شقراءه :

– خلّصيني منك.

أسكتته بإشارة من إصبعها الرقيق الملمس، لمع جسدها في الظلمة: ماذا ستفعل بالسمراء؟

. فقط ضربات فرشاة.

سمع صوتاً آخر يناديه باسمه، كلّمه وليد في صمته:

– ويحك وليد، صرتَ تكلّم نفسك. الله يلعن الوحدة، وتتهيأ أيضا ؟

رشّ لوناً ذهبياً على إطار الصورة المركون أرضاً:

– الشقراء رمزٌ للغواية.

تردّد الصوت ثانية: وليد.. وليد.

. يا رب أنا لم أكلّم نفسي إذاً مَن أنتما؟ هل أنتما من الجن؟

. وهل لرجل مثل وليد وثقافته أن يؤمن بالجن؟

. نحن امرأتاك، اقترب من اللوحة.. هل تسمعنا جيداً؟ نريد أن نعقد معك اتفاقاً.

. عن أيّ اتفاق تتحدثان؟

فرك عينيه، وفرك أذنيه، كي يُبعد عنه التهيّؤ. سمعهما مرة ثانية، وثالثة وعاشرة:

. نريد الخروج من عالمك، لنا رغبة في التجوال والطواف في شوارع لندن.

. لكنكما مجرد ألوان، نساء من ألوان.

. نعرف ذلك.. امنحنا حريتنا ولو لمرة واحدة، ألستَ تحبّ الحرية وتحبّ المرأة المتمرّدة؟

. إننا نعلن العصيان عليك، ونتمرّد على إطارك الذي هيأته، كما نتمرّد على سجن أفكارك.

تقدّمت السمراء إليه :

-أرجوك.

قبّلته على جبينه.. ارتعش لدبيب القبلة في بدنه.

تحسّست الشقراء بطنه:

- أرجوك.

قالتها بصوت خفوت يسيل لعاب الذكور له، ومدّت يدها تمسّ عضوه من خارج البنطلون. قال لها:

-إلى أين تذهبين، إنه معطّل؟

أشارت إلى السمراء بفكّ أزرار قميصه، وأخذته بين ذراعيها:

-لا بدّ أنك تعيش في أحلام اليقظة.

استسلم لها وهي تنزع ثوبها الأزرق، وتقف أمامه عارية وفتحت زنّار بنطلونه، اهتزت الأشجار قرب

النوافذ، واهتزّ معها زجاج الشبابيك حين سمعها تهمس في أذنه:

- كم أنت جميل يا "وليد"!.

رغم استغراب السمراء ممّا يجري وما فعلته دون قصد منها، ارتاحت لأوامر الشقراء، جرّته من يده، وأجلسته على الأريكة، ثم جلست على ركبتيه، حرارة جسده تُشعل جسدها، أدنت طرف أنفها من أنفه، شمّت أنفاسه، واعترفت بعشقها.

شفتاه فتحهما بذهول، واسترجع آخر حرفين سمعهما من كلامها (I love you). إنه بلا زوجة، بلا "علية" الحبيبة، وبلا شهقة . إنه مجرد قطعة من أثاث الشقة، وخرائط لا ورق ولا جدران ولا حول لها لترسم نفسها.

أدار عينيه حول محتويات الشقة، طاولة صغيرة، أريكة قديمة، سرير مخذول، مسجل وبعض أشرطة مبعثرة، تلفاز، ثلاجة، لوازم مطبخ. وهو، وألوان تتجول حسب إرادته، قماش الكنفاز، وخشب ومسامير. قال لها:

- اقرصيني، اقرصيني ، أريد أن أعرف إن كنت في يقظتي أم.

- وضعت إصبعها على شفتيه كي لا يكمل، وارتمت على صدره، سمراء بشعر أسود طويل وثوب أحمر وثديين نافرين، وتركته يكتشف جسد الشرق: جلدكِ ناعم، ناعم.. يا..

تركها وفتح ذراعيه للشقراء:

– وجلدكِ أيضاً، أنت غريبة أليفة.

استكشف محاكاة أخرى للجسد، نقاط خفيفة بيضاء علقت بأصابعه، بينما علق لون أزرق في شعر صدره ورقبته، إذ مازال اللون طرياً لم يجفّ، كما أنّ هناك جزءاً من ثوب السمراء مازال أبيض لم يصبغه بالأحمر. الدهشة والحب و غير الواقع واللامعقول والشال البرتقالي، شلّوا تفكيره، لكنّ الشقراء وهي تعبث وتلعب بشعره، ثم تنحني إلى شعر أسفله، علقت بأصابعها بعض شعيرات راحت تنفخها في الهواء، وتطلب منه السماح لها بالخروج إلى

شوارع لندن. فردّ عليها دون أن يعرف سبب خضوعه لها : سأفعل لكن بشرط :

- اشترط، نحن موافقتان على شروطك كلّها (بصوت واحد).

– أمنحكما اثني عشر يوماً، على أن تعودا قبل تمام الساعة الثانية عشرة ليلاً، ولن أقبل التأخير ولو دقيقة واحدة. لقد حجزت القاعة، وحدّدت يوم العرض بعد ثلاثة عشر يوماً من الآن.

– نوافق.

ركضتا فرحتين، دخلت الشقراء غرفة نومه وخرجت مسرعة، أمسكت السمراء من يدها؛ هيّا.. هيّا.. قبل أن يرجع في قراره.

ركض خلفهما، وأعطى السمراء بطاقة فيها عنوانه واسمه، مشى حافياً على أرض المطبخ، سخّن ماء و وضع فيه كيساً من ورق الشاي، لم يكن مقتنعاً بما سمع ورأى، ولما سمع حركة، ركض مسرعاً إلى شقرائه، قبّلها من وجنتها وضمّها إلى صدره:

- احترسا، ففي الخارج غابة من ذئاب. (وشدّ على يدها):

- لا تنسى أنّي أعبدك.

ردّت عليه السمراء: وأنا كذلك، أحببتُك منذ أن كنتُ فكرة تدور في رأسك.

رجع إلى كوب الشاي، وضع قليلاً من السكّر، وتذكر أنه لم يطلق عليهما أيّ اسم. التفت راجعاً، لم يجد أحداً. وحين لم يجد غير انكسار الضوء على النافذة، عاد إلى الثلاجة، استخرج ثلجاً ووضعه في قدح كان فوق الثلاجة، صبّ الويسكي عليه، وشربه دفعة واحدة. ثم سكب الشاي في مغسلة المطبخ، ضرب رأسه وجبينه، وترك السيجارة تحرق أصابعه، وراح يلوم نفسه :

. كيف تركتهما تغادران؟ لماذا ضعفت لرجائهما؟ وكيف طرأت لهما فكرة الخروج؟

– ويحكَ لستَ بالكفء للعشق، لامرأتين فيهما طفولة ألوانك.

تذكر أن لديه حبوب (فاليوم)؛ فتناول حبّة من (دوز العشرة)، وهو يردّد :

- ما أغباك يا وليد، فاليوم ووسكي، ستنام نومة أهل الكهف.

ألم حاد في قدميه، انتقل إلى كلّ عضو من أعضاء جسده، ضغط بيده على عضوه الذكري، آلمه كثيراً:

- أتؤلم الرجولة؟ خاطبه واستمرّ ضاغطاً:

- لا ترفع علَمك، دعه في سباته.. حين اختمرت رجولتي كنتُ أخبّئ علمي بين فخذي لئلا يفضحني أمام أمّي وأختي، تركته يضمّ رأسه بملابسي الداخلية التي نزعتها وغسلتها ثم نشرتها تحت السرير، وغادرت مسرعاً إلى المدرسة، حيث وصلت متأخراً، كان علَم المدرسة مرفوعاً والأولاد تجلّوا بالنشيد الوطني:

موطني موطني. كنت أخفي عضوي عن والدتي استحياء، واليوم أخفي وجهي عن عضوي استحياءً.

فصـــــل

اكتشاف إبليس

نحن حقيقة عاريـة، وهم عراةٌ بلا حقيقة .

***

لم تكونا علـى يقين حين نطقتا بكلمـة الخروج مـن اللوحـة، كـان يجذبهما الغريـب والقضايا التـي تسمعان عنهـا مـن وليـد. وجـدتا نفسـيهما أمـام حلـم جديـد بمخلوقاته الغريبـة، لأنّهمـا وُضعتا أمـام المحك. كانـت الأشياء تبدو أصغر حجماً فـي مخيّلتهمـا، وكانـت تلـك الاستنتاجات غير مرتكزة إلى قاعدة، أو حدث أو قِبلة. كانت السمراء تعارض قرار الشقراء بكلّ قواها، تريد أن تبقى إلى جوار" وليد"، وكانـت هانئـة رغدة بمـا اختـاره لهـا، كـلّ حـدودها القصـوى هـي أنامله،استكشـافها

لملامحه وانفعالاته.وقفت بدهشتها من عالم تتعرف عليه لأوّل مرة :

– هذا يعني أنّنا في ورطة؟ انظري إننا بحاجة إلى قدر كبير من المعرفة لتمييز وجود العابرين، والمحلات والتساؤلات التي تشوّش أفكارنا.

فأجابتها الشقراء مكملة:

- والبضائع المعروضة بالفاترينات، قطرات المطر، الهواء الذي يشقّ صدر الفضاء، أسماؤنا التي لا نعرفها.

مدّت يدها كمن يلتقط حبّات من عقد، وتابعت تجمع قطرات المطر في كفّها، ارتجفت لرقصة المطر على راحة يدها، وتأمّلت إشارة العبور، ضوء أخضر بشكل رجل، راقبت عبور المشاة باتجاهين متعاكسين، رجل يعبر بمظلّته السوداء ترافقه امرأة تأبط ذراعها، عجوز بآلته الموسيقية أخذ ركناً في الشارع، امرأة ذات شعر أجعد مصبوغ باللون الأحمر الفاقع تباعد بين فخذيها وهي ماشية وكأنّها نهضت للتوّ من النوم، مؤخرتان محشورتان ببنطلون الجينز، بدا كأنّه مدهون عليهما.

عبرتا مسرعتين، وصعدتا الحافلة من الجهة المقصودة. أمسك أحدهم بيد ابنه وجرّه بقوّة، بينما الطفل احمرّت وجنتاه غضباً، يرتدي بنطلونا أزرق وقميصاً زهري، تعلو وجهه سمرة وشعر رأسه المتجعّد أخذ شكل قبعة.

قرّرت الشقراء أن تضع أوّل لبنة لها في شارع حياتها الجديدة، لها الحق الثاني أن تختار ما تريد، منذ هذه اللحظة هي ملك نفسها، ولا وصاية لوليد عليها. يمرّ من أمامها شكل لم تتعوّد عليه، يبدو رجلاً في انتصاب قامته، لكن لوزة رقبته، وصدره النافر بثديين لا تعرف من أين جاء بهما، ومساحيقه المفروشة على وجهه، أظافره الطويلة المطلية؛ جهلها التام بذلك جعلها في حيرة، فوليد لم يذكر مثل هؤلاء أمامها.

رأت في الوقت ذاته، عند توقّف الإشارة وإعلانها اللون الأحمر، سيّدة تجاوزت الإشارة الحمراء راكضة باتجاهها وبيدها أوراق وقلم، أوحت إليها أنّها تدوّن ما

يجري وما تشاهده باللحظة والتوقيت. وقفت برهة تنظر في وجهيهما، سلّمت: مرحباً.

ابتسمت وغادرت، لم يصلا لمعرفة هويّتها، ولماذا حيّتهما، غادرت دون أن تعرّف بنفسها.

- هذه عادة غريبة.. قالت السمراء، فقد سمعت وليداً يقول إنّ في بلاده تسمع التحايا والسلامات في أيّ وقت ممّن تعرفه ولا تعرفه؛ استدارت مستفسرة :

- ولمَ خصّتنا بالسلام دون غيرنا؟

- ربّما كانت تنوي المساعدة.

وحالما لاحظت صمتنا، استأنفت، فنحن لم نردّ على تحيّتها.

- أمعقول أنّنا في الخارج؟

(وجّهت سؤالها للشقراء):

- لمَ لا نختلط بالناس، نحاول أن نكون جزءاً منهم.

فردت عليها الشقراء:

- سأحاول أن أبدّل كلّ شيء، أظنك خائفة؟

ـ أجل وكأنّي غريقة بعيدة عن اليابسة ولا مجداف لدي، هل تظنّين أنّنا تسرّعنا؟.

ـ لا، لن يخيب أملنا يا سمرائي منذ البداية، نريد أن نرى لندن، نرى عالم وليد، ألستِ تعشقينه؟ تعرّفي على عالمه.

ـ أشعر أنّي أريد دخول الحمام، كما أنّي جائعة أيضاً.

استغربتا رؤية رجل يرتدي دشداشة قصيرة دون الركبة بشبر، ولحيته الطويلة، وشعره الأسود الطويل، وآثار حرق وسط جبهته.

سألت الشقراء

– من هم هؤلاء؟

– إنه واحد (ردّت السمراء).

– بل انظري خلفه، إنّهم سرب من الغربان السود.

ـ سمعت وليداً مرّة يحدّث صديقه بالتلفون عن التطرّف الديني وعن ظاهرة التزمّت والتعصّب الديني التي ملأت أجواء العراق، وكان يردّد بعد إغلاق الهاتف:

- إنها الرجعة إلى الخلف.

. ومن أدرانا أنّه عراقي؟ فهذه ظاهرة كما سمعنا تعمّ العراق وسوريا والجزائر ومصر والمغرب وباكستان وإيران، وكلّ البلدان التي مازالت تترجم فواحشها وقتلها وسفكها الدماء باسم الدين، أيّ دين هذا؟ ألم تلاحظيه كيف التهمنا بعينيه؟ إنهم يكذبون على الله.

وليد مثلاً يكره المومس، لكنه رسمنا مومسات، إنّه يختار موديلاته في حدود أفكاره وبإمكانه أن يحلم. كم حاول معنا مراراً ووصل إلى درجة القذف، لكنه لا يقدر حتى على اختيار حلمه، لا يصنع رجولته حتى في الحلم

– لمَ تذكرين وليداً بالسوء؟

أجابتها الشقراء:

– سأقتل ذلك البغل العاجز دون شك.. آه لو أنّي لستُ من بنات أفكاره، لخنقته.

أدارت السمراء وجهها غاضبة، رجعت إلى هدوئها، وقد مرّت بهما امرأة في نهاية الخمسين، كانت بثياب أنيقة، بدت كمن أنجز مهمّة زمنيّة وتصالح مع

الوقت، طلت شفتيها الغليظتين بحمرة وردية. حدث ضجيج وقعت إثره شابة في العشرينيّات أرضاً، صاحت امرأة سوداء البشرة، سمينة الردفين والصدر:

– امسكوه لقد سرق حقيبتها ودفعها أرضاً.لكنّه ذاب في الصراخ، وضاع صوت يطلب النجدة، كما ضاع وجهه مع حافلة اخترقت الشارع ومرّت. وأمام إحدى الحافلات تعالت أصوات رجال يهدّئون من غضب رجل تشاجر مع زوجته، كان الرجل في حالة دفاع عن النفس، لم يكن على لسانه سوى:

كل تلك الثقة التي منحتك إيّاها، وتخونينني؟

فتجيبه:

ليس لديّ أدني علم عن ما تقوله، من أين جئت بهذا الادعاء يا ظالم؟.

وحين انخرطت في البكاء، جاء صوته متقطعاً وعقلانياً:

– إنّه افتراض، افتراض يا عزيزتي. وأنتِ السبب بذلك، لأنّي لم أعد أحظى باهتمامك كالسابق.

عند حافة الطريق وقف رجل عجوز يهذي، بينما آخر يكلّم نفسه وكأنّه يوجه لوماً لآخر أمامه ويخاطبه زاعقاً:

- إنّ الملكة أعطتكم أشكالكم، وأعطتكم مفهوماً لخلق دولة، لكنّها لم تعطني شكلي.

ثم أشار بإصبعه إلى أحد المارة مهدّداً :

-هذا تدبير، هذا تدبير.

قالت السمراء:

-إنه ليس بمجنون، اسمعي كلامه، إنه منطقي.

ردّت عليها الشقراء :

- سأخنقه في كابوسه.

-مَن؟ هذا المعتوه؟

- وليدك.

- لكنه يحبّك أنتِ، ويعبدك.

- إنّه يجد فيّ زهوه الإعلامي وزهوه الفني، أحبّيه أنت وانتظري ابتسامة بائسة من عينيه. إنّه فريسة حياته الرتيبة وعجزه الجنسي، ماذا تتصورين، هل هو عاقل؟. إنّه يصوّر عجزه برسم ثلاث غانيات، واحدة

بقيت معه في مرسمه أتمّها قبلنا، ونحن. إنّـه يريـد أن يؤكّد لأصدقائه وللناس أنّه رجل عادي ولـه عشيقات، ونحن دليل رجولته.

ـ إنّـه إنسان ضعيف يا عزيزتـي، وهذه القسوة لا يعشقها منك، فقد هفا قلبه لكلّ مسامّات جلدك.

– إنه كغيره أيّتها الغجرية.

– من تقصدين؟

ـ هؤلاء الصرعى نتيجـة تصفية حسابات الحكـام لشعوبها، وتصفية أحزاب تراجعت وتعدّ عدّها التنـازلي متوهمة نصراً إيجابياً، ثم ضاعوا وضيّعونا معهم.

– اتركيه لي أنا.. يكفيني حبّه.

– قولي بصراحة، هل تحبّينه لأنّه أسمر مثلك؟

ـ هـذا مـا لا تعرفينـه أنـت، الحـب لا يفـرّق بـين الألوان، إنـه نبوءة الروح والجسد، وهذه اللغة بعيـدة أنتِ عنها كلّ البعد.

– حين يقترن الحب بالجسد يموت.

ـ يـا عزيزتـي، العشّـاق الآن مـأزومون بسـراويلهم ولـيس فـي قلـوبهم. الرجـل قلبـه سـروال، ومنطقـه سروال، وحلمه سروال.

– هـذا منطـق مـن لـم يجرّبـه، هـل بإمكانـك فصـل ضوء الشمعة من خيطها؟.

ـ طبعاً لا.

– إي هذا هو الحب، الضوء هو الروح والخيط هو الجسد، حين يحترقان تصير الأرض قافلة دخان.

– الله يحمينـا مـن دخانـك.. فأنـا جائعـة، تعـالي نشتري شيئاً لنأكله.

– من أين لنا بالمال؟

– سـرقت بعـض النقـود مـن جيـب وليـد، أتـذكرين ساعة أغمض عينيه، وقتها أخذت من جيب بنطلونـه هـذه الورقـة. ورغبـت أن أنـزع هـذا الفسـتان وأرتـدي الثوب الأخضر المعلّق فـي الصورة، رغبت أن أعصـي رغباتـه، فطوال أيّام وليالٍ كان يطارد جسدي، يقطّـع أوصـالي ويوصـلها ثانيـة، يمحـو ويضـيف. كلّهـم شرسون، يتلذّذون بالتقطيع ابتداء من الجسد والقلب،

وانتهاء بالكرامة. المهم أن يسيل لعابهم، أمّا كيف، فلا يهم.

كنت أمامه طوال الوقت جسداً لم يتعرّف عليه أحد قبله، يمحوه حين يشعر بعجزه، ويضيف إليه اللون حين يشعر بقدرته في لحم نفسه بنفسه. هل تذكرين القصائد التي كان يتلوها بصوت عالٍ؟ كنت أسمعه يقول :

- (المرأة هي الوطن، والمرأة هي حرّية).
- أيّة حرّية لا تستوفي شروطها إلا بغريزة السروال؟
- الله، الله.. أنتِ اليوم شقراء وحكيمة، فيلسوفة. شكراً أيّها الجوع الذي صنعت من المومس فيلسوفة.

دفعت شعرها الأشقر إلى ظهرها، باعدت بين الزرّين الذين تركهما وليد مفتوحين، استخرجت قلم روج من جيبها، أدارت وجهها إلى زجاج واجهة محل تقف قربه، وطلت شفتيها.

. من أين حصلتِ على قلم الروج؟

. كان على الطاولة في الصالة، تركه وليد منذ أن زاره فارس عبد الودود قبل شهر. اشتراه من (برتبللو)

بثلاثة جنيهات، وتركه على الطاولة، أتدرين لماذا؟ ليثبت لزائريه وهم قلّة أنّه غير عاجز جنسيّاً، وأن صاحبته نسيته عنده البارحة، لقد شاهدته عندما دخل عليه صديقه بعد أسبوع من زيارة فارس، دون سابق موعد. يا ربّي لقد نسيت اسمه هذا الأشرم، هل تذكرين سمعته يقول لوليد إن شفته شُرمت من التعذيب في السجون؟.

– إي، لا عليك، تذكرت، اسمه محسن.

– أكملي.

– تظاهر أمام محسن أنّه اكتشف القلم صدفة، وأبدى ارتباكه، وخبأه في غرفة نومه، بينما تغافل محسن المسكين عن ارتباك صاحبه ودخل المطبخ ليعدّ الشاي لنفسه.

. لكن هل تكفينا هذه الورقة؟ إنها بعشرة باوندات فقط؟

. لنجرّب.

دخلتا مقهى في بداية الشارع بعد أن عبرتا إلى الجهة الأخرى، فاحت رائحة الشاي الساخن والقهوة

والمعجّنـات والسـجائر. جلسـت السـمراء إلـى إحـدى الطـاولات، بينمـا تقـدّمت الشـقراء للشـراء، فاختـارت قطعتين من الكيك وكوبين من الشاي. ثم مدّت يدها لتستفسر عن الباقي. اعتذر البائع الذي تمايل كأنثى، ووضع يده على صدره قائلاً:

Sorry, the price of cheese cake is 2.50.

عادت لصاحبتها مبتسمة:

– خذي، لا نملـك غيـر هـاتين القطعتـين. كُلـي علـى مهلك لتمتلئ معدتك، وتحتفظ بالأكل لمدة أطول.

علـى بعـد مـن طاولتهمـا جلـس رجـل يلـبس نظـارة رماديـة الإطـار، يحتسـي القهـوة المضـغوطة. لمحتـه يحدّق إليهـا طـول الوقـت، ويخصّـها بنظـرة جذابـة بـين الحين والآخر حين يرفع النظارة، وما إن تستقر عينـاه علـى نهديها حتـى يرتـدي النظـارة ثانيـة، وفـي إحـدى المرّات غمزها بطرف عينه.

بعد أن انتهتا من وجبتهما، خرجتا لا تعرفان إلى أين أو في أيّ شارع هما. اهتزّت الشقراء في وقفتها، ومع أوّل استدارة لها سمعته يسألها:

- هل بإمكاني أن أقدّم خدمة؟ سأكون ممتناً لو قبلتما دعوتي.

قطعة الكيك لم تشبع الشقراء، فابتسمت برضا، لكزتها السمراء، لكن لم تطعها وأجابته على الفور:

- نحن بحاجة إلى خدمة، ومثلك قليل يا سيدي، عفواً.. ما اسم هذه المنطقة؟

- (ماربل آرج)، هلاّ تفضلتما إلى سيارتي؟

أجابته الشقراء :

- هذا أفضل، وأين سيارتك؟

- تلك السوداء (وأشار إلى سيارة جميلة لامعة).

جلست الشقراء قرب الرجل، في الكرسي الأمامي، تركت السمراء تجلس في الخلف. أعجبتها السيارة من الداخل، مقاعد مخملية رمادية اللون، خدمات لا توصف، الحواشي مذهّبة.

ـ لا بدّ أنّك رجلٌ ثري.. (ثم استدركت)؛ لكنّك كنت تجلس في مقهى متواضع.

فتحت المرآة التي أمامها، وجدت السمراء قد لمعت عيناها بالدموع، وبدتا كلؤلؤتين على ساحل الرمش الأسود الكثيف. نظر هو في المرآة الأمامية، وخاطب السمراء :

– تبدين جميلة بالدموع. ثم انصرف عنها بلباقة العارف شغله:

– ما اسمك يا شقرائي الفاتنة؟

– لا أعرف.

– وما اسم صاحبتك؟

– لا نعرف.

– هم.. فهمت، لا تريدان الإفصاح عن هويّتكما، هذا من حقّكما. أمّا أنا فقد تعرّفت على أميرات حقيقيّات وأمراء، لا يهم إن كان الاسم حقيقيّاً أم... قاطعته السمراء وهي تمسح دموعها :

-أم ماذا؟ نحن لسنا أميرات، ولا نعرف اسماً لنا؛ وهذه حقيقة.

ابتسم، وانطلق بسيارته مسرعاً. ثم تباطأ وهو يتطلّع إلى ساقي الشقراء، وهي تراقبه بدورها حين كان يمدّ يده ببطء نحوها، فرفعت فستانها بصورةٍ تبدو عفوية، واضعة ساقاً على ساق. امتدّت يده إلى المقعد الأمامي ولامست كتفها، وراح يلعب بخصلات شعرها، ويمرّر أصابعه على رقبتها. ولما توقفوا عند الإشارة الضوئية، طلب منهما قبول دعوته قائلاً :

- اليوم أحتفل بعيد ميلادي، وسأكون مسروراً لو قبلتما دعوتي.

- لمس وجه الشقراء، التي لم تخفِ فرحتها، ولم تطلب منه التوقّف عن مداعبتها، بل راحت تظهر له الموافقة الفورية، وتغريه بمزيد من المداعبة.

واستدارت إلى صاحبتها، التي أشارت إليها بالرفض، ثم غمزت لها. لم تترك الشقراء مجالاً للرد، وقالت:

– نحن موافقتان، أين تقع شقتك؟

– نحن متجهون إليها، إنها في (نايتسبريدج)، وهي منطقة راقية جداً، فيها أرقى المحلات وأرقى الزبائن (وغمز الشقراء).. ها قد وصلنا.

ـ عذراً، ما اسمك ومن أيّ بلد أنت؟ سألته الشقراء بغنج ظاهر.

– أنا من بلاد الله، أليست البلاد العربية من بلاد الله؟

(وفتح باب السيارة) :

– تفضلا.

– تشرّفنا بمعرفتك، المهم أنّك تفهم لغتنا.

قالت السمراء:

– لكنه لا يذكّرني بوليد.

– من وليد؟

– لا عليك، إنّه شخص ما.. هل أعجبك شعري الأشقر، لاحظت اهتمامك به؟

ـ بل جمالك كلّه أعجبني، أنت كنز يا..

أجابته:

– لا اسم لي.

ضحك.. وقال:

– فهمت، معذرة، عفوكما.

رافقهما إلى مدخل البناية، صعدوا إلى الطابق الثالث، الشقة (203). أدخل مفتاحه في الباب،

شمّت السمراء رائحة بخور منبعثة ودخلت مع الشقراء بهدوء. علّق الرجل مفتاحه على الطرف الأيمن لمرآة في المدخل، وفي الجانب الآخر ظهرت مرآة أخرى بإطار من الفضة الخالصة. صالة واسعة بأثاث فخم، سجاد عجمي، لوحات زيتية.

أخذت الشقراء حريّتها في التجوال داخل الشقة، كما أعطت لنفسها الحق للتدقيق في محتوياتها، سواء المطبخ والصالة وغرف النوم الثلاث. جرّبت الجلوس على الأسرّة ذات الأغطية الجذّابة والثمينة، دخلت الحمّامات، تفحّصت الصابون وزجاجات العطر المتنوعة، جربتها واحدة واحدة، رشّت على جسمها خلطة من تلك العطور. دخلت إحدى غرف النوم، قرأت اسم زجاجة عطر (خلطة عربية) وبين قوسين دهن عود، وعند الباب أشار إلى الشقراء:

. سأوفّر كلّ ما تحبين.. (وبحث في وجه السمراء عن سؤال، وتابع):

– سأحضر بيكاسو إلى هنا إذا رغبت.

دخل غرفة ليست بعيدة عن الصالة.. اقتربت الشقراء من السمراء وسألت:

– ما بالك متجهمة؟ لقد حصلنا على من يرعانا، أكل وشرب ومكان للنوم، ماذا تريدين أكثر؟

– أريد وليداً.

– دعي وليدك، واستمتعي بما جئنا من أجله.

خرج الرجل يرتدي ملابس منزلية، دشداشة عربية واسعة ذات لون رصاصي فاتح وقماش من النوع الفاخر.

. ها.. ماذا تفضلن على الغداء، هل تحبان الأكل اللبناني أم الإيراني أم الهندي؟

أجابته الشقراء:

-نحبّ كلّ شيء، هات ما يعجبك أنتَ، وستجدنا نلتهم حتى أصابعك.

– أريدك أن تلتهمي شيئاً آخر.

- ثم راح يسرد طلباته عبر الهاتف:

-ثلاثة كباب، ثلاثة تبّولة، حمص، بابا غنّوج، زيتون ومخلّل، عرايس، وأكثِرْ من الخبز.

- أخذ حبتين من صحن الفستق الموضوع على إحدى الطاولات الزجاجيّة، قشّرهما وقدّم واحدة للسمراء بيد، ووضع اليد الأخرى على زندها. ثم رجع إلى الوراء قليلاً حين نفرت منه، قائلاً :

- اهدئي ما قصدت شيئاً.. رغبت أن أسأل إن كانت هذه أول زيارة لكما في لندن.

مشت الشقراء باتجاهه، وضعت يدها على صدره، وداعبت شاربيه:

– دعك منها، أنا أجيبك. إنها زيارتنا الأولى والأخيرة، سنبقى اثنتي عشرة ليلة بأيّامها عندك، ما رأيك؟

. هذا هو مطلبي (قفز فرحا)، اتفقنا إذاً.

. فهمتك؛ اتفقنا. نحن نفهم بعضنا، ألم تقل لي في السيارة أنّك رجل سياسي؟

. نعم.

. وما دخل السياسة بالدعارة؟

. ليس في الموضوع أيّة دعارة، لماذا تسيئين الظن؟ نحن طليقان فقط، ثم ما من فارق بين السياسة والدعارة، من حيث أنّهما لفكّ الأزمات.

عصرت شفتيه بإصبعيها المشدودتين على شكل كماشة:

– هل تقصد أنّ المصلحة من كلّ أحزاب الخراب، قوميّة، بعثيّة، شيوعيّة، شعوبيّة، تطرّف ديني وأخلاقي، هي تطرّف سراويل؟

. يا حلوتي،

(وشدّها من خصرها، بينما حاولت الالتصاق بجسده، وضغطت كفيها على صدره):

- حلبة المصارعة بين الثور والفارس سياسة أيضاً، ففي النهاية سيكون الثور هو المغلوب حسب الخطة، والملعب واللعبة معدّة لصرعه مسبقاً. والأحزاب التي ذكرتها مجرّد جعجعة وصوت عال لنشر الدعارة علناً، فلماذا اختلطت عليك الأمور؟

وهو يمدّ إصبعه بين نهديها الملتصقين به، شعرت بمدى أهميّتها، فراحت تزيد من عيار دلالها لتطلب ما تشاء:

- الليلة حفلتك، ولا أعتقد أنّك تقبل أن أستقبل ضيوفك بهذا الثوب يا.. سي.

- ناديني صابر.. اسمي صابر، شو بدك تعرفي أكثر؟ أنا من لبنان.

- تشرفنا يا صابر، أنت إبليس بعينه. لذلك يا عزيزي إبليس أنا أحب الأبالسة.

- وأنت هل تحبين العري؟ سأل السمراء، فلم تجب.

- وتابعت الشقراء:

- شكلي حلو، وقوامي جميل، لمَ أخفِه؟ لمَاذا أخفي ما وهبني إياه وليد؟

- مين وليد؟ عم تذكروا في الرايحة والجاية وليد؟

- صانعنا.

- عندكم خادم اسمه وليد؟

- لا عليك، إبليسي العزيز. مقاسي**14**ومقاس صاحبتي **16** .

- على أمرك، إي و لك تقبريني.

- ومثلما طلب الغداء على التلفون، اتصل على طريقته وحدّد الشكل والمقاس للملابس. فشعرت أن الفرصة مواتية، وصاحت الشقراء :

- لا تنسَ الحلي أيضاً؛ خواتم وأساور، والعطور أكثِرْ منها، أحبّ رش جسدي من إصبع قدمي حتى رأسي.
(ثم تذكرت وليداً الذي يعيش على مساعدات الدولة) :
- طز فيك، وبمنطق حزبك وسياستك يا وليد.
(وهزت بنطلون صابر ترقّصه).
– شو عم تعملي؟
– أمنطق سروالك. (غيّرت مشيتها وصوتها، وأضافت قليلاً من بهارات الغنج):
- الوسط والسروال يعصرك منطقه، سواء بضعفه وبجبروته، وفي كلا الحالين هو ممسحة.. ممسحة ضدك.
- لماذا الضد؟
- إنّه مستثنى شاذ غير محتمل التصريف.
- أنت أستاذة لغة إذاً؟
- ورماها على الأريكة مازحاً؛ استسلمتْ لرميته، تطاير ثوبها حتى وصل سرّتها. لكنها قرّرت تأجيل إرواء نظراته النهمة لما بعد الغداء، ماءت بحزن:
- لا تنظر إليّ هكذا، نحن غرباء حتى عن ثيابنا.

- لا تحوليها إلى نكد، دخلك، أبوس يدك.

رنّ جرس الباب، فتحه مسرعاً، دخلت سيّدة ترتدي بنطلونا بحمّالتين وقميصاً جميلاً. وقّع لها صكاً، أخذته وخرجت معتذرة عن المقاطعة:

- بوسة لها الشنبات، باي..

- وقفت الشقراء بكلّ ثقة أمام صاحبتها، وهمست في أذنها:

- كوني طبيعية واستمتعي بوقتك.

- مع هذا؟

- لكنّي أحبّه.

- إنّه لا يستحق حبّك، أنت تحبّينه وهو لا يشعر بعبادتك. (إي شنو قيمتها يا وردة؟)

ليته يعرف أنك تتحمّلينه وتتحمّلين إلغاءه لك بسبب حبك له.. (أنا ما أريد واحدة ترافقني بعذابها)

– أنت تتكلمين باللهجة العراقية.

ـ هذه اللغة اللّي سمعتها، كما أنّي صرت أعرف أحكي لبناني.

أخذ المساء يلتهم الوقت، بعد وجبة دسمة وقيلولة على فراش واسع مغطّى بملاءات مزركشة وجميلة. صحت السمراء على صوت طرق باب الغرفة، أيقظت صاحبتها:

- انهضي وافتحي الباب.

ببطء فتحت عينيها :

- الموعد اقترب، هيا لنستحم.

وجدت عند الباب حقيبة الملابس، سحبتها إلى الداخل، وراحت تنتقي المقاسات، هذا 16 لك، وهذا لي.

وكجندي ينهض مرغماً إلى ساحة التدريب، فتحت ذراعيها وتنفست بعمق، تناثر الشعر الأسود الطويل، سمعت وقع أقدام قرب الباب، فسألت صاحبتها :

- كيف تثقين بمثل هذا الرجل؟

- أنا أثق بالشيطان ولا أثق به. قومي، لستُ بحاجة إلى نصيحة. قومي قسراً، سهواً، عمداً، فقط تزيّني واتركي لي الباقي. إنّنا في حياة أخرى، لم يعد أمامنا غير أن نلبس. اسمعي جرس الباب، لقد تهافتوا..

ـ لا أستطيع أن أجرجر نفسي، لستُ لغيره، إنّه يقيّدني، بل عشقه يسمّرني.

ـ الشرقيون يدفعون أعمارهم من أجل شقراء، كلّ يبحث عن ما ينقصه. (رمت لها قرطاً فضياً)

- جرّبى الحلَق، الفضّة مع الشعر الأسود تسحر الرجال.

- لا، هذا ثقيل، أعطني الأصغر.

- ها.. بدأنا نلين.

دغدغتها :

- قومي، قومي.. اتركي قلبك وراءك، نحن هنا بالصدفة، مجرد حلم ولون، ولا تنسي أنّه قد انتهي يوم من أيّامنا.

قالت السمراء :

- الصدفة جعلتني أمسح كرامتي من أجل مهووس بغيري.

أجابتها :

- نحن جواري الحياة، سوف تتذكرين قولي. المرأة تمثال وجارية توضع على طاولة من ورد، وإذا لم تكن

كـذلك نبـذها الرجـل، لأنّــه يســتعرض رجولتــه أمــام التماثيل. ومن تريد أن تكون هـي ذاتهـا لا شيئاً يريـده هـو أو تبعيـة لمـن يحـب ويفضـلهم عليهـا، سـتكون عاقبتها الطرقات.

سحبت الشقراء شعرها كلّـه عن ظهرها، وجمعتـه فـي حضنها:

– من فرط ما نحبّ، من فرط مـا نصير أو لا نصير، اتخذنا شكلاً لا نعرفه علقنا نوافذنا عليـه ورحنـا ننتظر من يقول لنا كما قال محمود درويش:

– من أنتَ يا أنا؟ إنه يتساءل عن نفسه، وأنا أتساءل عن الـذي يرانـي نفسـه ويسـأل: مـن أنـتِ يـا أنـا؟ فـأردّ عليه: أنا أنتَ يا نحن.

أجابتها الشقراء بلهجتها الفاترة:

– التقطـتِ أجمـل الأشـعار مـن معتوهـك، وأحببتهـا، حفظتها عن ظهر قلبك؛ أنت سمراء وشاعرة.

– جميل أن ألتقط الأجمل، لكن القبح بحاجة إلى..

قاطعتها:

– أحفظي القبح أيضاً.

– بل لأشفق عليه.

– تعالي.. إلى متى سنبقى دون أسماءٍ؟

– هل يا ترى يذكرنا وليد الآن؟

– ألا يمكنك أن تتوقفي عن ذكر وليد لحظة؟ أرجوك استمتعي بوقتك.

كان صابر يدرك أنّهما ترغبان بعقد صداقة، وكان يجهد نفسه ليكون جديراً بثقتهما، فلم يمارس ضغطاً عليهما في اتخاذ أيّ قرار يرسمه ويطلب إليهما تنفيذه. رغب في البداية أن يلعب دور المسالم، وأن يتفانى في العلاقة ليستفيد أكثر من ما يعطي. ومع ذلك بقيت السمراء تحسّ بالغربة في داخلها.

ـ سيداتي الحلوات.. أعتذر عن اقتحامي الغرفة والدخول دون استئذان، أرجو الاستعجال.. امتلأت الصالة بالحاضرين.

علم أنّهما جاهزتان فأسرع باتجاههما، قادهما عن يمينه ويساره، ممسكاً السمراء من يدها، وقد لفّ ساعده على خصر الشقراء. ابتسم حزّ على شفتي السمراء وكأنّه يستنشق ومضةً كاشفة، يبحث فيها

عـن وليـد. تعـدّدت ضـحكات الشـقراء مــع الجميــع، فاتجهت الأنظار إلى صابر والجميلتين، همس قائلاً:

- بماذا أقدّمكما، أقصد بأيّ اسم؟

ردّت السمراء :

- ما شأن الرجولة بالاسم؟

غيّر سؤاله، وحوّله إلى ابتسامة باردة. كانت الصالة مليئة بمزيج من أولئك الذين تلقّوا ثقافات خاصة في التعامـل مـع بنـات الهـوى، الأسـمر والأبـيض، رجـال تهدّلت كروشهم وجيوبهم، نساء اغترب فيهنّ ما تحت الخصر، شعراء، موسيقيون، وكـلاء شركات، منـافقون ورجـال نفـط. قدموا لإشبـاع غرائـزهم الجنسـيّة وتحليـل اللحم الحرام بالاسترواح النفسـي، والارتبـاط بالسراويل حول مأدبة عشاء وكأس وضحك فاضح.

قـدّمهما صـابر علـى أنّهمـا فنانتـان ارتبطتـا معـه بصداقة قديمة، وقد جاءتا لزيارته والبقاء عدّة أيّام.

تنوّعـت المقـبلات وأنـواع الكحـول كتنـوع الحضـور وهويّـاتهم وتفـاوت درجـاتهم الاجتماعيـة. تـذكّرت

السمراء وليداً وهو يناقش مرّة أصدقاءه حول المسرح، إذ قال:

- المسرح لا علاقة له بالتسلية واللهو والتهويل السياسي الدعائي، إنّه مسرح الغريب المنطقي والوهمي الحقيقي، يعني خلق ضوء من كرسي خشبي.

وتساءلت:

- ما الذي سيفعله وليد، لو حضر، وكيف يصنّف هذا المسرح؟

قام اثنان وطلبا من السيدتين الجلوسَ على إحدى الأرائك الواسعة، قدّم أحد الجلوس كأساً من الويسكي إلى الشقراء فقبلته دون تردّد، بينما تابعت السمراء أحاديثهم وتصرفاتهم. كيف يضحكون، وما الذي يضحكهم ويبهجهم، وكيف يتحاورون؛ كلّهم لا يشبه كلهم. تقدم رجل يتصرف بميوعة واضحة إلى السمراء، ولعب بشعرها:

- أحبّ الشعر الأسود.. ياي، ياي.. أنت بحاجة إلى نيو لوك؛ مسيو صابر أعطها لي يوماً واحداً، وسأجعلها أجمل نساء الكون.

عرفت أنّ اسمه صابر بحق، ولم يكذب، أو ربّما هو اسم مستعار كذب به على الجميع، المهم هو صابر الآن.

ردّ عليه صابر، وهو يصبّ لنفسه كأس فودكا:

- دعك منها، إنها لا تحب النيولوك أو نفخ الشفاه، إليك بالأخرى

وقدّمه لها :

- سي جورج، فنان.

غالبتها ابتسامة، وبلا تفكير سألته:

- من أيّ نوع؟ فحولة فنيّة أم؟

رفع سي جورج خصلة شعر تناثرت على جبهته:

- أم من.. تقبريني، وحياتك أنا من صنف أم من.

وضحك ضحكة هستيرية، ثم أشار إليها كمن ينكت ماء من أصابع:

-ياي، جميلة ووقحة، ومهضومة الصبيّة.

أعطت السمراء لنفسها حرية الكلام، واستمرت تجادله وهي تراقب صاحبتها المنسجمة مع الجميع، وقد التفّ حولها عددٌ من الرجال:

-كلّ شخص بإمكانه أن يصبح فناناً في هذه الأيام، خاصة في بلدكم.

أسهل منها ما في، لكن ليس بإمكان أي شخص أن يصبح ذكراً.

ضحك بعضهم، والتفتوا إليها مؤيّدين. لفتت انتباهها امرأة تدخّن بشراهة، بيدها كأس من الخمر تمسكه بطرف أصابعها، بينما يلمع خاتمها الماسي بشكل ملفت. كانت جالسة على طرف كرسي، وقد أرخت جسدها، وراحت تنظر إلى الجميع من طرف عينيها، ومنخارها في السقف وكأنّ الله لم يخلق غيرها.. مدّت إصبعها وحيّت به السمراء:

- أيّ ذكور يا أختي؟ لو الرجولة بالكروش والكؤوس لا سترجل العالم بأسره، الرجولة بالضمير.

وأشارت لعازف بدا السكر عليه :

- رقّصني دخلك، أحبّ الرقص على إيقاع ضمير مومس.

- نفرت السمراء من كلامها، وصاحت في وجهها :

- أنا لستُ مومساً، أتريدين أن أخبرك من هي المومس؟

تدخل صابر لتهدئة الجو، وقدّم اعتذاره للمرأة الثرية التي راحت تشدّ وسطها بغترة أحدهم، وغمزت للشقراء وهي تطقطق بأصابعها: نحن المئة، المثنى، المفرد.. قومي معي.

سحبت السمراء من يدها، ونزعت غترة رجل أكرش شدّت به وسط المرأة السمراء، وراحت تأمرها:

- هزّي، هزّي.. هذا هو الحاكم الذي يفكّ من حبل المشنقة.

- وتابعت تحريك مؤخرتها بيديها، لكن العزف توقف، مع استمرار ممانعة السمراء التي بدا أنها لم تزعج أحداً. غضبت المرأة الثريّة منهم، وصرخت باحتقار للجميع:

- أنا أشتريكم وأشتري مئة من هذه الحثالة النكرة.

ورمت بأقرب مزهريـّة من الكريستال إلى رجل أكرش أخذ ركناً بعيداً للتدخين، فاعتدل في جلسته ضاماً ركبتيه، وهي تصيح:

ـ أيّها الأبله، أوَ تهينني هذه الساقطة وأنت تتفرّج؟

كان مزيجاً من الكسل والخنوع، ابتسم لها مخبئاً كلامه بين شفتيه، فبدا كشخص عارٍ من أيّامه، أو كقائد عسكري تساقطت أوسمته.

أومأ صابر لأحد الخدم بإحضار كعكة الحفلة، وأشار إلى عازف العود والطبل. فصدحت الموسيقى، رغم أنّ السيّدة ظلت تحدّج السمراء ذات الرداء الأحمر بنظرات حاقدة، وارتفع الصوت.

(سنة حلوة يا جميل).. التفّت الكؤوس حول صابر، وارتفعت الأصوات (بصحة صابر) هَي.. هَي، سنة حلوة يا جميل.

وزّعت صحون الكيك المزينة حسب الأولويّة والمكانة والرتب الاجتماعية، لفّت السمراء طرف ثوبها الأحمر بين ساقيها، وشدّت صحراءها على صدرها، دارت خجلها وارتباكها، وتبتسم بكبرياء.

لم تجد نفسها معهم، كانوا مثل حشرات، وهي خارج المكان، بين الأسود والأحمر، تدخل نافذة أخرى.

شدّها صوت عشّش في روحها:

- ماذا لو لم يرسمني ساقطة؟ (وراحت تلوم وليداً وتعتب عليه) لماذا لم يرسمني من بلاد النفط، مثل الرعناء المخمورة وزوجها التمثال؟

- أيمكن أن تكون أغنيتي شرعية؟

- سأغنّي يا وليد، نعم سيكون الغناء شرعياً وعُري جسدي شرعياً، ولخضعتْ كلّ الوجوه والرقاب إلى حقيبتي.

لكزتها صاحبتها :

- أين كنت، ما هذا الغياب؟

أجابتها على الفور:

- كنت أعيد ترتيب الأشياء، أو بالأحرى كنت أطوّعها و أختار لي شكلاً، أشعر أنّني بحاجة إلى البكاء.

وضعت الشقراء كأسها على الطاولة الزجاجية، وبحركتها فاح عطرها الصارخ، اختارت وردة حمراء قطفتها من باقة زهور تتوسط الصالة، وضعتها في

شعرها، مسّتها رائحة الورد، فتنفست عميقاً وضغطت على ساق صاحبتها لإشراكها في المتعة. تفحّصت خلخالاً من الذهب الخالص الذي نفر من رجل (الوحلة) وهمست بأذن السمراء :

- هل تعرفين أنّني سميت المغرورة (وحلة)؟

وكبتت ضحكة ودارت شهقتها .

– اسمعي يا صاحبتي، لا تغضبي، هوِّني على نفسك، هنا لندن، عرض البضائع الجميلة الفاخرة، عرض الأجساد. وهنا كلّ من حبلت ببلدها أحبّت مستشفيات لندن التي لا تعتبر الابن غير الشرعي حراماً، ولا (البوي فرند) حراماً، وهنا لا أخ رقيب ولا زوج ولا أب، إنّها الأوقات السعيدة والتجديف ضد الأحجبة المزيّفة والعباءات.

بعد ليلة صاخبة، رمت كلّ منهما جسدها المتهالك على السرير، حاولت الشقراء محادثة رفيقتها لتُخرجها من وجومها : نحن ضحايا البغاء، وضحايا فنّان مخصي.

قاطعتها :

- لا يا عزيزتي، لسنا ضحايا إطار لم يكتمل. كلّ جلساء الليلة زنازين مغلقة ، أحياء، سجناء أحرار، أوسمة ذهبية مطليّة بالصدأ. نحن حقيقة عارية، وهم عُراة بلا حقيقة.. لا تتحرّكي، إنّي أسمع زحف دمه في عروقي، أجده يبحث عن القطعة التي مازالت بيضاء في فستاني، إنّها سمائي الوحيدة، فغداً سيغدق عليّ عطايا ألوانه.

تحركت الشقراء متململة، وتابعت السمراء:

– ابقِ ساكنة، إنّه يمرّ قرب روحي.. إنّه ابتسامة خاطفة على نافذتي.

– هل أغلق النافذة؟

– إنّه هواءٌ باردٌ وليس وليداً.

منذ أن تعرّفت على صابر ساورها الشك بكلّ تصرفاته، قلبها وعقلها لا يطاوعانها على البقاء في شقّته الموبوءة. تسلّلت بعض خيوط الشمس من النافذة، شعرت بالدفء والصداع يوقظانها، نهضت

متوجّهة إلى المطبخ، فقد لمحت به صيدلية منزليّة صغيرة. رأت فراش الشقراء خالياً، وهي تمشي على رؤوس أصابعها كي لا تُحدث ضجّة. راودها شعور بأنّ صاحبتها في الحمّام، لكنها سمعت صوتا من غرفة صابر، خفّفت من مشيتها وكأنّها تبحث عن عصافير في مخبئها، صعقتها المفاجأة. اقتربت من الباب، لصقت أذنها به بحثاً عن وضوح، تأكّدت أنّ صديقتها في الداخل.

تناولت حبتين من المهدئ، ثم عادت متسلّلة إلى فراشها، خرجت الشقراء من غرفة صابر، فبدا بريق شعرها المبعثر لامعاً. سألتها :

– لماذا شعرك مبلول؟ هل أخذت حمّاماً للتو؟

– نعم، حمام دافئ.

– أنا سأدخل الحمام، لعلّ الماء والصحوة يزيلان الصداع عن رأسي.

غابت عشر دقائق، ثم عادت بصحوة منعشة :

– حمداً لله، يبدو أنّ مفعول المهدئ قد أخذ يسري في بدني ورأسي.

واستدارت إلى صاحبتها بعد أن جلست على الفراش تمشّط شعرها الأسود :

-البارحة كنّا في مهرجان، كلّهم يعزفون في ناي واحد، إلا أنا وأنتِ لكلّ منّا نايها الخاص.

- سمرائي الغالية، لا بدّ أنّك انتبهت البارحة إلى الصحفي الذي تابع حركاتك، لا بل أكلتك عيناه، قال إنّ اسمه محمود.

بدت الدهشة على وجهها، إذ ليس من عادة مومس أن تسأل عن أسماء زبائنها، كما أنّ أسماءهم ليست حقيقيّة. حاولت جهد نفسها أن تسترجع صورته من بين الوجوه، تستعيد ملامح من احتساها مع كأسه، أهي النظرة القلقة نحو البغي؟. نعم، فقد رسمها معتوه الابنة غير الشرعية للحياة. ربّما فكروا جميعاً بالطريقة التي ستقلع ملابسها كتفاحة ليس لها أنياب قبلية، أو خميرة ممنوعة تعجنها وتخبز فخذين جميلين. وجدت نفسها تتكلّم، وصاحبتها صامتة تنظر لشرودها:

ـ رفيقتـي السـمراء أرجـو أن تعرفـي أنّ الحيـاة هـي المبغى الحقيقـي، والقلـب لـيس لـه وجـود هـذه الأيّـام؛ عـالم رخـو يسـتعيض عـن القلـب بـالحجر وبـالنقود.

. ماذا قلتِ؟ لست أفهم، ماذا تقصدين؟ أنا سألتك عن محمود.

وواصلت:

. التفاحة رسمها بهلوان مفتون بالفخذين، لذلك جعل منهـا خطيئــة، وهـو المغلـوب علــى أمــره، مسـكين استجاب لغوايتها ورسا على شاطئ حياة آدميـة، حيـاة أوحـت إليـه كيـف ينـزع عنـه أسـماء الملائكـة ويعـود كمقاتل في معركـة، يلقـي بجسده بين فخذين شبقين. القتـال كلّـه من أجل السقوط في حفرة معتمـة؛ عفواً. لقـد هـذيت كثيـراً، مـن حقّـي أن أصـبح حكيمـة، ولـو للحظة واحدة، مومس وحكيمة؟

. ألم تسمعي سمرائي المثل القائل: خذ الحكمـة من أفواه المجانين؟

لكنه لم يقل أفواه الغانيات.

تناثر الشعر الأسود على الكتفين :

- هل أنت مَن سأله عن اسمه؟.أهو عبث النساء بالرجال؟

- بل هو صاحب المبادرة.

- أين نمت البارحة؟ كوني صريحة معي.

- بصراحة، نمت مع "صابر".

- وعدتِ بعملة خاسرة، هل خسرت ما فوق السرّة أم ما تحتها؟

- كلاهما.

ارتدت الشقراء ثوباً مشجّراً بورود بيض، وتابعت؛ السرير مملكة قانونها نهود النساء، والشاطر من يتوّج نفسه ملكاً.

. تقولين مملكة؟

- نعم، مملكة تتعرّى فيها الرعيّة كلّما تعرّت المومس.

- معك حق، أحكام وقوانين سُنّت من أجل ابتسامة في مسرح عهر البارحة. كلّ الأثداء الراقصة ليس فيها ثدي أمّ ولا قلوب حقيقية، إنّها قلوب من النايلون، ولا يوجد متّسع للحب، لذّة جنسيّة فقط. أنتِ

رسمك"وليد" مومساً أعطاك الشكل، "وصابر" فضّ بكارتك، أتراه اكتشف أنّك مازلت بكراً؟

- نعم، واستغرب. وزاد استغراباً عندما قلت له هذه أوّل مرة أنام فيها مع رجل. فقط سألني:

-من أنت، هل أنت من اللاتي يهربن بحجابهن وينزعنه في الطائرة وجئت تعوّضين الحرمان في لندن؟

- لقد رأيت منهن الكثير، أم أنت مفلسة جاءت بهيئة مومس لتسترزق؟

ـ إذاً، أين تقع الخطيئة الآن وعلى عاتق مَن يا شقرائي ومن هو الخاطئ الأوّل؟. التفاحة، صابر، وليد، أنتِ، الضيوف كلّهم بحواراتهم العقيمة واستعادتهم لما كرّرته النشرات الإخبارية، غثاء السياسة، غثاء الدين وغثاؤهم.،

ـ أنتِ تهذين اليوم، ومن تعشق وليداً تهذي بهذيانه.

. لا، ليس هذا بهذيان. أنا البارحة (واقتربت منها مؤكدة) لا تقولي أنا مجرد لون وفكرة، أنا كيان جديد رأى البارحة الشعبَ العربي ممدّداً على صينيّة مملوءة

بالرز والمكسّرات، قوزي عربي، وكان يدور حول الصينيّة والمقبّلات اللبنانيّة سمسار واحد يقود القطيع.

. خذي هذا الشال الأصفر اربطي به شعرك، ودعينا نفكّر كيف نقضي وقتنا اليوم. ضعي أفكارك هذه في حقيبة وأغلقي عليها، ولنستمتع باليوم، هيا نخرج فأنا جائعة.

حالما خرجتا من الغرفة، وجدتا صابراً ينتظرهما على الإفطار، وخادمة مغربية تصبّ الشاي. حيّاهما قبل أن تبادرا بالتحيّة، وجلستا إلى طاولة الطعام . خلال الإفطار تحدّث صابر عن ليلة البارحة، وبادر بقول أدهشهما :

- الآن أصبحت لي عائلة.

وانتقلت نظراته إلى الوجهين.. شكرت السمراء خادمة "صابر على الشاي"، وطلبت إضافة المزيد من السكر.

راحت الشقراء تعيد عليه ما قاله:

- ستصبح لك عائلة؟

أجاب على الفور مستدركاً استعجاله لاستدراجهما في البقاء معه:

- أقصد أنّي حُرمت من العائلة، وأنتما كعائلتي.

استبشرت أساريره وهو لا يزال يكتشف ردّة الفعل حيال اللغم الذي فجّره قبل قليل، مسح قطعة خبز بالزبد والمربّى وقدّمها للشقراء، ثم أشار للخادمة أن تصبّ له مزيداً من الشاي والحليب، وراح يطرح أسئلة لا بدّ منها:

- أعتقد أنّ الوقت قد حان لأعرف اسميكما، وأظن أنكما من الـ..

- مسحت الشقراء فمها بفوطة بيضاء، وقاطعته :

- لم يكن لنا بلد أو تأريخ أو اسم، إننا مجرد صدفة، صدفة مرّت بذهن رجل، وعلينا الآن أن نختصر الدهر باثني عشر يوماً، أمقتنعٌ أنتَ بكلامي؟

- لا، والمصحف الشريف ومنزّله.

- أتقسم بالله؟ من حقك

- شو هيدا.. أنا بعرف ربّي، ويمكن أعرفه أكثر من أي أحد يصلّي عشرين ركعة في اليوم.

-ليش لا.. الله غفر لرابعة العدويّة، ويمكن يغفر لك.

-والله كلام السمرة حلو، شو بدّي من الدين لو ربّنا فتحها بوشّي مثل رابعة.

خاطبته السمراء بتخابث:

- هل نمت جيّداً البارحة؟

-. جيداً جدّاً، نمت نوماً ما في مثله.

-نوم على النفط، ونوم على.

- نظرت إلى وجه الشقراء، وصمتت. انتفض صابر واهتزّ قليلاً، ثم رجع إلى هدأته. أمّا السمراء فصحّحت ما فلت من لسانها:

-كلّ الصناعات من النفط، حتى الغيوم صارت تمطر نفطاً.

بكثير من العناية الرقة مسحت فمها بفوطة معطرة، وأوضحت رغبتها للخادمة بفنجان من القهوة، بعد إذن السيد صابر.

أجابها: بكل سرور. (وراح يتحدث عن الخادمة):

– تأتي حسب الطلب، أتصل بها بعد كلّ حفلة؛ إنها مريحة وتريحني على الآخر.

. على الآخر، الآخر؟

. نعم يا شقرائي الملعونة، على آخر الآخر.. لو ما لقيت وحدة مثلك يا وردة.

خطر للشقراء أن تصنّف أنواع الرّاحة، كما أسعدها إطراء صابر لها. استمتعت بطرب لصوت فيروز، وطلبت من "صابر" أن لا يغيّر الشريط، وأن يكفّ عن البحث عن شريط آخر، فصوت فيروز أنعشها.

(زوروني كلّ سنة مرة، حرام تنسوني بالمرّة).

قالت السمراء:

– أبإمكان المرء أن ينسى من يحب؟

أجابها صابر: إيه.. كثير.

– هذا ليس حبّاً، مجرد إعجاب أو جسد. الحبّ هنا (وضعت يدها على قلبها) هنا.. وهكذا حبّ لا يُنسى.

– سمرائي العزيزة، يبدو أنّك عاشقة، ممتلئة بالعشق؟

لم تجبه، بل تابعت مداعبتها لمزهرية الورد الجميل بأطراف أناملها، تشمّه وتحتضنه. سحبت وردة

بغصنها من المزهرية وضمّتها إلى صدرها كطفل يضبط مخاوفه، فالاحتضان احتواء مريح. الشقراء التي تعرف رومانسية صاحبتها قالت بلهجة خاصة :

– أتحتضنين الوردة أم تحتضنك؟

– كلانا يحتضن الآخر.

قال صابر: يستطيع المرء أن يمتدح الحضن ويدينه في الوقت ذاته، حسب اللذة والانزعاج. بالفطرة نحب الأحضان ونحبّ تبعيتنا لها، ومن فرط الحب نتعلّم الضعف، لذلك ننام مع الخدم ونضربهم كي لا يشهدوا ضعفنا.

– والنفط.. بعد أن نمت معه البارحة، صفعته أم صفعك؟ أعتقد أنّك صُفعت مراراً كي لا تشهد ضعفه واستسلامه إليك، كم مرة جعلك النفط تشخر فوقه؟ هل زفرت نفطاً خاماً أم مكرراً؟

– لشدّ ما تغوينني، أخافك وأخاف لسانك السليط يا شقراء. هيّا، تهيئا لنقوم بنزهة جميلة. أريد أن أريكما معالم لندن، من أين ترغبان أن نبدأ؟

– لا علم لنا بالأمكنة، تركنا إليك الخيار.

- هيا إذاً.

سار نحو الباب معهما، وقبل إغلاقه صاح على الخادمة :

- تركت أجرتك على التسريحة في غرفة نومي، حين أحتاج إليك سأطلبك.

رغبة بمعرفة التفاصيل وأسماء الشوارع والمحطات والحدائق، تركتا لصابر العنان يتنقل فيهما من مكان لآخر، شارحاً كلّ شاردة وواردة، قد يفوّت بعض المعلومات التي يجهلها، لكنّه كان مفيداً. وأخبرهما بما يعرف حين تجوالهم في متحف الشمع، كما شرح في الطريق إلى الكاتدرائيّة بعض الأحداث، وحين وصلوا ساعة (Big Ben) أخبرهما أنّها من أشهر معالم لندن وتقع على نهر التايمز، كما ذكر لهما عند " جسر البرج "(Tower Bridge) أنّه أنشئ عام 1849 وهو من أرقى الجسور في العالم.

تمشّوا قليلاً، مسترجعين ما قام به صابر في متحف الشمع من تصرفات لطيفة، إذ عمد إلى تقليد خنق الزعماء العرب وأخذ صور تذكارية قائلاً:

- هنا في لندن يمكن خنق أيّ زعيم عربي، وسأريكما كيف يشتمونهم يوم الأحد في حديقة الهايد بارك.

قضوا وقتاً ممتعاً، انتقلوا بعده إلى لندن آي؛ وصعدوا في الدولاب الهوائي.

– صابر أين نحن الآن؟

ـ يا شقرائي نحن أمام قصر الملكة، قصر "باكنجهام". تصوروا عظمة ملكة بريطانيا، هي رئيسة دول الكومنولث والقائد العام للقوات المسلحة، لكنّها لا تصدر أمراً إلا بناء على مشورة الحكومة، تماماً مثل بلداننا العربية (بصيغة هازئة).

هنا المسكن الرسمي للملكة تُفتح بوابة القصر في أوقات معينة، ويمكن للزائر رؤية المكاتب الرسمية الفخمة التي استقبلت عبر القرون المنتفعين والأثرياء. كما ترون تجمع السيّاح حول البوابة، انظرا.. ها هم يتوافدون منتظرين تبادل الحرس لأمكنتهم بالملابس الرسمية التقليدية، وهناك الحديقة الملكيّة.

تذكّرت السمراء سجن القلعة ومشاهد الرعب والألم والموت، حيث يجذب السيّاح من كلّ أنحاء العالم، أغمضت عينيها في محاولة طرد الصورة المرعبة. وبعد أن تركوا قصر الملكة، سألت صابراً:

- أين نحن؟

- في ساحة (بيكاديللي)، هنا مركز لندن. انظري كيف تنتشر محلات بيع الهدايا التذكارية وهنا دور الحفلات الموسيقية والعرض المسرحي والنوادي الليليّة.

قالت الشقراء: أنا جائعة يا صابر، ألا نتوقف قليلاً؟

- سنتناول غداءنا في مكان فخم، اصبري قليلاً. ها قد وصلنا (الطرف الأغر) هنا أيضاً توجد المسارح ودور العرض والنوادي الليليّة والمطاعم. وأشار إلى مبني المعرض الوطني قائلاً :

سأرافقكما لرؤية المعرض، إنه ضخم، ويضمّ أكثر الرسومات براعة في العالم. كما سنزور المتحف البريطاني، إنّه أقدم وأعظم المتاحف في العالم، يضمّ

تاريخاً عالمياً يمتدّ لأكثر من مليوني سنة، ويحتوي على أكثر من 49 صالة عرض.

تخيّلت السمراء صورتها ضمن صور المتحف، ووجهت سؤالها للشقراء؛ هل من الممكن أن نكون ضمن هذا الإبداع ، ويشار إلينا بالبنان ؟ .

أجابتها الشقراء: من يدري.

ردّت عليها السمراء: مادام "وليد " يتحلّى بالشرف والكرامة والكبرياء، إنسي.. إنسي.

-ولمَ لا (خطرت بباله بعض كلمات وأراد أن يفرد عضلاته أمامها ليتقرب إليها)

-ستكونين أجمل امرأة تزورها الوفود وتهزّ الرأس إعجاباً فأنت يا صغيرتي نبع، والفنان الذي لا يرسمك أبله .

أطالوا البقاء في المتحف البريطاني، حيث الحضارات الشرقية والغربية. وقفت السمراء نصف ساعة أمام الآثار السومرية" ، بوابات وألواح ونسور مجنّحة: إنّها آثار وليد، كأنّي أشمّ رائحتك يا وليد، كأني أقرأ كتابك بين هذه الرموز. كم أنت عظيم يا

فنان سومر، أيّ كلية درّبتك وأيّ أساتذة علّموك؟ أنت أستاذ نفسك.

قال صابر مبتسماً:

- هل تكلّمين نفسك؟

. معك حق، من يرى عظمة تاريخ وحضارة سومر لا بدّ له أن يهذي ويكلّم نفسه.

أضافت السمراء: الخلق والخلاق يحتاج لما هو أكبر منه، يحتاج إلى المئات بل الألوف ممن يشبهونه ويشبهون أنفسهم ليخوضوا ساعة خلق واحدة.

خرجوا.. قاد صابر السيارة مسرعاً:

- أنا بدأت أشعر بالجوع، ما رأي الحلوتين لو تناولنا الغداء، فأمامنا متسع من الوقت لرؤية معالم لندن؟ سأختار مطعم بغداد، بعدها نأخذ قسطاً من النوم، فنحن مدعوون من قبل شخص مهم الليلة.

***

ذات صدفة وهو يكمل ثوبها الأحمر إلى حدّ الأكمام، سـمعته يحـاور أحـد أصـدقائه عبـر الهـاتف، فنـان مهووس بالنسـاء مثلـه، استنتجت أن ذلـك المحـاور يحدثـه عـن موديلاتـه العاريـات، وكيـف أنـه اسـتمتع بأنوثـــة الطبقـــة البورجوازيـــة، وحســـد الانتعـــاش الاقتصـادي، وكـان "وليـد "يـردّ عليـه : لـيس الجـنس الوحي الوحيد، بل الخصوصيّة وامتلاء الذات، يا أخـي النســاء هـنّ الحـرب والسـلام. لحظتهـا رأتـه كقسـوة الشمس في ظهيرة قيظ، وكمن يعوم وظله في السراب.

في أحـايين كثيـرة يتشبث بقوة كاذبـة يتصدى بهـا لضعفه، يحـاول أن يعيد لـه اعتباره ويراهن علـى أسـئلة تنقذه مـن نفسـه، لكنـه حين تخـور قـواه، يعـود إلـى ألوانــه بـثلاث زجاجـات مـن البيـرة ويحتسـيها دفعـة واحـدة، يغمـض عينيـه مـن دخـان سـيجارة يزفـر فيـه سنوات علقت بالذا"كرة ويسأل لنفسه :

- كيــف كنــت شــيوعياً،أكنت معارضــاً لإرادتــك أم لمؤسسات زائفة ؟

ثم يرسم في الهواء ظلّا يطارد أصابعه ويرجع يتغزل بساق شقرائه أو زندها أو خصرها، أمّا ذات الشعر الأسود، فلا يهوى منها إلا مزج الألوان، حين تنتابه نوبة الرسم، ممّا جعلها تلعن مدير السجن على عدم بتر يده الأخرى، ثم تعود تستغفر ربّها طالبة له دوام الصحة والعافية.

في مساء ممطر، رنّ جرس الباب، كان وليد يتكوّر على نفسه ويهتزّ كطفل مذنب . لكــن الجرس رنّ عشر مرات، مما جعل وليــد يضجر صائحا:

- دخيل الله مَن؟

أجابه الطارق بصوت أجشّ :

- قلب بشري خنقه شبح الليل والمطر وقذف به على بابك.

. مرحباً، تفضل مراد، ما الذي ذكرّك بنا الليلة؟

- قلبي يابس، وجئت أطرّيه عندك.

- هل أجلب إليك بيرة؟

ـ لا.. أحب أن أسمع شعراً، فأنا اليوم أكثر الشعراء اغتراباً.

– هل أصابتك لعنة عشق جديد؟

– بل أنا توّاق لحزن أغسل به حزني، ربّما أتطبّب بما هو دائي.

نطّ وليد حافياً وتناول كتاب جبران من مكتبة معلّقة على الحائط: اسمع ما يقوله جبران:

(يا إله النفوس الضائعة، أيها الضائع بين الآلهة، اسمعني أيّها القدر الرحيم الساهر على نفوسنا التائهة. أصغ لي، فإنّي أعيش بين البشرية المشوشة).

مدّد مراد رجليه على الأريكة، ونام مسترخياً:

- الله، الله، يا جبران. أيّها الإله الضائع سجّل، سجل وحشتي بسجلك ولا تستغرب إن قلت سئمت مسرتي، وسئمت انتظاري لها، لقد بلغ بي الكبر وكبرت عزلتي؛ لمَ لم تقرأني في سطورك وأنت الذي قلت؛ اقرأ؟

- شيطان وكافر؟. ما الذي دهاك؟

-جرعة المرارة كانت أكبر منّي، كلّ العذاب الذي ذقته في حياتي... (صمت برهة ثم تابع): نحن الشعراء تعساء الله على الأرض، حتى أحقر نقطة في الحياة تحتقرنا، وفي النهاية نموت.

قدم له وليد زجاجة بيرة :

. أعرف أنّك ورّطت نفسك كعادتك، ألم أقل لك لا تمشِ على حبل؟

– تقصد حبل الصراط المستقيم؟ ما ذنبي إذا فُطرت على الحقّ وقوله وفعله؟

– ها.. انظر أطراف يدي، كم نزفت في السجن وأنت شاهد على ذلك. استمعت إلى دبيب الحشرات على جسدي من أجل قيامة أخرى، من أجل أن أقول للضائعين انتبهوا، حان الوقت، وآخر المطاف أمريكا تتربّع على صدورنا، وتقول لي صراط مستقيم، يا أخي لا صراط ولا مستقيم، آخرها محرقة.

. هذا حرام ، على مهلك يا مراد .

. أؤكّد لك أني أكفّر عن ذنب الشيطان حين أحرَق مراد الذي بداخلي .

المسيح قال : (أنا هو خبز الحياة) وصُلب، فكيف نحـن أولاد الكلـب؟ نحـن مصـلوبون منـذ لحظـة المضاجعة، وتصوّر المسكينة أمّي وأمّك تنتفخ بطنها ولا تدري أنها ستلد مصلوباً، نحن بحاجة إلى شريعة خاصة بالمصلوبين.

***

وهم في طريق عودتهم إلى الشقّة بعد وجبة غداء دسمة، زحفت يد صابر إلى الشعر الأشقـر، تجاوزت حدودها وامتدت إلى العنق، انزلقت نحو الصدر، ظلّ الشوق مباحاً، خطّ خطاً مستقيماً، استسلمت الشقراء لمداعبته، وراح يخاطب السمراء :

-أعرف أنّ لك عناد البحر، لكن ارتدي ثوباً شفافاً، ابرزي مفاتنك ودعي شعرك يثور ثورته الغجرية. لقد اشتريت لك أغلى الملابس، أكنت تحلمين بثوب من (فالنتينو) ، أو ساعة من (فرساتشي)، ألك حقيبة يد(بألفيْ باوند)؟

- داعب يدها :

-لديّ من يقدّر الجمال النافر.

أطلق زفيراً عميقاً وأشار بأصبعه :

-خُذيها نصيحة منى، اضحكي على الحياة قبل أن تضحك عليك، أنت أيّتها النافرة من الضلع الأعوج، يا كلّ النساء بامرأة.

هزّت رأسها استنكاراً :

ـ أنت قوّاد، وأنا جميلة لنفسي وبنفسي وسأرتدي أقراطي وأساوري لأتحرّر من عقل رجل يشتهي غزو الجسد. أيّها الأعور، أنتم أطلقتم على حواء لقب الضلع الأعوج، أتدري لماذا؟ لأنكم تخافونها، تخافون سجودكم تحت قدميها. حمّلتم حواء ذنب الكون، ونسيتم ضعفكم أمام الغواية.

دنا منها لكي يطيّب خاطرها، فنفرت:

-سأرتدي بإرادتي ما يحلو لي وأتجمّل لنفسي.

-طيّب، المهمّ أن تكوني جميلة المظهر، وفاتنة.

قبل أن تبرحا صالة الشقة، رجاهما صابر أن تتحلّيا باللباقة، وأعاد عليهما مرّتين :

- القلوب والآذان صوب جيوبهم، فهمنا؟

ردّت عليه الشقراء بتوتر:

- أتعبتنا يا أخي بوصاياك، هل أنت ابن الشيطان؟

جلستا صامتتين، كمن يضع خطاً فاصلاً للشر. اخترقت الشقراء الصمت :

- إذا كان من تأخذنا إليه شيطاناً مثلك فأنا أؤكد أني سأجعله يتوب. لا يلتقي شيطانان في مكان واحد، سأجعله يغدق عليّ بعطاياه لأصبح اللبوة المفضلة، وبهذا أكون قد روّضته، فيهزّ جيبه كلّما اهتزّ وسطي وأغمضت عينيّ عن خطيئة شيطان له مسبحة وسجادة.

- كيف عرفتِ أنّه شيطان بمسبحة؟.

-سمعت البارحة طقطقة المسابح الثمينة في سهرتك.

في الطابق الخامس، من إحدى العمارات الفخمة في شارع (ريجنت) قبل أن يُطرق باب الشقة رقم (105)، كان الخدم يراقبون وصول الزائرين من العين السحرية. في المدخل أربع خادمات عربيات بزيّ موحّد، وقفن ضاحكات مهلّلات :

– يا هلا.. يا هلا.

وعلى نحورهنّ قلائد ذهبية متشابهة، فالأزياء موحدٌة في كلّ شيء، الملبس والأحذية والذهب وحتى ترتيب الشعر. قادتهم إحداهن إلى الصالة، هبّت رائحة البخور وروائح المسك الطبيعي التي عجّت في كلّ مكان.

تنبّهت السمراء إلى السجّاد الإيراني الفاخر، أمّا الأخرى فأشارت إلى صاحبتها لتنظر إلى ثريّات صغيرة في جانبي الشقة، وثريّا كبيرة مطليّة بماء الذهب في السقف، وأغمضت عينيها كطفل يريد التمسّك بلعبة أغوته، كانت غايتها الاحتفاظ بمنظر الثريّات المصنوعة من الكريستال الخالص. أمّا صابر، فقد ذاب كفصّ ملح.

جلستا تمسّدان الأرائك والمزهريات والتحف الثمينة، على كرسيّين مصنوعين من الخشب المحفور.

إلى الجانب الآخر طاولة مستديرة وضع عليها ملاءة من الدانتيل الأحمر المشغول بخيوط فضّية، وفوق الطاولة عُلّقت مرآة من الفضة الخالصة.

كان يدور في خلد السمراء قلق يثير شكوكها لذا شعرت كأنّ سيفًاّ مسلطاً على رقبتها، أحياناً تأتي الأفعال لا إرادية، إذ لا يملك الإنسان إلا أن يشكّ في كلّ شيء.

على حذر من الجميع، اتخذت لها ركنا منعزلا فثمة غموض في هذا المكان . سارت الشقراء في الصالة مدقّقة في كلّ ما تقع عيناها عليه، ثم رجعت إلى مكانها مسرعة، حالما دخلت إحدى الخادمات حاملة كأسين من العصير الطازج.

ـ شكراً (قالتا بصوت واحد).

اخرجت عطراً من حقيبتها، أزاحت شعرها الأشقر عن أذنيها وعطّرت ما تحتهما مروراً برقبتها، ثم قدّمته لصاحبتها. شكرتها السمراء، دون أن تأخذ العطر.

الأفكار والناس والمكان، وصوت يلمع في صدر السمراء، كلّ هذا جعلها معطّلة عن التفكير..

ـ لم أرَ في حياتي شقّة كهذه.

أجابتها الشقراء وعينها على ضيف وسيم :

ـ عزيزتـي مـا دخلنـا غيـر ثـلاث شـقق، شـقة وليـد وشـقة صـابر وهـذه الشـقة، ومـن خلالهـا دخلنـا أبـواب الشيوعيّة والرأسماليّة والسمسرة.

أحسّـت السـمراء ببـرودة هـواء قـادم مـن أحـد الشـبابيك، نهضـت تستنشـق بعضـاً منـه، واسـتدارت صوب صاحبتها بعد أن لعب الهواء بشعرها، لحظتها فُـتح البـاب دون اسـتئذان، فقـد تعمّـدت الخادمـة أن تتركه مفتوحاً .

– يا حافظ، ما حد إجا؟ وين الباقين، عفواً، السلام عليكم.

ـ وعليكِ السلام.(جميعا)

دخل الحلاق خلف المرأة، الحلاق المائع الذي رأتـاه البارحة، وعلقت السمراء على مشيته، أمّا صـابر الـذي غيّر لهجته حسب هوية المتحدثين وقف مهلـّلا مرحباً بالحاضـرين، كأنّـه صـاحب الـدار. بعـد مضـي دقـائق أشار للخدم إشارة معينة، فاصطفت على الطاولة أنواع المـازات ودارت كـؤوس الشـراب. ولـدى دخـول أحـد المطربين وفرقته، أسرع الخدم لحمل الآلات الموسيقية

عنهم، وانشغلوا بتهيئة (الميكرفونات)، فأصبح كلّ شيء أليفاً، المعاكسات، الكأس، الوجوه، التبغ، النساء المتبرّجات، الياقوت والماس؛ كلّ ذلك خضع للكأس. تهيأت الفرقة الموسيقيّة، وأصبحت رهن الإشارة.

حضر الصحفي"محمود"، نظر إليهما نظرة خاصة، وابتسم بوجه السمراء. وحين صافحها ترك يدها تنام في يده، وقف مذهولاً بعينيها الواسعتين ورموشهما الكثيفة، فأحسّت برجفة يده ونبضه . وفجأة ساد صمت، ووقف الجميع إجلالاً لصاحب الدار، حالما قال السلام عليكم ردّ الحضور بصوت واحد :

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته. فلما جلس جلسوا، وحين وقف هبّ أغلبهم للوقوف بجانبه، لكن لمّا ابتسم منحهم بركة الابتسام، وراحوا يضحكون لمزاحه السخيف.

- همست السمراء لصاحبتها :

- أهذا نوع آخر من الفراغ؟

- أصمتي.. هنا الحيطان لها آذان. (ردت عليها صاحبتها بتوتر)

أخافتها شفته المتهدّلة، فواصلت أسئلتها :

- وعندما يخرجون من جلودهم، هل تسمعهم الحيطان أم تتستر عليهم؟

عزفت الفرقة أغنية أم كلثوم (أراك عصي الدمع)، تمايل الجميع معها، طلب المحفوظ أن يغيّروا العزف إلى أغنية راقصة. وبأمر المحفوظ رقصت النساء، وشُدّت الأوساط، زحفت السجاجيد مع الأقدام الراقصة، أُزيحت الطاولة الوسطية الكبيرة جانباً، وتناغموا مع حركات جسد الشقراء الراقصة وموسيقاها.

أما الصّحفي فقد اغتنم الفرصة وجلس قرب سمرائه، حيّاها، ورأى العالم كلّه في عينيها، نسى الكلمات، نسى الحضور، إلا حضورها ورائحتها. سألها:

– ما اسمك؟

– لا اسم لي.

– أهذا معقول؟

– الذي جاء بي إلى الدنيا لم يعطني اسماً.

– الحق على والديك.

– ليس لي أم ولا أب.

– عفواً لم أقصد إيذاءك، أنت يتيمة؟

– لا، لست يتيمة، كما إنني لست ابنة زوج وزوجة.

– من أنت؟ جنيّة، (وضحك)

– بل أنا من ألوان.

– هل أعتبر كلامك مزاحاً؟

ـ بل جد. بصفتك صاحب قلم، هل سمعت عن فنان اسمه وليد سالم؟

. أظنّني سمعت به، كم عمره؟

– في الثالثة والخمسين، هل تعرفه جيداً؟

– لا.. لماذا لم يحضر معك؟

– إنه يرفض الخضوع، إنه فنان عظيم لكنه يقولب نفسه بأفكاره ويحاصر فنّه ويحاصرني معه. الفن انطلاق، تعارف. كيف تكتب عنه الصحافة، وهو لا يزال يجهل نفسه؟

– معك حق. لكن هل أنت إحدى موديلاتـه؟. ثم من المؤكّد أنّه لم يصل إلى قناعة تامة بفنّه، ويخشى النقد. أو ربّما هو قبيح ومعقّد بسبب قبحه، أعرف شاعراً قبيحاً يكره من هو أجمل منه وأشعَرُ منه فيحاربه.

– صحيح هو لا يملك غير رقم واحد؛ بنطلون واحد وقميص واحد ومعطف واحد، لكن سيّد محمود الفنان لا يُقاس بشكله أو حسبه ونسبه بل بتجربته وبما يقدّمه من إبداع.

(تولستوي) ترعرع بين الفساد وكان سكّيراً، لكنه أكبر روائي في عصره. و(بلزاك) برجوازي، أمّا أعماله فيقرؤها الفقراء والأغنياء. الإبداع أكبر من الطبقات الاجتماعية، إنّه يخاطب وجدان الإنسان.

– يبدو أنّ ثقافتك عالية؟

. بل محدودة. تلقيت ثقافتي من وليد، كلّما يُسقط عليَ لوناً اكتسبت منه معلومة ، لأنه يرسم بيده ولسانه وقلبه.

. والعقل؟

– إذا دخـل العقـل سـاعة الخلـق مـا عـاد إبـداعاً.
أشـار الرجـل الثـري لصـابر أن اقتـرب، ووشوشـه، فـردّ صابر:

على الرحب والسعة، لكنّها يا سيدي عصيّة.

رفع الثري حاجبه وبدا عليه السرور:

– بيدي مفتاحها، كن مطمئناً.

اعتراها شك ممّا سمعت، وزحف الدم إلى خدّيها، رغـم ذلـك بـدت كمدينـة محصّـنة. نظـرة (المحفـوظ) تلتهمها، فتشغل نفسها بمحادثـة محمود. هو يسألها عن نفسها، وهي تجيبه عن وليد. تفاجأ لقولها :

-لم يسدّد فاتورة الماء، فالألوان تستهلك نقوده كلّها.

تهالكـت الشـقراء مـن الـرقص، ورمـت بنفسـها علـى الأريكـة لاهثـة. صفّق لهـا الجميـع، فقد ابتـلّ جسـدها بعَرق الـرقص والتهمتهـا العيـون الشـبقة حتـى أثـارت غيرة النساء الباقيات. بعضهن كنّ زوجات، وبعضـهن عشيقات، والأخريات بديلات لمغامرة فاشلة.

المحفـوظ يـومئ لخادمتــه، فتنحنــي احتراماً وتلبيــة لأوامــره ، يهمــس بإذنهــا فتجيــب بانحنــاءة: أمــرك سيّدي.. لكنه يشارك اثنين يتحدثان عن الحب:

- إنّ الحب كارثة تؤذي قلب صاحبها فقط.

ثم يقترب من يقترب من السمراء هامساً :

- قوامك جميل يا سيّدتي، وثوبك أيضاً.

- شكراً، الجمال جمال الروح والأخلاق.

- شعر بفسحة الأمل، اقترب منها محاولاً الالتصاق بها؛ لكن الصحفي يسبقه بتقديم بطاقته :

- تفضلي هنا رقم هاتفي وسأكون ممتناً لو سمحت أن أدعـوك إلــى أيّ مكــن تــرغبين ، هــذا بعــد إذن المحفوظ .

استدرك خطأه واعتذر من المحفوظ ، لكنـه أشار إليـه مطمئناً :

- خذ راحتك أنت في دارك .

اخترق تطفلّهما صدغيها وضمت يديها إلى صدرها كمن يضم ما يخصّه من أشياء ، شعرت ساعتها أنّها

الوحيدة المنسجمة مع ذاتها ورغبت مواصلة الحديث مع محمود : أتسمح لي بسؤال؟

– تفضلي، أنا كلّي لك فاتنتي.

– ما الذي قادكَ إلى هذا الوكر؟

تلعثم وهو يحاول أن يتفادى عينها :

– طويل العمر بحاجة لمن يكتب عنه، وقد رغب أن أكتب سيرته الذاتية.

رأت أنّ لحظة الصمت أبلغ، فارتأت أن تصمت. تناولت حبتين من الفستق، قشرتهما وقدمتهما له:

– هل تحترم الكاتب الذي كتب روايات صدام حسين؟

هز كتفيه وزمّ شفتيه:

– هل لديك خبرة في كرة القدم؟ الأقدام تركل والكرة تسجل الهدف، في ملاعبنا عددٌ كبير من الكرات والتبعية للركل.

– إنه اعتداء على الأدب أليس ذلك يا سيدي ؟

استغرق يفكر، ما الذي ستقوله عنه وماذا يفعل للحياة ومتطلباتها؟. التفت يمنة فجاء وجهه بوجه امرأة قبيحة، وقال دون تردد:

- أعوذ بالله من شرّ ما خلق.

هرب منها إلى وجه السمراء من جديد، كان يستعذب نظرة عينيها، فبادرته:

- قل ما تريد، أحسّ أنك بحاجة للكلام.

- هل قرأتِ شعراً، وأي نوع من الشعر تفضلين؟

- سمعت من وليد شعراً كثيراً، كما إني أفضل شعر العشق لأنّه ينفلت من القلب، ثم كم مرّة أحببتَ؟

- أوه.. كثيراً.

ـ وتسمّي التعدّد حباً؟ القلب لا يعشق إلا مرة واحدة، وأنت لم تعشق سوى امرأة واحدة وخانتك، أليس كذلك؟

- كيف عرفتِ؟

- لأنك تخونها مع الأخريات، تخون من تتربع في صدرك، و بالتالي أنت بلا حماية، رجل قاصر، قلبك مع واحدة وجسدك مع العشرات.

- المعذرة سيدتي، أظنك عاشقة حدّ النخاع، وأعتذر إذا كان سؤالي أزعجك.

– ليس الحب عيباً لأُدارِيه؛ الحب أكبر من الأرض والسماء، لذا يطير قلب العاشق بلا حدود، باختصار هو ميلاد وموت.

كان الوقت يمضي مملاً بالنسبة لها، قرب صحفي متطفّل. تسارع وقع حبات المطر على زجاج النوافذ، دنت من الشباك لتسمع صوت المطر الذي تعشقه لعشق وليد له، كانت تستمع لخفقات قلبه كيف تتناغم وحبات المطر. وكان محمود يثني بين اللحظة واللحظة على جمالها، ويخبرها أن صورتها لم تفارقه منذ البارحة، وأنّه يحس كطفل بين يديها، وبعد كلّ كلام يدور بينهما يذكرها برقم هاتفه. وساعة تجيبه بأنّها ستحاول الاتصال به، يعود لسؤالها عن اسمها ومن أين جاءت وما هو عنوان أهلها؟

كانت تتابع حركات صابر وهو يفرك الكأس بين يديه ككلب حول وليمة. ومع استمرار الطرب والشرب ترنّح من ترنح، وعلت أصوات الضحكات والشهقات . وامتدت في الزحمة يد إحدى الحاضرات إلى جيب أحد

الضيوف المهمّين عند صاحب الدار وسرقت محفظتـه؛ كانـت السـمراء تراقبهـا كيـف زحفـت مثـل هـرّة، ولكـزت محموداً لكي ينتبه إلى ما تفعله اللصة.

لم يكن اهتمامه بحدوث السرقة كبيراً، فقال لها:

-كلّهـم سـارقون، وكلّهـنّ يسـرقن ويطلـبن أجـراً. هـنّ يسـرقن الألبـاب والقلـوب والجيـوب، وهـم يسـرقون الأجساد.

غاصـت الأيـادي فـي ثريـد اللحـم، صـوت الملاعـق والشوك والمصمصة تثير اشمئزازها ، كانـت تـدعو الله أن ينقـذها مـن محنتهـا، وكلّمـا شـعرت بعيـون محفـوظ السـلامة تطاردهـا، ودم الرغبـة يفـور علـى شـفتيه المتهدلتين تقززت منه ورأتهم جميعا حيوانات بقرون .

– نعم حيوانات بأجساد بشر .

***

انتبهـت وهـي تحـاكي نفسـها ، كـلّ لحظـة تجـدها فخّـاً جديـداً، مـرّت صـورة المرسـم، رجـل مهـووس بغيرهـا،

يبعدها صوت رجل تجشأ، عبثاً تعيد الصورة، يشدّها الصوت إلى الواقع، فتبذل أقصى جهدها لتسترجع الأشياء كلّها حتى أواني المطبخ. تفحّصت المكان بتفاصيله، طريقة نفثه لدخان سجائره، أزرار قميصه المفتوحة على آخرها، أصابعه الصفر من كثرة التدخين، صدره الموشوم بعلامات الحرق والتعذيب، يده المبتورة، النسيان والذكريات، الأشعار التي يردّدها، سلطته على ألوانه، لحظات تغزّله بالشقراء، عاصفة صدرها المتفجرة وهي تكاد تصرخ، كلّ ما يمتّ لوليد بصلة تعتبرها حياتها ومماتها.

***

انتبهت للصمت، صوت الصمت يعلو، بأنفاسٍ لصيقة بها :

-يا الله، أين الجميع؟ لا أحد في الصالة، أين كنتُ وماذا حدث لي؟

- اهدئي (وضع يده على كتفها ولفّ ذراعه حولها) عزيزتي لقد أمرت الجميع بالانصراف، وأنا معك الآن.. هدّئي من روعك.

-أين صاحبتي؟

-في إحدى الغرف مع "صابر".

راحت تتمتم: عادت لفعلتها ثانية؟

وضعت يديها على صدرها، ضغطتهما بقوة، برز أحد النهدين بينما الثاني احتفظ ببعض حياء :

-كيف لم أشعر بخروج الجميع؟

- حين وجدتك حالمة ولست معنا، ولم تشعري بما يجري حولك، أمرت الآخرين أن ينصرفوا بهدوء، وأنت أدرى بأوامري. حلوتي، جمالك جبّار وعيناك ساحرتان، فابعدي الحزن عنهما.

- عفوك سيّدي أنا لا أستحق إطراءك.

وضع يده على فخذها، ارتعشت مثل سعفة، دقات قلبها المسرعة بانت من وريد رقبتها، خاطبها:

ـ بالمناسبة، اشتريت لك عقداً ماسياً، تفضّلي هو لك.

– معذرة، ما اعتدت على ارتداء الماس.

فاجأها برمي نفسه عليها، وحملها بين ذراعيه، وبكلّ قوّته شدّها وأحاطها، حتى ما كادت تفلت من قبضته:

- أنت العقد الثمين وأنت البرتقالة الناضجة، وكلّ النساء قشور.

- أدخلها غرفة نومه، ورماها على فراشه، ارتفع ثوبها إثر الرمية، فبدت ساقاها كلمعة برق.

- لا تخافي (أمسك بها، ونظر إليها باشتهاء) ألا تنسي؟

تعالي أجعلك تنسي الدنيا، أعرف أنها المرة الأولى، لمحت ذلك في عينيك وانزوائك. سأجعلك تبلغين الذروة، أنا متمرّس في ذلك.

- سيدي أنا لستُ كما تعتقد.

- اسمعي.. سأدفع أيّ ثمن تطلبين، شرط أن تتركيني أفعل ما أريد. أنت نصيبي اليوم، لكنّي لن أرغمك. كم يكفيك؟ عشرة آلاف جنيه، عشرون ألفاً؟

- سيدي أتوسل إليك، أنا لستُ كما تريد.

-هل في قلبك أحد؟

- أجل.

- ويتركني صابر الملعون أدفع ثمن العقد، بنت الكلب، تعالي.. أريد استرجاع الثمن.

رمى جسده الثقيل عليها، ترجرج لحم كرشه ضاغطاً على بطنها، لكنها استطاعت الإفلات من قبضته. جرّها من ثوبها، فتمزّق بين يديه. أدارت مفتاح باب الغرفة، وخرجت مفزوعة، دقّت باب الغرفة الثانية:

- صابر، اخرج يا ابن الكلب ماذا فعلت بي، قم خذني إلى البيت.

شهقت، بكت، ثار الشعر الغجري على هزات رأسها. خرج صابر عاري الصدر، يسحب زنّار بنطلونه، وصاحبتها وراءه ترتدي آخر قطعة من ثيابها. صاحا بصوت واحد:

- ماذا دهاكِ، هل جُننتِ؟ كيف تفرّطين بهذه الفرصة؟ المحفوظ ثروة.. ثروة.

- أتأخذني إلى البيت الآن، أم أصرخ بأعلى صوتي في باب العمارة؟

حين عودتهم إلى دار صابر، لم يكن على فمها غير كلام واحد تقوله:

- يا وليد خذني إلى ذراعك، أيّها الجبان خذني ولو بجبن.

وضربت الشقراء بكوعها معاتبة:
- ماذا فعلتِ يا وقحة؟
- دفعت ثمن بقائنا في شقة صابر.
لم يردّ عليها صابر، ولم يكترث لهياجها، واكتفى بمتابعة حركاتها في المرآة، ولاحظ عدم وجود عقد في رقبتها، فسألها:
. أين العقد؟
. رميته عليه، كيف عرفت بسرّ العقد، هل كنت خلف الباب؟
. أيّتها الغبية أنا من اشتراه، وأنا صاحب المبادرة، أسرار المحفوظ كلّها عندي.
أكدتا بصوت واحد:
- ونحن أيضاً لنا سرّنا.
(نظرتا إلى بعضهما، وقالتا ببرود)؛ نحن مثل خروف يعدّ أيامه.
. آه لو أعرف سرّكما، أدفع عمري ثمناً لذلك. كيف وافقت على مرافقة امرأتين لا أعرف حتى اسميهما؟، يا لغبائي.

فـي وقـت مبكـر مـن صـباح اليـوم التـالي، بـادرت الشقراء صاحبتها بالقول:

-من الآن سنخرج لوحدنا، هذا الصباح سنترك صابراً في البيت ونضيع في الشوارع، هيا يا سمرائي ارتدي ملابسك.

وفيما هي تكمل زينتها عرضت على السمراء بعض حليّها، فأخبرتها بعدم رغبتها فيها، بل قالت:

– أريد أن أكون حرة طليقة، ولو كان بيدي لمشيت دون ثياب.

علّقت الشقراء:

– والله فكرة، سيأتي الزبائن بالعشرات بل المئات.

ـ أهذه حدود تفكيرك؟ المال فقط، ولا يهم بأيّة وسيلة، تتحايلين على نفسك من أجل المال؟

مشتا على رؤوس أصابعهما حافيتين، والأحذية تتدلّى من أيديهما، وقرب باب الشقة امتدت يدان قويتان وجرّتهما:

-أيتها اللعينتان أتخرجان من دوني؟

-لا، لا.. وجدناك نائماً، فقرّرنا أن ندعك تستريح من عبئنا اليوم ونخرج وحدنا.

-لقد اتصل المحفوظ واعتذر، وطلب منى الاعتذار لك. لكن لا تنسي أنه وضعك نصب عينيه، وهو لا يتراجع.

برمت السمراء شفتيها استنكاراً :

- هذا شأنه، له ما يريد ولي ما أريد. ويا للزوجات المسكينات، أيعقل أن تُسلّم أمور الدول لرجال طبول؟

-شقراء هل تذكرين وليداً حين صرخ بصوت عالٍ:

- لا فُضّ فوك يا نزار قباني؟

-قال صابر مستفسراً:

- وماذا قال نزار قباني؟

قال؛ الدولة منذ بداية هذا القرن تعيد تقاسم الطبلة.

ـ دعونا من الطبل والطبّالين، لقد دعاني صديق على العشاء البارحة، وسوف تعجبكما السهرة، فيها رقص شرقي وغناء.

انحنت الشقراء بدلال يوحي بالموافقة، بينما السمراء صمتت.

. هل أعتبر الصمت علامة الرضا؟

-أجابت السمراء : فسّره كما تشاء ، بشرط أن لا أدخل غرفة نوم أحد.

-أتحبان أن لا أرافقكما؟

-بل نرجوك، لنا رغبة في التصعلك.

-عودا مبكراً.

-شكراً.

شعرتا بالسماء تمطر ملحاً، تمطر على أرض كلّها أجراس، وعلى عدد الرنين تسجل الخطوات، المدينة بسيطة وغير معقدة، وبقدر ما تقدّم من هدوء واحترام الآخر تُحترم. التفاصيل لا يمكن دمجها، إذ لكلّ محلّ شاهدتاه في الشوارع خصوصيّته، ولكلّ مقهى طرازها المميّز، وساعات النهار لا تشبه بعضها، ومن الصعب الإمساك بحالة واحدة للطقس، فمن السهل أن يتحوّل من المشمس إلى الغائم أو العاصف.

تحت مطرقة اليوم الثالث وجهان حوّلتهما لغة فنان إلى إكسير عشق وفراش، سُرّة الأرض تمشي على شكل امرأة. الحسناوات الشقر كؤوس معدّة للاحتساء، فضول العيون المتورّمة من السهر والخمر تدقّق

بتفاصيل الأجساد العابرة، لا فرق بين المحجبة والتي وشمت ما تحت السرّة. من خريطة الحافلات في الشارع عرفتا رقم الحافلة المتجهة إلى (أجورد رود) حيث يلتقي الضدّان، البياض الإنجليزي والسمار العربي.

العابرون مغامرة لحظة تستجدي إشارتها الخضراء..

الهواتف المحمولة تطرق بتهذيب دوران الرأس حول نفسه. اكتشافهما لهوامش الحياة وسطورها المحشوّة بحبر يرتجف خشية أن يُكتشف زيفه، اتضح لهما ذلك في أوّل خطوة بعد النزول من الحافلة.

انطلق صمتهما الجاد في إلقاء نظراته الشهيّة، مثل أوّل استلطاف كان مشروع حب اختار قُبلة علنية ورمي تقاليده إلى الخلف، الأحلام في بلاد الجنّيات تقطع تذاكر تجربة الحلم والفعل، بعيداً عن السماء العربية، حيث ليس من الضروري على صاحبة المبادرة أن تتفادى الخطأ.

كثيرات جئن لتجربة فساتين منكمشة لفرط ضيقها، فيما عباءات تعطي أرقام هواتفها النقالة، وكرديّات

يدفعن أطفالهن بالعربات متزينات بما لا يتناسب وزينة الصباح. أساور ذهبية جئن بها من الكويت في زمن غزو الأفاعي النهمة، مشروع لحرّية تستعطي من أجل اجترار الذات، كراسي المقاهي خاوية بخواء من تهافتوا عليها يصرفون رواتب التقاعد عن العمل في الوزارات، طواويس بشعر أحمر.

محلات عربيّة البائع والبضاعة. دلال مصطنع وغنج مفتعل لشابات فررن من واقع (الـ بدون) ، يمشين بكعوب عالية وأظافر اصطناعية وعدسات ملوّنة، في محاولات اصطياد مواعيد تملأ فراغ الوجوه والأبواب المعدنيّة والمفاتيح الصدئة.

كرد، عرب، عجم، صوماليّون، أوروبيّون شرقيّون، هنود، باكستانيّون، جميعهم أعناق تتخذ لها حيّزاً في هواء عاصمة من أهم عواصم العالم. عجائز تعبُّ من ثيابهنّ روائح البخور، وأطفال مرافقون، جلسوا في المقاهي المطلّة على الشارع. كرأس خشبية تناولت قبل قدومها حبوب ارتفاع ضغط الدم والسكري، شعر مصبوغ بالأسود الكثيف، وأسنان مستعارة ونظّارات

دُبل. وأحاديث تدور حول سهرات الليل ومفعول حبوب (الفياجرا) المنقذة للرجولة الفالتة من عقالها. لفت انتباه الشقراء حديث رجلين يسعلان، قال الأصغر:

-في بلدنا الدولة تحافظ على سراويلنا، فأعطت أوامرها لوزارة الصحة أن تصرف (الفياجرا) بالمجّان كما تصرف (الباندول).

- جموح عربي ترك ساحات الوغى وتفوّق على وهمه وتركة الطائرات والصواريخ تفتّت لحم الأطفال، وصار يناقش فاعلية الفياجرا.

- سألت السمراء؛ هل سمعتِ ردّ العجوز؟

-نعم، يريد أن تُشاد في الساحات تماثيل لمبتكر الفياجرا.

- احتسى قهوته واستند على عصاه متابعاً:

- تخيّل يا بوفهد نصحو من النوم فنلقى التماثيل كلّها منتصبة ذكورتها.

- أجابه صاحبه بضحكة عالية:

- لا، والحمام ذرق عليها.

- انفعلت السمراء، وفلت من فمها كلام بغير إرادة منها:

- هي لا تستحق غير الذروق.

انزوت خلف صاحبتها، مشتا مسرعتين تسترجعان بعض الأقوال عن الرجال والثراء، والتضحيات والخسارة.

أكّدت الشقراء قائلة :

-والكحل العربي أيضا له دوره .

اقتربتا من أسرة آسيوية، زوجان وابنتهما في الثانية من العمر، بشعر أسود ناعم، وعينين بالكاد يبرق سوادهما. لعبت الشقراء بشعر الطفلة، فبادرتها الأم بابتسامة شاكرة. رغبتا في احتساء الشاي، فدخلتا مقهى فرش كراسيه على قارعة الطريق.

ذهبت الشقراء لشراء الشاي تاركة صاحبتها محرجة من عيون الزبائن، وسمعت صوتاً صادراً من خلفها:

- بو سالم.

أجابه شخص بصوت أجش:

- نعم.

- أنا أحبّ الحصرم، وأنت تحبّه؟

-معك حق بو سالم، الحصرم يدك بس التي تقطفه قبل ما يمسه واحد غيرك (اقترب منه) :

-عندك واحد أو نجيب لك؟

- عندي نوع هندي، وطبّاخة، وتخيّل التوابل الهندية الحارة.

- . أنا عندي عربية منك وفيك أحسن، ومثقفة بعد، طالبة جامعة.

- لا خوي، عربيّة ما أريدها، راح تدخل في القواعد العربية وتقول لي: خبزَ يخبزُ خبّاز.

-إي بس الخباز والخبز مفعول به.

-هنا بكافيه ديانا ، كلّ شيء طازج.

اختلفت الأحاديث وتشعبت باختلاف لغة أصحابها ولهجاتهم، وعلى مقربة منهما كان رجلان يتبادلان الأحاديث السياسية. أحدهما نحيف جداً، أبيض البشرة، شعره مائل إلى اللون الكستنائي، وعيناه عسليتان واسعتان.

الآخر أجعد الشعر، أكرش حنطي، يتصفح العناوين الرئيسية في جريدة. وضع الجريدة جانباً وراح يسأل صاحبه:

- فاضل، هل تريد شيئاً مع القهوة؟

- بس قهوة من فضلك.

- ألا تريد فطيرة محشوة بالتفاح؟ (وغمز له مشيراً للحلوتين) الفطائر حلوة وشهية اليوم.

- وهو كذلك يا طالب، فطيرة بالتفاح .ومشّط شعره المتجعّد بإصبعه.

جلست الشقراء تسترق السمع، وتطيل النظر بحثاً عن فريسة، مزهوّة بجمالها الذي لفت انتباه الجميع، بينما السمراء مدّت رقبتها لقراءة العنوان الرئيسي في الجريدة بيد طالب،(اكتشاف مقبرة جماعية جديدة) .

أغمضت عينيها، وفي صدرها صراخ كصراخ وليد، وهذيان غاضب كهذيانه، وعلّقت قائلة:

- في كلّ شبر قصّابون يكتبون بحبر البَلَه، وفي كلّ نشيد صباحي تأريخ عفن.

– لكزتها صاحبتها:

– خير إن شا الله، صرنا مثل وليد مجانين؟

– انتبهت إلى كوب الشاي وجدته بارداً، وصحن الفطيرتين فارغا:

– هنيئاً، وبألف عافية.

ـ إي شنو أسوّي، أنت تهذين بمثاليّاتك ومعدتي تهذي من الجوع، سكّتها بالفطيرتين.

– الجماعة غاروا منّا، فاشتروا فطائر بالتفاح.

– يا غبيّة، هذا غزل على الطريقة العراقية.

ـ يبدو أنهما مثقفان، فقد تحدّثا في أمور ثقافية وسياسية.

ـ حبيبتي، الرجل العراقي مِن يريد يفرد عضلاته يحكي في الثقافة، ومن يريد يغازل تقرقر بطنه.لا أحد يسأل عن البسمة التي تعصر الروح ، لا عَرَق في جلد الرجال ليعرقوا خجلاً، (صمتت برهة):

– أكملي حديثك، هل ترغبين بشيء خاص بك ؟

. أرغب أن أنام على حصير مفروش على حافة النهر لأشعر باشتهاء وليد، وأن أجلس القرفصاء تحت جذع نخلة، وأدخل بيتهم وأجد أمّه خبّأت عشاءه في

المطبخ وغطته بصينيّة معدنيّة، أدخل خلسة أكتشف مكان (الكليجة) المخبأة للعيد، وأشترى ربع عرَق؛ وأسكر على السطح، وأقرأ ديوان محمود درويش: (لماذا تركت الحصان وحيداً).

ـ ذبحتِنا بمحمود درويش ووليد وأشعاره، و أدونيس.

ـ أعشقهما كعشقي لوليد، اسمعي ماذا يقول، سمعته وهو يرسمنا يردّد:

أغلقوا المشهد وانتصروا

عبروا أمسنا كلّه

غيّروا جرس الوقت وانتصروا .

هذا الشاعر خلق للزمن العربي كلّه.

تساءل طالبٌ وهو يتصفح الجريدة :

– وين كانت أمريكا عن المقابر الجماعية؟ معقول ما تدري عيني؟. والله غمضت عنها مثل ما غمضت عن حلبچة والأنفال وانتفاضة الجنوب.

بادره بالردّ فاضل :

– عينـي، هم أفاعي وأكلت بعضـها. كش ملـك، حط ملك جديد، عساهم نارهم تاكل حطبهم.

. أخ لوما الشعب أكل خرا، لكن ما يخالف احنا نرجعه لحلوقهم هالزمرة الطاغية وأتباعها.

قالت الشقراء:

– علينا أن نسرع يا سمرائي، الحديث صار خرائي، وشكلهم مفلسين.

عبر الشارع باتجاه المقهى رجل حيّوه من بعيد باسم طـاهر، بـدا كمـن امـتلأ قلبـه بمعانـاة جديـدة، سـحب كرسـياً وجلـس قـرب فاضـل، ثـم حدّثـه بطريقـة إيّـاك اعني واسمعي يا جارة :

. هذا الجمر كلّه يمّك ووجهك أصفر؟

رغبت الشقراء في المغازلة، أعطت فرصة "لطـاهر" أن يتحدث:

. ما اسم الحلوتين.

. لا نعرف (بصوت واحد).

. أهذه سياسة؟ (وردّ على سؤاله بنفسه) :

– ولمَ لا، فالسياسة صارت تشريب .

مدّ بوزه وفتح منخاره مستنشقاً عطر الشقراء، تأوّه كمن يلح عليه جرح قديم :

- لا تحتاري سيّدتي، شمس وفجر، ما رأيكما بهذين الاسمين ؟ (وواصل) جميلتي:

- الاسم غير مهم، المهم هو الفعل. أنت شمس، والسمراء فجر، اتفقنا؟ حبوبتي السمراء أنت تسوين مليون مونيكا، ولو شايفك (بوش) ما دخل بغداد.

سحب فاضل قدمه العالقة تحت الكرسي:

- يو.. لعد فلوس نفط العراق وين راحت، على القوّادين والقصور والمونيكات، وهات أبصم بالعشرة.

ترك طالب الجريدة التي قلبها على الصفحة الثقافية، وشارك صاحبيه قائلاً:

-لا تستهينوا بالنساء، دساتير وحياة بأكملها أعيدت صياغتها بسبب النساء.

- رعش بدن السمراء لصورة نساء عراقيات أمام أكداس من العظام، شبكت يديها بتوتر، وطلبت من صديقتها الخروج.

ودعتا رفقة المقهى، وذابتا في ظهيرة الوقت. لعبت الريح بثوب شمس، تلصّص أشيب على ساقيها، كما لم تنس الأخرى فمرّت بشعرها وعبثت بغرّتها.

. هل ترغبين في الاستمرار بجولتنا يا فجر؟

. ها هي الحافلة وصلت أريد العودة.

صعدتا إلى الطابق الثاني، وجدتا الكرسي الأمامي فارغاً، فجلستا باتجاه الزجاج. سألت الشقراء:

– لماذا الصمت؟

– أحاول أن أصرّف لغوياً اسم أمريكا، مثلاً كلمة كرّ، تعني رجع الفارس إلى شوط القتال، فهو كرّار. ثم أم، اعتبرت نفسها أم العالم. ولو صرّفنا كلمة (نيويورك) فالمصيبة واقعة بلا جدال، فهي من تحت الخصر، مثلاً في تقديم الحروف وتأخيرها يصبح الاسم ورك، ومن الورك تتشعب أمريكا كلّها هل أكمل؟

– كفاك يا فجر، ألم أقل إنّ العهر أصل الأشياء؟

حال وصولهما شقة" صابر"، وجدتاه منتظراً وجائعاً، فرحّب بوصولهما:

- جئتما في الوقت المناسب، أنا جائع، خذي هذا الرقم واطلبي ما يروق لك من مطعم (السلطان) يا شقرائي.

التفتت إليه؛ اسمي شمس، وصاحبتي فجر.

- أخيراً، أخيراً.. عرفت الاسمين وإن شاء الله حقيقيين.

أجابتا : غير مهم، كلّ شيء في عالمكم غير حقيقي.

فصـــــل

عودة السماء إلى أهلها

أوراق الحرب
تلعب بذكاء
لا لزوم للتسرّع
أيها الحلم الأصفر ..
أنا طريقٌ تصغي في صمت الليل
إلى خطأ الذكريات

" طاغور"

***

منـذ تلـك الليلـة التـي رجـع فيهـا وليـد إلـى البيـت متأفّفاً، يـدخّن سيجارة إثـر سيجارة، ثـم يرمـي أعقـاب السـجائر علـى الأرض، يفـتح الشـبّاك ويقـف طـويلاً، يتصـرّف كطفـل مجنـون فـي وسـط الصـالة، ورغبـةٌ مرسومة علـى وجهها لمعرفـة نـوع الهديـة التـي تركهـا على الأريكة حال عودته من لقاء صديق عربي وطلب لقاءه في مكان يختاره قريباً من مسكنه.

أصابها هوس معرفة ما بداخل علبة مغلّفة بغلاف فضي، كردّ لصداقة قديمة وبعمق تلك الصداقة راح وليد يفتح العلبة بمودّة ، أحسّت بطعنة في صدرها لدى رؤية الخنجر، رغم جماله لكنّه متنكّر بزيّ الموت المرصّع بحجرين كبيرين من الفيروز، ساعتها هزّ "وليد" رأسه ورماه على الأريكة قائلاً:

- ابن الكلب ألم يجد غير الخنجر كذكرى أو عربون لصداقتنا القديمة، كنت أفضّل حفنة من تمر، أو قليلاً من تراب، هما أثمن عندي من خنجره الفضّي.

وقتها رغبت أن تنزع أيّامها وترمي بثوبها الأحمر عليه لتبلّه بالحقيقة الظامئة، لكنّه وقف في مكانه المعتاد، وبحرارة من شقّ جرحه بسكين حادة غمس فرشاته في اللون الأحمر، وراح يثنّي ثوبها .

وجدته يرسم بالمقلوب ويردّد عربدة اعتادت عليها، لكنّ ما حيّرها اختياره لثوبها تلك الليلة دون الشقراء، وكلّما وضع لمسة من لمساته تناثر هذيانه في أرجاء المكان:

- برج الثور، يرفع فخذيه قبل أن ينطح، أمّا برج العقرب فيمتص ما علق بالأرض من دم، بينما برج الميزان يزن الجرح بالجرح ، ليأتي دور برج الدلو ويمارس لعبته في سقي الأوجاع بحثاً عن موتى في البيوت العاقر .

كان يتوجب عليها النظر في التلفاز بعينين وقلبين وعقلين، لتستوعب ما يحدث.تمنت لو لم يرسم لها "وليد" عيوناً كي لا ترى التلفاز ينقل حالات النهب، مستشفيات بأكملها تُسرق، امتزج العرق بالدم، والناهبون يتنقلون في المتحف العراقي بكلّ حرية.

تمنّت أن تقطع يدها وتضعها بدل يد" وليد "المبتورة، وأن تخنق من ساهم ببترها، معتقدة أنّ الوقت قد حان لاستخدام يديه لمحو ورسم ما تجاهله البؤس.

– أما كان بوسع المنسحبين الاحتفاظ بقليل من الشرف؟

كرّر سؤاله وكررته معه في قلبها وعقلها، وهو يصيح:

– ليت يدي تطاوعني وليت الوقت المقلوب يعتدل، أهذا انتقام الأهوار لعطشها؟ أم انتقام خياشيم الأسماك المخنوقة؟

الدكاكين، البيوت، القبور، الذين ذهبوا ولم يرجعوا؟ لا أريد انتقامك أيّتها اليد المبتورة، كنت أرغب أن تحصدي من قطعوك فقط، لا أن يؤخذ الشعب بجريرة الملك.

لكن لا.. لكلّ ثورة بركان ولكلّ بركان نار، ومن النار تعود السماء إلى أهلها، ولكي تعود إلى أهلها لا بدّ من ثمن.

علينا أن نستعدّ منذ الليلة، ولن نبقى عائمين بعد الآن، والشاطر من يغتنم الفرصة، وإن جاءت من يد عدو، المهم كيف نكمل الصورة. لقد انقلبت الكراسي على قفاها، وبانت عوراتها المخصيّة.

راح إلى ألوانه، وجلس يلعب بفرشاة صغيرة، يلفّها حول دائرة وهميّة، غمسها في اللون أكثر من ثلاثين مرة، ومسحها. استخرج علبة مبيد للحشرات، ورش الغرفة. دنا من لوحته كأنّه في حالة تقبيل:

-خيرٌ لي أن أكلّمكما، أحقّاً أيّها الرسم المشلول، أحقّاً جاءتك العاصفة؟ أم مازلت مجرّد علبة صابون تخاف الماء وتخاف المطر؟

سمع صوتاً يناديه:

- لا تشك بالأسئلة.

فتح ذراعه مذعوراً:

- جلجامش لم يصادق أسئلته، لذا سرقته الحيّة.

هزّ رأسه :

-ما بك يا "وليد"، هل أصابك هوس أم مسّ من الجنون؟. لماذا كلّما ضاقت بك الأرض كلمت نفسك ؟ قلبك بحيرة فاغتنمه ولا تيأس. تمنّت أن تشتعل بحرائقه، تدخل الحمّام معه، تفتح الدش على آخره. جسدان تحرقهما الرغبة، هبط عليها سحر حلمها فشعرت به يلف شعرها المبلّل على خصره ويعصرها بين ذراعيه، لم يفصل بينهما غير النبض. أثارته خصلة متمرّدة من شعرها، مسكها بيده وداعب بها نهديها. وحين صحت وجدت فرشاته بلونها الأسود تفصل بينها وبين رغبته في تحويل الحلم إلى قرار.

إنّها اللوحة الأخيرةِ ويكتمل المعرض، رقمكِ (ثلاثة وخمسون)، أنتِ إله قلبي وأنا طفلك، ستعودين لي وبك أخترق حاجز الإعاقة. يد واحدة، ليكن، فقط أكملك، أمّا تحدّى بيتهوفن الصمم في سيمفونيته التاسعة؟.

* * *

صحت الشقراء من نومها، مدّت ذراعيها على آخرهما وتثاءبت:

- أنت صاحية؟ بماذا كنت تفكّرين، بفنانكِ؟ أقسم أنّك معتوهة مثله، سوف يرتمي بأحضاني ساعة عودتنا، وسيفتح منخاره ليشمّ عطري حتى يختنق به ويتركك ضائعة في حبّك العاجز. أنا أكرهه وأحقد عليه وعلى أصباغه، إنّه نصف رجل لا تنسيْ ذلك.

- العجز لا يعوق الرجال، وهو رجل مبدع، مثل غويا؛ الفنان الذي هرم وضعفت عيناه، كان يسمع حفيف الفرشاة وهي تحتك بسطح اللوحة، ومن بصيص صغير كان يرسم. من يدري، ربّما سيتحدث التاريخ عن وليد، ألم تسمعيه وهو يردّد مقولة بيكاسو (يجب

أن تُفقأ عين الفنان، ليرى من بصيرته) ليس من السهل أن يغيّر المرء قناعاته.

كان الأمر بالنسبة إليها بمثابة باب موصد، لكنّها رغم ذلك فرحة لأنّها تتحدّث عنه كثيراً، كانت تسمع حتى قرقرة بطنه وهو يكمل رسم وجهها وتنفعل معه حين ينفعل، وتفرح وقت فرحه وتحزن لحزنه.

حين احتدّ النقاش بينهما سمعتا طرق باب الغرفة:

- هيا، كونا جاهزتين، إنّها الثامنة مساء ولدينا نزهة من العمر.

- فتحت "فجر" دولاب ملابسها، وجدت فستانها الأحمر معلقاً، شمّته ومرّرت يدها عليه. سحبتها شمس بقوة:

– كفي عن رائحة مجنونك (ومازحتها) أنت مجنونة من نوعٍ آخر، هل سال لعاب نصفك الأسفل؟

– أنتِ وقحة، وقحة لا تعرف الحب. تعالي، هل أنت راضية عن اسمك؟

– لقد سألتني مراراً السؤال نفسه، وأردّ عليك بالجواب نفسه:

– نعم راضية، أحسن من لا شيء، المعتوه خاصتك لم يعرّفنا باسم.

انضمّ إليهما صابر بصوته العالي، وبمزحته الماجنة والفاضحة ما بين السراويل. ولمّا شاهد فجراً متذمّرة، مسكها من كتفها قائلاً :

– إنّها المفتاح لباب الثراء. ثم جلس على سرير الشقراء: ماذا لو حكيت لكما عن حادثة المطعم؟ هل ترغبين بذلك يا سمرائي؟

. قل لي فجر، ألم نقل أصبح لنا اسمان.. ثم إذا كان الحديث عن فخذيك فلا أريده.

– أخذ شمساً بين يديه، قبّلها قبلة طويلة، وعضّ شفتها السفلى.. فلتت من بين يديه هائجة :

– يا ابن الكلب، أوجعتني بوحشيتك.

راحت تنظر إليه بعينين غاضبتين، وتكمل ارتداء ملابسها.

بادرته فجر بسؤال حيّرها :

– لماذا سمّاك أهلك صابراً، وأنت عجول طيّب وحقير، ودود وحاقد، تحمل بداخلك عدداً من المتناقضات؟

شابت وجهه حمرة، وشعر بانقباض في صدره، لكنّه قرّر التظاهر باللامبالاة:

- يولد الطفل وهو لا يعرف إن كان أبواه صالحين أم جزّارين، وأبي من الصنف الثاني، من الذين يكسرون الكؤوس والأباريق على رؤوس أطفالهم. في السنة الأولي وأنا رضيع في حضن أمي، شجّ رأسي (رفع شعره ليريهما الأثر) أبٌ لا نعرف سرّه، يغيب بالأيام والأسابيع لا نعرف وجهته وماذا يملك. كلّما عاد إلى البيت بعد غياب، عربد وشتم وأمر ونهى، وما على أمّي غير السمع والطاعة. يتيمة زوّجها عمّها من ابنه ليصل الرحم ويحافظ عليها بعد موته، وهو لا يدري أنّه وهبها إلى أكبر شرير. وللأسف الشديد، مات عمّها بعد زواجها من أبي بثلاثة أشهر، وتركها بين مخالب زوج لا يحبّها.

سمعت أمّي من إحدى الجارات أنّ له حبيبة في بيروت، ونحن نعيش في جنوبي لبنان، وجدّي أرغمه على زواج لم يرضَه. فأبي كان وسيماً وجميل الملامح، وكان جمال أمّي أقلّ من العادي ولم تكن من

حاملات الشهادات لتعمل وتنفق على نفسها. أخذها عمّها بعد وفاة والديها في الحرب الأهلية اللبنانية، وربّاها وهي ابنة ثلاث سنوات.

كان بائع خضار، لديه سبعة أطفال، خمسة ذكور وبنتان. وزّع كلّ صبي في شارع، ليجد له مهنة، سبّاك، قهوجي، خيّاط وما شابه ذلك.

أربعة من أولاده استمرّوا في ذلك، إلا البكر تمرّد على الشارع والعمل مع أبيه، واتّخذ وسيلته في العيش واختيار قراراته.

كان يأتي آخر النهار بجيوب ممتلئة، ويضع المال أمام والديه. لا يعلمان من أين جاء بالمال، ويشكّان في مصدره، ولذا قرّر جدّي تزويجه حين بلغ العشرين، متوقّعاً أنّه سيعقل ويعرف قيمة الأسرة حين يرزق بطفل. وكانت أمّي الضحيّة، خصوصاً أنّه قرّر الانفصال عن بيت أبيه، واختار لها داراً بعيدة عن دار أهله. فعاشت وحدها في أيام غيبته، صبيّة في الرابعة عشرة بين جدران ووحدة، حتى رزقها الله بي.

لطالما سمعتها تشكر الله على هذه النعمة، فقد وهبها من يؤنس وحدتها ويعوّض أيّامها الخاسرة. لم أتذكر يوماً أنّه قبّلني أو ضمني إلى صدره، ولم أسمع منه إلا مقولة واحدة:

-يا ابن اللحظة الخطأ .

كان المصروف الذي يتركه يكفي لعيش كفاف، ربّما كان ينتقم من أبيه بنا. وفي ذات يوم غاب، ولم يعد.

عشت مع أمّي، تسحقنا الأقدار، حتى حقدتُ على الآباء الذين كنت أراهم يعبرون الشوارع ممسكين بأيدي أولادهم، وحقدتُ على ملح الدمع.

لم أملك جسدي كطفل، وقرّرت أن أركن الطفولة جانباً وأعول أمّي وأتكفّل بنفسي. فعملت عند صاحب كراج لتصليح السيارات، وافق على إيوائي فور أن شاهدني. علّمني كيف يصبغ الزيت بنطلوني الوحيد، وكيف تتقرّح أصابعي من تلميع السيارات . كما عوّدني أن يترك سائله المنوي يسح على مؤخرتي. تحمّلت إيقاع حياة أقسى من الحياة مع أبي، فقط لتأكل أمّي.

كم تمنيت أن يعود إلى البيت ويشبعني ضرباً، كلّما دافعت عن أمي، وأن يمسح السائل المنوي عن خسارتي. ثم قرّرت تركه بحثاً عن عمل آخر، غير أنّ مرض أمّي المفاجئ جعلني أنسى طفولتي وأتركها تحت حصار رجل شاذ. بقيت سنتين حتى هبّت الرياح العاتية، وقت عودتي من العمل وجدت أمّي جثة هامدة.

ضاقت بي السُبل، طفل لا يملك مالاً يكفي لدفن والدته، وتركت رحمة الجيران تقوم بدورها، فدُفنت أمّي بتبرّع الجميع. يومها تكسّر الزمان على ظهري، ولم أرغب في البقاء بالدار. دفعت لصاحبها قسطاً متبقياً علي، وتركت قدمي للطرقات.

لطالما تحدثت مع الشارع كرجل لرجل، أسأله من أنت؟ فيجيبني : – أسكت أيّها الناقص.

وكان التصعلك أرحم من رجلين، واحد سرق طفولتي، والآخر استعبدني وحقد على اليوم الوحيد الذي نام به مع أمّي.

دخلت بيوت دعارة، نمت مع قوّادين، مارست كلّ الطرق غير الشرعية في تحصيل المال، وفي أيّ طريق أمشيه أحقد أكثر.

لم ترغب بسماع المزيد من الحزن، نهضت لتمشط شعرها الأسود، رفعته ولفّته على شكل كعكة من الخلف.

ناداها:

- اتركيه على سجيته، أكثر ما يثير الرجل في المرأة جنونها، من شعرها إلى الفراش، وشعرك الأسود المجنون جنّني.

استدارت إليه وتركت شعرها على وضعيته:

- هل تنتقم من الأثرياء، أم تمتصّهم كما امتصّ الشارع ؟

- أغلبهم سيّدتي مجرد أجساد ترتدي أكاذيبها، تشتري لعريها من أغلى الماركات العالمية، غالٍ من أجل الرخيص، وكلّما رخص الجسد غلا الثوب. هم سماسرة حكومات، عبيد كراسي، وأنا أستعبدهم بتعفّفهم المصطنع.

أمّـا تخفـيّهم تحـت عبـاءة الـدين والحـلال والحـرام وعشرة آلاف يجوز ومائـة ألف لا يجوز يجوّزونـه من أجل متعتهم، فهم لصوصية حتّى على الدين والفنـادق الفخمة.

إيه.. سأنتظركما في الصالة، ريثما تكملان زينتكما.

ـ لمَ أنتِ حزينة يا فجر؟ سألت شمس.

ـ هل لكلّ الزنـاة قصص وأساليب جعلتهم يطرقون أبواب الخطأ؟

أجابتهـا شـمس، وقـد ارتـدت ثلاثــة خـواتم متقاربــة الألوان، وقميصاً أزرق اللون، وتدلّت من عنقها قلادة ذات فصّ أزرق:

-لكلّ الخطايا أسباب تكتشف من خلالها الحياة، وإن تغيّرت الأسماء والأمكنة، تعدّدت الأسباب والزنى واحد.

اختلطت الأحاديث بين الجد والمزاح، وصابر يمرّ بهما في شوارع لندن قاصداً مكانـاً معينـاً. وبينما كـان الكـلام ثنائيـاً بـين صـابر وشـمس، كانـت فجـر مغلّقـة بصـمتها، وخدشـت سـمعها نكتـة فاضـحة، فانبعـث صوتها مبحوحاً، حاولت تغيير مجرى الحديث بسؤال:

- صابر، لمْ تعرّفنا على جيرانك، لماذا لم تشركهم معنا في سهرتنا؟

- في الغرب لا توجد مساحة كبيرة للعلاقات، ونحن سكارى ثقال، إذا لم تجد لك حاجة لدى أحد فانسَهُ. هنا كلٌ صاحب نفسه وجار نفسه، والسكر فاكهة الولائم؛ أحمد الله أنّي لا أملك شهامة لتحترق في الطرقات. سأركن السيارة هنا، ونأخذها سيرا على الأقدام، أريد أن أريكما منطقة (سوهو) شارع الشبق البشري، أقسم لكما بحياة من نجا من فخ الأفخاذ، الرواية الوحيدة التي قرأتها هي (الضياع في سوهو) لكولن ولسن.

رجعوا إلى السيارة بعد مرور عابر في سوهو، بسبب موعد لم يفصح صابر عنه، وكان بين اللحظة والأخرى ينظر في وجه السمراء من مرآته، ويدور سؤال في خلده، عرفت أنّ لديه ما يريد قوله، واستوضحت منه :

– هيا، هاتِ ما بحوزتك، ألديك سؤال؟

. نعم، ما يحيّرني جمعك بين الثقافة والتعرّي.

أجابته متبرّمة:

- افتراضك بأنّي مومس في محلّه، وأنا مومس بغير إرادتي، ولكن جئت مع رفيقتي بإرادتي رغبةً في التعرّف على دنياكم، وأن أرى الحياة وجهاً لوجه.

- وهل عرفتها؟

- نعم وعرفت لماذا انزوى وليد كي لا يبلّله ماؤكم العكر.

- إنها سنّة الحياة، ومَن ذلك المبجّل الذي منحك صفة المومس؟ وهل مازلت عبد اختياره؟ حتى الروح عزيزتي عبدة لجسدها، كلاهما عبد للآخر، وكلاهما سجين للآخر.

فتحت الشقراء عينيها الواسعتين مستغربة:

- الله الله، صابر اليوم فيلسوف.

- ولمَ الاستغراب، أنا حقاً فيلسوف، أحياناً الحشرة تفلسف قرصتها هكذا (وقرصها في فخذها).

- رفعت يده بقوّة، وقرصته في كفّه :

- أيّها الوقح ألم تتكاشف ونفسك في المرآة مرة؟

- لستُ بحاجة لذلك فأنا قوّاد علناً لا أملك وجهين.

- هل ستأخذنا لمطعم؟ أقصد نحن مدعوون للعشاء؟

- أجابها بتلكؤ؛ نحن.. نحن.. نحن.. مـ.

- نحن ماذا؟ وأين ستأخذنا؟.

- طلب منها الهدوء؛ الحياة خُذ وهات، وموهبتك يا ساحرة الرجال في إطفاء نارهم.

- وأين سنذهب؟

- في دار محفوظ السلامة؟ (سألته السمراء).

- بل رجل آخر (وأقسم أنه شريف وصاحب أسرة، ويجب أن يتمّ ذلك بسرّية).

- هل لي أن أعرف عنه شيئاً؟

- إنه هادئ الطباع وخفيف الظّل، كما لم يكن زير نساء. إنه يختار من تدخل قلبه ومن يشعر بهواها يأخذ عرشا في صدره.

- هذا احتيال على الحب، هل أحبّني؟

- تصوّريها كما تشائين، وصدّقيني لو لم يقع في حبّك لما طلب مني.

لم يعجب السمراء التطاول على الحب، فردّت عليه:

- كيف يكون الحبّ في خدمة الساقطين؟ وأين سأذهب أنا؟

- سنتعشى أنا وأنت، ثم نرجع إلى شقتي.

- لا أرغب بالعشاء، عُد إلى البيت مباشرة.

- وهذا أفضل، كما تشائين.

في الطريق شبّت نار قلبها، بعد أن أوصلوا الشقراء إلى شقة لا تعرف رقمها، في شارع عرفت اسمه من خلال لافتة مكتوب عليها اسم (بيكر ستريت).

حيثما تسقط عيناها على مكان، تجده فيه، إنه مختبئ تحت جفنيها، يطرق رئتيها فتشعر به يتخلل أنفاسها.

قرّر صابر اختراق صمتها:

- تملكين عينين كعيني أمّي.

- يعني تجد فيّ أمّك، وهذا يطمئن.

وقت وصولها شقة صابر، أسرعت إلى الغرفة وأغلقت الباب، بينما صابر أعدّ كأساً من الويسكي ووضع أمامه صحناً فيه القليل من الجبن الأبيض والزيتون. ارتدت قميص نوم أحمرَ بتول أسود،

وتمدّدت على السرير. وجدت نفسها محاصـرة بسكنات وحركات وليد، وأحاديث الأثرياء السمجة. تعجّبـت مـن عـدم مللهـم مـن مناقشـات وأحاديـث متكـرّرة حـول أسـماء السـيارات وأنـواع الهواتـف النقالـة وماركـات الساعات الذهبيّة والماسيّة. استرجعت ذاكرة المعرض الوطـني وعشرات الصور، للحروب والملوك والنسـاء، وتمنّـت أن تجـد صـورة لمدينـة الناصـرية، رجعت إلـى صـالة "وليـد" ووقفتـه الطويلـة أمـام صـورة ملكـة سومريـة.

لطالمـا تمعّنـت مـن الصـورة "شـبعاد"، هـذه الصـورة التي كانت جواز سفره عبر الأمـاكن والطرقات ولصقها على صدره، رفض أن يراها شرطة مطار هيثرو، كي لا يتركوها تطلب اللجوء معه. فـي الغربـة نـال جـواز سفر بريطانياً، وبقيت لصيقة صدره ، له وحده.

نهضت من الفراش و حدّثت نفسها في المرآة:

- يـا عابسـة الوجـه، لا أحـد يتحـدّث معـك أو يصـل إليك.

دخل عليها صابر ثملاً:

- أنـا مـن سيتحدث معك ويصلك (داعب رقبتهـا) هـا أنت تجدين مَن يثيرك.

- لا تثيرني الكلاب.

ضربها على وجهها:

- أتنعتيننـي بالكلـب؟ طـُهرك المصطنع لا يعبـر علـى صابر الذي بيده مفاتيح النساء.

جرّهـا بقـوة وأمطرهـا قـُبُلاً، ثـم طرحهـا علـى السـرير، وكفرس عنيـد صـعب التـرويض أفلتـت مـن بـين يديـه. لحقها إلى الصالة حين هربت:

-لن تنالي جائزة نوبل للطهر.

ولحظة حاصرها بين الحائط وصـــدره الضخم، ضربته بالمزهرية على رأسه، وهرعت ترتدي ملابسها. خرجت مسـرعة، ثـم تـذكرت حقيبـة يـدها حيـث وضـعت فيهـا نقوداً أخذتها من شمس، وضعت الحقيبة على كتفها، وخرجـت مسـرعة، لـم يخفهـا دمـه الـذي سـال علـى وجهه، كان همّها الإفلات من قبضته.

مشت نصف ساعة تاركة جسدها وروحها للتيـه، لا تعـرف أيّ اتجـاه تقصـد. وقفـت تسـتطلع الحـافلات،

وحين وقفت الحافلة رقم (7) صعدت، وجدت كرسياً فارغاً قرب امرأة سمراء ذات شعر قصير ونظارة طبّية، جلست قربها، لم تعرف ما إذا كانت الحافلة ذاهبة أم راجعة. فتحت حقيبة يدها واخرجت منديلاً مسحت به عينيها الدامعتين، بادرتها المرأة قائلة:

- الحياة يا ابنتي غالية وقصيرة، لا نضيّعها بالدموع.

- معك حق يا خالة، إنّ أيامي معدودات.

ردّت عليها مبتسمة:

- وغداً يومك الخامس.

لم تنتبه لكلامها، كانت مشغولة بكيفية قضاء الليلة وغربتها. وقفت الحافلة، صعد ركاب ونزل مثلهم، وجدت المرأة تسألها:

- لا تملكين مكانا تذهبين إليه أليس كذلك؟

- وكيف عرفتِ يا خالة؟

- أعرف.. ها قد وصلنا إلى (كوينزوي)؛ وبيتي قريب، وأعتقد أنك تفضلين المبيت مع امرأة لا مع رجل يعتدي عليك.

- بالله عليك يا خالة هل أنت ساحرة، كيف تعرفين أشياء عني؟

- لا عليك.

وقدّمت نفسها إليها:

- اسمي" راوية".

قاطعتها السمراء :

- لا تسألين عن اسمي، لأن اسمي مستعار ولا أعرف لي اسماً حقيقيّاً.

- أعرف يا ابنتي، كما أعرف أن لا اسم لرفيقتك التي تنام مع رجل، يحبّ أن يتعرّى أمام غانية تجلده بالسوط وتضربه بعنف حتى يشعر بلذّة الفراش..

- لكنها لم ترجع بعد، كيف عرفت أنّها مع خنزير بهيئة رجل؟

- وأعرف متى ستعودان لوليد.

- أنت صديقة وليد إذاً.. لا بل أنت شبعاد، نعم إنك تشبهينها.

- لا لستُ هي بل إحدى بناتها. هيا انزلي، لقد وصلنا.

نزلت مع السيدة فرحة بالصدفة الجميلة، مشت قربها كطائر مثقل الجناحين، جاهدت لكي تسأل، لكن السيدة قاطعتها:

- أعرف ما يدور بخلدك، وكلّ ما تحملينه من أفكار كتبتُه مسبقاً، كما أنّي مَن خلط الألوان. تفضّلي.

أدارت مفتاح باب الشقة.. إنّها شقة متواضعة لكنها تجمع صمت حقائبي وحقائب أصدقائي.

توزّعت نظراتها بين جدران الشقة الضيقة والأريكة البسيطة، ثم اقتربت من مكتبة صغيرة رُصفت فيها كتب ومجلات عربية، طاولة صغيرة تتوسط الصالة وضعت عليها جريدة اليوم، وفنجان قهوة جفّت بقاياها.

حالما دخلت السيدة غرفتها، فتحت النافذة لتبديل هواء الغرفة، كان الشبّاك يطلّ على الشارع العام، فرأت المطاعم العربية والصينية لم تُغلق بعد. تذكرت أنّها لم تسأل رفيقتها في ما إذا كانت جائعة، وخرجت تحمل بيدها ملاءة ووسادة:

- هنا ستنامين، فأنا لا أملك غير هذه الأريكة، حين نفتحها ستصبح سريراً.

ثم استدارت:

- لا بدّ أنّك جائعة.

- لا سيّدتي، لست جائعة، وشكراً على كرمك.

- إذاً كوب شاي مع فطيرة.

دخلت إلى المطبخ المفتوح على الصالون:

- يا ابنتي، ما يؤلمك هو عشقك لرجل لا يحبّك.

- آ..هـ، أيتها الساحرة كيف عرفتِ أنّي أحبه؟ ثم ما هذا الاسم الذي ذكرتِه؟ مَن عيناء؟

- اسمك، واسم رفيقتك ذكرى كما أنّي لست بساحرة، أنا فقط أرافق أبنائي وأحاورهم.

- هل أبناؤك معكِ؟

- بل أنا كاتبة والكتابة قدري، وأنا من فعل الكاتبة الحقيقيّة. وكيفما يجيء شيطان الكتابة إليها ترسم أقدارنا على الورق، هكذا رغبتْ. وكما صنعك وليد، صنعتني هي؛ لا بل صنعتنا كلّنا،

واسمك في روايتها هكذا، والعيناء هي واسعة العين في سواد.

ابتهجت عيناء لاحتضان السيدة لها، وللألفة التي تولّدت بينهما، وشعرت ببصيص ضوء يبعدها عن خوفها من الاغتصاب. احتست الشاي على مهلها، مستأنسة بالأحاديث الجميلة، يشدّها هدوء السيدة ووقارها، وكانت "راوية" تحاور روحها من الداخل. سمعتا صوت مطر يطرق بأناة على الشبابيك، لامست الحيرة قلبها، ماذا ستقول للسيدة وكيف ستشكرها على طيبتها وحسن تعاملها معها. أمام أفكارها كان الإفصاح عن ما يدور بخلدها يشوبه الخجل، خانتها عفوية الأسئلة ولعنة نشرة الأخبار.

أغمضت السيدة عينيها، حالما فتحت التلفاز، هاربة من صور الأشلاء والدماء الملتصقة بالتراب وعلى الجدران. ثم راحتا تتابعان منظر الحزن المرسوم مسبقاً، وكمن تورّط بواقع حالك دمدمت، وعيناء تسمع وتنوح كطير مستفزّ، سمعت السيدة تتذمر:

– الحرب دمّرت العراق، الحرب ومن ساهم فيها وشارك وخطط وتخاذل، كلّهم لصوص يسرقون عنفوان العراقي. أيّة لعنة حلـّت على شعب العراق، أيّة لعنة، سُحقنا برحى قائد مجرم وحزب استخدم لصوصيّته لامتصاص دمائنا وقوت الشعب ولقمة عيشه، وها هم يمرّون دون عقاب. مجرد تغيير الكراسي، والذين قبضوا الدولارات مازالوا يضحكون على ذقونهم، ونحن نترقب ماءً من وجوه صُفر.

لم يعد ذلك الهدوء الذي رأته عيناء في وجه السيدة، يترجم وقارها، بل أصبحت كطير مشنوق من جناحيه، بدت كمن يكون بحاجة إلى أذرع تلفّ بها ضياع لحظة فلتت من زمامها. وقفت، ثم جلست جلسة مرتبك مهجور، وعادت لوقفتها ثانية. كانت تشعر باختناق، فنزعت جاكيتها المصنوع من الصوف المنسوج نسجاً ناعماً، فبدا كأنّه من الحرير، ورغم هذا يزعجها. ثم واصلت قلقها، خلعت جوربيها السوداويين، دخلت الحمّام، وغسلت وجهها بماء بارد.

عادت تلملم بعضها، وتسوّر نفسها بشيء مفقود. فوجدت عيناء قد أغلقت التلفاز، وجلست تنتظرها للخروج من توتر شاب لحظتهما. أمسكت بيد السيدة راوية:

- عليّ أن أجلب إليك عصيراً، هل في الثلاجة عصير؟

- اطمئني يا ابنتي أنا بخير، ولا بدّ أن نحصّن أنفسنا من واقع عفن، ولكن أخبريني هل سمعت أنّ الأرواح المعذّبة تتلاقى؟

- أجل، وكم أنا سعيدة بلقاء مثل هذا. فأنت تقطرين أمومة، ولطالما حلمتُ أن تكون لي أم.

- والله لم أذكر أنّي مررتُ بحلمك، كما لم تدوّنه الروائية على سطر، يبدو أنك تمرّدت علينا.

لم تكن عيناء في حالة خسارة، فبتعرّفها على راوية ملكت خيطاً من الحياة المفقودة، وسيكون لها من يسمعها أو يقودها باتجاه أسئلتها، ويردّ ولو على بعض جوانب التساؤل؛ لماذا اختير لها أن تكون مومساً بثوب عذريّة؟ ولماذا تركوها لرجل بيد واحدة؟ واللوحة الثالثة والخمسون، أهي اكتمال معرضه أم

خسرانه؟ مَن دفعها باتجاه الحب، هذه السيدة أم وليد، أم الروائيّة الحقيقية؟ ولماذا تلعب الكاتبة بمصائرنا وتضعنا في مكان لسنا في حاجته، ثم تنقلنا إلى مكان آخر؟ أنحن مخيّرون أم مسيّرون؟ ومن أعطاها الحق بذلك؟ وذكرى، أهي شمس أم ذكرى؟ حتى أسماءنا لا خيار لنا فيها، مَن نحن إذاً؟ وصابر الرجل الرخام هل مات أم أفاق من الصدمة؟

في بيت صابر كان يعذّبها الصدق والشرف، وفي بيت وليد عذبها الحب وعذريتها والغيرة، في بيت الأثرياء لم تجد مكاناً لها. أسئلة كثيرة تصدّعها، بينما راوية تراقبها وتعرف سرّ اضطرابها، تعرف أنّ لعيناء رغبةً في البقاء معها كلّ أيامها الباقية وستعطيها الفرصة لتعلن عن رغبتها، كما تعرف أن حياء عيناء يمنعها.

لفرط قلق عيناء، راحت تنقر بأظافر يدها على طاولة خشبية قرب الأريكة، وعيناها مسمّرتان على صورة معلّقة على الجدار. ولمعرفة تفاصيل أكثر عن صاحبتها قرّرت أن تكسر حصار الصمت:

- تبدين صبيّة في الصورة، لا بدّ أنّك كنتِ في الثلاثين؟

- بل هي قبل أربع سنوات، وفي سنتي الأربعين.

- لكن.

- أعرف ما تريدين قوله، إنّه فعل الزمن العنكبوت.

- من فضلك سيّدتي، نسمع إشاعات تقول إنّ لدى صدام ممرّات سريّة في قصوره، هل هذا صحيح؟

- أبداً، لقد دخل الأمريكان كّل قصوره، ولم يجدوا غير معالم البذخ وصوره المتسمّرة على الجدران.

- من سيكون الرئيس القادم؟

- الله أعلم والسيادة العليا، من يبصم بالعشرة ستكون له الأولوية.

- هل لي أن أسألك سؤالاً شخصياً؟

- سلي ما تشائين.

- تقولين إنّك كاتبة، هذا يعني أنّ بمقدورك العيش بوضع أفضل ممّا أنت عليه.

- الأدب، الشاطئ الوحيد الذي كلّما وصلتِ إليه أبعدكِ عنه لتبقي لاهثة وراءه، وعندما تقتربين منه يكرمك بفقره. ولأنّي أكتب بخمر القلب وألتصق بالنفس الخرساء، أرسم ملامح الرّوح، والذي يكتب بطريقتي لا يساوم. وما أقذر الساحة الثقافية، لا تتخيلين بشاعتها يا ابنتي.

- الحياة أخذ وعطاء سيّدتي.

- نعم أنا معك، لكن بكم كيلو الشرف ومن يشتري؟

- هذه جريمة، وتهمة لا تعمّم على الجميع.

- الأبشع يا ابنتي أنّ مَن يتبنّون الثقافة ويدافعون عنها هم سبب البليّة.

- عذركِ لسؤال قد أحرجك فيه: هل لديك زوج وأولاد؟ أراك تعيشين وحدك.

- كان لي زوج، ورأيته البارحة في المنام ينزع عني ثيابي الممزقة، يخيطها ثم يمزقها ثانية، بعد أن يُلبسني إياها ويمرّر يديه على جسدي كلّه، وكان لي ابن أيضاً، شجرة اقتلعت من جذورها، هل سمعت بمثلِ من خرج ولم يعُد؟

- فهمت.. فهمت.

- لقد أطلقت على العراق اسم جبّار بعد أن عرفت لماذا يكثر في بلدنا اسم كهذا، ولو لم يكن هذا الشعب جباراً لما تحمّل الجبابرة على مرّ العصور، وخاصة رئيسنا الأخير، خليط من (ستالين وهتلر وجنكيز خان) ومصاصي الدماء.

- أيحقّ لكل فرد أن يطلب رئيسه القادم؟

- اسمعي يا غاليتي، هناك مقولة لـ (ستالين)؛ (السؤال المهم؛ ليس من يحقّ له التصويت، بل من يجمع الأصوات).

- أنا شخصيا لا أثق بالسواد والذين يعتمرون العمائم السود، الأيام كفيلة بأن تريك صدق ما أخافه، والخوف الحقيقي يا ابنتي ليس ممّن يحكم ومن يأتي بعده بل من الذين يحكمون العراق باسم من ينصبوهم علينا حكّاماً، وأعداء العراق كثيرون والطامعون أكثر، وإذا عرض التلفاز عشرات المقابر الجماعية سيعرض المئات في السنين القادمة. والآن دعينا من السياسة،

ولنطمـئن علـى ذكـرى. أعتقـد أنّ لـديك رقـم هاتفهـا الجوال، قومي يا ابنتي واتصلي بها.. ولو أنها..

وقفت مرتبكة من توجّس السيدة، وقاطعتها قائلة:

- ولـو مـاذا؟. هل أصـابها مكـروه، أتعرفين مـا يجـري لها الآن؟

- كـادت راويـة أن تـردّ بالإيجـاب، لـولا أنهـا تـداركت أمرها:

- لا، لا علـم لـي بمـا يجـري. اتصـلي فقـط، كمـا أنّـي أريد الاستحمام.

- سيدة راوية ، اعرف أنّ الكتّاب يتنبئون وأخشـى أن يتحقق ما تخافينه .

جاءت فكرة الحمّام في الوقت المناسب، فدخلت تاركـة عينـاء فـي الصـالة. وحالمــا شـاهدتها تـدير قـرص التلفـون ابتسمت، وواصلت عدم اكتراثها بمـا يـدور، خاصّـة وأنّهـا كـرّرت محاولاتهـا والهـاتف لا يجيـب، ووجدت نفسها تلقي اللوم على صابر وصحبته وعلـى وليد أيضا.

حالما تراءت لها صورة ذكرى تحت رجل يضاجعها، لعنت الشيطان وتعوّذت من كلّ شيطان رجيم؛ دفعها القلق على ذكرى لإعادة الكرّة، فقامت متوترة، وكرّرت الأرقام ذاتها، صمتت لحظة، وتسمّرت في مكانها. خجلت من ما سمعته من فحيح وشخير وسباب. فقد كانت ذكرى في وضع تكره فيه من يقاطعها، ففتحت الهاتف ولم تغلقه. وظلّ صوتها يخترق عيناء وتساؤلها:

- ماذا لو سمعت السيدة؟

خرجت السيدة من الحمام تفرك شعرها المبلول بمنشفة بيضاء، وبدل أن تسألها عن ذكرى طلبت منها الخلود إلى النوم. وكعارفة بالخبايا، فتحت دولاب ملابسها، واستخرجت منه قميص نوم وقدّمته لها:

- أنت بحاجة إلى النوم.

دخلت فراشها بعد أن جدلت شعرها جديلة واحدة، وتظاهرت بنعاس مفاجئ.

كانت الغرفة بضوئها الخافت تثير النعاس، فقرّرت عيناء أن تخلّص نفسها من شوائب اليوم، وأن تترك

لأهدابها حريـة العنـاق. ورغـم فتـور أجفانهـا لاحظـت تقلـّب السيدة في الفراش، كأنّها تتقلـّب بـين سكاكين، ثمة ما يفصلهـا عن فرحها أو يبعدها عن مقصـودها، فهـي كلّمـا غمـض لهـا جفـن تحركـت متقلّبــة علـى الجانـب الآخـر، منقـادة إلـى شـيء بـداخلها يفكّكهـا ويـدمّرها، ثـم يعيـد تـرميم أوصـالها، ثـم يـدفعها ثانيـة باتجاه التدمير.

قـرّرت أن تقطـع عليهـا سلسـلة لا تربطهـا بإضـاءة غير الوهم واستنارته:

- سيّدة "راويـة"، هل تخاف السكّين؟
- ردّت عليها وعيناها مسمّرتان في السقف:
- بل أنا من أسألك كيف يصبح الحلم عدوّاً؟ وهل لـه علاقة تآمرية مع الواقع؟ ومن يكون البادئ؟

وواصلت الحديث:

- الليل يا ابنتي يصهرنا بعناد ويفتّتنا، بينمـا نحن نذوب تحت سذاجة القلب، آمالنـا كثبان رمليـة من أوّل رعشة للهواء تلاحق بعضها هاربـة من التصاقها.

في سكرة النوم والصحو أجابت عيناء:

- كم أنت جميلة ورقيقة يا خالة، تصبحين على خير.

أجابتها راوية:

- لن أكون جميلة إلا إذا عادت سمائي لي.

- ألم تعُد بعد؟

- بل عادت، ولكن مشوّشة كما لو كانت سفينة سوداء تغرق في قلوبنا.

*****

عندما سألت راوية عن سرّ الحزن الدفين في عيني (ود)؛ حين تعرّفت عليها لأوّل مرّة في حديقة (هايد بارك) ، أجابتها دون أن تكلّف نفسها عناء الكتمان. حين تحدثت كان الغضب ينقضّ عليها انقضاض الصاعقة، فردّت عليها بنبرة لا تخلو من التهكّم، ولشدّة ارتعاش الحزن التي تخنق صوتها، سحبت نفَساً عميقاً واقتربت من راوية:

– خالة لقد رضعت الحزن، بل نشأتُ معه.

وحالما رأت اهتمام راوية بمعرفة التفاصيل، والتي احتوتها بأمومة الصوت واللمسة، شعرت بأنّها تبحث عن ذاتها قرب امرأة لا تعرفها، أو قد تصل معها إلى النهر الذي تريد أن تغرف منه؛ فقط للارتواء أو الاغتسال من قذرات حوّلت أمانيها إلى فوضى، فما الذي تبوح به وما الذي تكتمه؟ أتخبرها عن قسوة وحشية جعلتها تركن إلى زاوية من زوايا الحياة؟ أنّها امرأة لها خطوات تتقارب على افتراق؟ فانطلقت تشدّ بعضها على بعض، واقتربت من السيّدة حتى كادت تلتصق بها :

- لقد أصابني الخسران، فكيف لي أن أسرد خسارتي؟

- كانت السيدة تبغي الاحتفاظ بقليل من زرقة السماء، حين كوّرت بصرها لاكتشاف زرقة تهرب من بين غيمات. ثم كفّت عن محاولتها وقت مرور ثلاث نسوة يرتدين العباءات الخليجية، اكتفت بتحرّش دمعة بعيني ود؛ وبنظرة من طفل تدفعه أمه في عربة، ظلّلت غرته الشقراء عينيه، غادرتها الطفولة خاطفة.

استرجعت جلستها الوقور على المصطبة، كان الهواء ينطوي على أجنحة الطيور والعصافير، استبعدت توتراً اعتراها، خضخضت صوتها وجعلته يختصر الكلام:

- يا ابنتي كلّنا ضحايا الخسران. هل حصل أن قاتلك قلبك، أن نهبك جسدك؟

اعتراهما صمت للحظات، ثم استطردت السيدة:

- على شمعة الظلمة تنطوي خسارتنا الشخصية؛ احكي، احكي لي.. وأريحي نفسك أنا أعرف ما بداخلك لكني أرغب أن أسمعه منك كي ترتاحين قليلا.

كانت الانفعالات كمفاتيح تطرق أبواب التذكر، تفتح بابا وتغلق آخر، تصبّب العرق من جبهة ود، رغم برودة الطقس المنعشة والهواء العابث بشعرها، كانت تنقطع وتعالج توترها بشجاعة تعيد بها ما فقدته من معانٍ وكلمات معبّرة، كما كانت تخونها شجاعتها كثيراً.

ـ زوّجني أخي وأنا في السادسة عشرة، نزولاً عند رغبة زوجته التي جاهدت للتخلّص منّي بحجة الحصار الاقتصادي على العراق وضيق اليد والعوز، ولأنّهم أسرة كبيرة مؤلفة من أخي وزوجته وستة أولاد، فالخلاص منّى أصبح أمراً لازماً.

ساعتها فقدت ذاتي وشربت مرض الأيام، بعد أن شربت اليتم. فقد مات والدي وأنا في السنة الثانية، كما أني ابنة الزوجة الثانية، وأخي من أبي هو الذي تولّي رعايتي حتى زوّجني.

في أسرتي الجديدة المكونة من زوجي البالغ أربعة وخمسين عاماً، وأخته التي تصغره بسنتين ولم تتزوج، وأمّه البدينة، عشت كما كنت في بيت أخي محاصرة بين الأوامر والتوبيخ وجهد الأعمال المنزلية، وفي الليل جهد الفراش.

جسد قتيل وروح مشنوقة، تحت ثقل رجل كلّ همّه متعته وتكبّره عليّ. لم أعرف من أيّ عجينة صُنع زوجي، كان يصنع منّي قوساً يصوبني به، فأتيه بين روح معذّبة وجسد لا مشاعر فيه. إذا سمع لي صوتاً

يخنقـه، فكيـف إذا لـم أملـك صـوتي يومـاً؟ إنّـه مجـرد هيكل آدمي، أو جرذ ذليل قرب أمه.

وذات يوم أزحت النقاب عن وجهـي، وجمعت أحبالي الصـوتية كلّهـا، وصـرخت.. صـرخت بجنـون وبشـكل هسـتيري متواصـل، امـرأة مـا تـزال قريبـة مـن سـن المراهقة، مخذولـة فـي صوتها وإنسانيتها، لذا جاءت صرختي مجنونة. لم أرَ أحداً أمامي، ولم أسمع صوتاً سـوى صـوت داخلـي. فقـدت السيطرة علـى نفسـي، كسّـرت كـلّ مـا وجدتـه أمـامي، وجـدتني علـى قارعـة الطريق بثوب النوم. سمعت أمّه تناديه:

- خُـذها إلـى أهلهـا ولا تعُـد بهـا أبـداً، طلّقهـا وأنـا أزوّجك أجمل منها وأحسن منها.

عـدت وحيـدة إلـى غرفـة صـغيرة شـحيحة المـلاءات والأغطية، ليلتها ضربني أخي، وعضّتني زوجته، حتـى تورّم جسدي وازرقّ، وفـي الصباح عدت إلى وضـعي السابق من كنس وتنظيف وطبخ ورعاية لأولاد أخـي. كـلّ مـا حـولي كـان قاسـياً، الأهـل، الجيـران، الشـارع،

الحصار الاقتصادي واليتم ونظرات الجارات وهمساتهنّ وهنّ يعلكن عِرضي وشرفي. قالت إحداهن مرة:

- ستر عليها لمدة، احتراماً لأخيها، ثم أعادها، إنّه رجل شريف.

وقالت أخرى:

- نعم، هكذا يتصرّف ابن الأصول.

اعتدت البكاء في وحدتي، ولا أحد يربّت على كتفي أو يمسح دمعتي، فقد قرّرت أن أشرب الدموع كي لا أعطي أحداً فرصة الشماتة بي. وكم تمنيت أن تكون أمّي قريبة منذ أن بلغت العاشرة، إذ كنت أسمع إحدى البنات في مثل عمري وقت فاجأتهنّ الدورة الشهرية تروي أنّها حين رمت ثوبها المبقّع بالدم في حضن أمّها، قبّلتها وعانقتها وقالت لها إنّها صارت ناضجة، ووضعت في يديها قبضتين من الرز ومثلهما من السكر، وأعطتها لإحدى الفقيرات.

كنتُ أشبع جوع أذني بالاستماع لأحاديثهنّ، وأتمنى أن أعمل مثلهن، لكن الخوف جعلني أنزوي في غرفتي، وثيابي المبقّعة بالدم كانت تهزأ منّي يوم

بلغت. ووجدتُني موزعة بين ضفّتين لا تلتقيان، لجأت إلى الأرصفة وطويتُ جسدي النحيل بملاءة ونمت. عندما بدأ صدري يتكوّر، سمعت أخي يقول لزوجته: لا بدّ من تزويجها، البنت تكبر في بيت زوجها لا في بيت أهلها.

جلستُ في الليالي أخاطب ظلّي الذي أخذ حجماً أكبر مني: كن قوياً لتعدّ نفسك بنفسك.

فيهزّ الظلّ رأسه مؤيّداً، وتصبح أرضي هي سمائي، أبتعد وأقترب فأجد نفسي في بئر سحيقة. لذا فرحت بأوّل عريس جاء لخطبتي، لم تكن أمّي على حافة البئر لتنقذني، ولم تكن أضلاعي قاسية بعد، كنت لا أعرف غير الخوف الذي جعلني أرجو أن يكون الزواج منقذي.

في بيت غريب عليّ، وفي ليلة عرسي شربت قهوتي مُرّة، اغتصبني الوحش سبع مرات، شاهدت حبلي السرّي يلتف حولي ويرميني في البئر. لم أدافع عن نفسي، كنت كقطعة نقود معدنية، باردة وثمينة ومستسلمة له، وهو يمزّقني بسعادة وتلذّذ. لم أدافع

عن طفلة لم تكتمل سنتها السادسة عشرة، كما لم أجد لها شبراً نظيفاً تقف عليه. امتصّ رحيق أنوثتي وتركني يعصرني ريق الحياة المرّ، لم يترك لي حلماً ولو بحجم الظفر، صباحاً أدخل ظلامي مع أخواته الأربع وأمه السمينة، وليلاً أدخل باب هتكي.

في بيت أخي حين عدت إليه وأنا امرأة، أصبح خبزي جائعاً وأنيني أكثر جوعاً. لأوّل مرّة أتعرّف على جسدي وأجده ناضجاً، أين كنت عنه كلّ هذا الوقت؟ في المرآة كان جسدي يصرخ:

- أحسن رجل يتمنّاك.

أداعبه ليهدأ، لكنه لم يهدأ ولم يترك لي مجالاً للاختيار. صرت أخرج متعمّدة لشراء حاجيات زوجة أخي التي أثقلها الحمل السابع، وأتشبّع بالعيون والأصوات المشبّعة بالغزل والإعجاب، بصدري وزندي وشعري ومؤخرتي المتكوّرة. رحت أجلس لساعات قرب النافذة، ومن يوم ليوم تعلّمت كيف أصطاد فريستي. وذات وقت وأنا في السوق أتبضّع شعرت برجل يمشي

إثري، وسمعت كلماته تدلّلني، والتي لم أسمع مثلها من قبل ولم أتعوّد على إطراء يختصر سرابي.

كان للحياة دورها، ولزوجي وأخي وزوجته نواقيس تدقّ في رأسي. لذا قرّرت النفاذ بجلدي، تجاوبت معه، بل جئت مسرعة من أول دعوة. إنّه أحد رجال البدو الذين حبتهم بركة الرئيس بالثراء المفاجئ، عطايا مرتزقة كبار لصغار المرتزقة. قال لي إنّ لديه بيتاً في بلد عربي وسيأخذني هناك تحسّباً من عيون زوجته، عيون جيّرتها لحسابها. مضيت خلفه أبحث عن خلاصي، واعدته سراً دون علم أحد، وهربت معه.

مرة أخرى تفلت منّي المراهقة، أرقص في الثراء نصف فراشة ونصف حجر، ومن ظلام لأخيه. لم يسلمني أيّ مال في يدي، لكنّه كان كريماً معي، يأخذني إلى السوق وأختار ما أريد، كلّ ما أريد يكون بين يدي. لم تغوِني الثياب، بل رحت أكتنز لساعة عجفاء بزمن أشد عجفاً وأثقل، فاشتريت أكثر القلائد وزناً وأخلصها ذهباً، وأغلى الساعات ثمناً. لم يعقد عليّ كزوجة شرعية، بل تركني كشجرة مثمرة يهزّ

ثمرها متى شاء، ويهيّئ شراباً لسيّده الذي يهاتفه من العراق. هو يأكل وأنا أشتري الأساور والخواتم، يهتز جذعي عاشرة ومائة لسادة أعلى رتبة من سادتها الأوائل، وعدد الساعات في حقيبتي يتضخم. هزّ الجذع من صنع الرجال وشهواتهم، وهم من أطلق على من تهزّ وسطها تحت شخيرهم اسم الزانية، ليستمتعوا بطعم الخيانة خارج عش الزوجية.

في ذاك البلد أضعت طريق الرجوع، خلعتُ صبيّة كنتُها، وارتديت امرأة أخرى شارف عمرها على العشرين، جسدها اختاره القدر ليكون ضحيّة سلطة عاهرة وزوج وأخ أكثر عهراً من سلطته. الشجرة الوحيدة في الشارع تتعرّض للنهب، وبعدد أشجار العراق وتموره نُهِبت باطمئنان خلف زجاج النوافذ.

تغيّرت طباعي، أصبحت شرسة لا أخاف أحداً، حاضري وغدي وأمسي كلّه فراش. كلّ واحد يعبر بوابات القصر يعطيني اسماً، كلّ حسب نظرته لجسدي، وتتفاوت العطايا حسب تفاوت الثراء، فمن وليمة إلى وليمة ومن بلد إلى بلد، ومن حقيبة إلى

حقيبـة، البلد فـي حصار. وإثـر حصارهم قرّرت الهـرب مع رجل من صنفهم، هو الذي أخبرني ساعة سكره أنّ لـه فنـدقاً وقصراً وأمـوالاً لا تحصـى فـي لنـدن، كمـا أنّ هنـاك كثيـراً مـن نسـاء لا يملكـن غيـر شـرف المـال يتعرّضـن لـه ويشـاركنه فـي أعمالـه التجاريـة، وأنّـه يتخفى خلف أسمائهن هروباً من الضرائب. دون علم صاحبنا، هربنا بالموعد الذي قررته شركة الطيران.

من الغريب أنّـي فـي لنـدن لـم أحـنّ لأحـد، ولـم أتـذكر أحـداً. فقط كنـت كـالنمرة بـين رجـال متنكّـرين بأسـماء مسـتعارة وعصـابات بجـوازات مزيّفـة وأمـوال مهرّبـة بأسـماء شـركات وهميـة. طلبـت منـه أن يعقـد علـيّ، والأغرب أنه وافق بسرعة قائلاً:

- أحب المضاجعة شرعية.

ضحكت بصوت اهتزّت عليه الستائر والنوافذ، سمعته يتردّد علـى الجدران ويتجوّل بين أثـاث البيـت الفاخرة، قلت لـه: مضاجعة شرعية، ونومـك غيـر الشرعي معـي ماذا تسميه؟

قال لـي:

- تهيئة للشرعية.

- قـرّرت الانتقـام منـه، وعوضـاً عـن ثلاثـة رجـال خـذلوني بشـرعية التفسّـخ وشـرعية نخاسـة تلقـح بعضها، ولكن بتريّث. فبعد حصولي على إقامة دائمة، القانون هنا يحميني، فأنا في بلد القانون ولستُ في بلد انتهاك القوانين؛ وقفت قبالتـه متحدّيـة: النهـر والصحراء لا يلتقيان.

ردّ بكل برود:

– أنت النهر وأنا الصحراء. هـ.. هـ..

قلت: بل أنا الاثنان. الصحراء يجب أن أنزعها كما أنزع ثوبي هذا، وخلعت ثوبي أمامه.

قال لي:

- ما أجمل النهر عارياً، نهرٌ بضّ ممتلئ.

وراح يعضّني في كلّ مكان:

-أيّها النهر، أيها النّهر، تعال لأضاجعك فقد ضاجعت الأرض قبلك، عمّا قريب ستشيخ وأرميك للكلاب.

حاولت الإفلات من قبضته:

- هل تعتقد أنّكم باقون حتى يشيخ نهري؟ إنّ غداً لناظره قريب.

-تعمّداً بتُّ أخلق المشاجرات وأستفزّه ليضربني. لكنّه يجلدني ببروده، ويتكرّر مشهد البرود كلّما عادت المشاجرة. كنت أسرق كلّ ما تقع عليه عيني وما أجد له وزناً وثمناً، وأخبّؤه عند إحدى الخادمات لتأخذه إلى دارها بعد ذلك. خادمة إثيوبية وشابّة مثلي، تعاطفت معي حين عرفت بحكايتي، وهي التي علـّمتني حقوقي وفتحت عينيّ على حيَل الحياة؛ ورحنا ننفّذ ما نخطّطه معاً.

حدث ما اتفقنا عليه؛ لقد اتصلت به الخادمة ذات مرّة في مكتبه وأخبرته أنّي مع شخص آخر في غرفته، فشكرها على فعلتها.

ولم تمض غير لحظات قبل حضوره إلى البيت، حيث اتفقتُ معها أن نظهر كأنّنا نحاول المداراة أمامه، وأن تتأسف له وأنها أخطأت بالتبليغ، وتطرق رأسها رافضة أن تريني وجهها، وإشارة منها إلى أنّها محقّة لكنها تتراجع خوفاً منى.

دخل مهرولاً نحو غرفة نومي، فوجدني أعدّل زينتي وأرشّ عطري، وكان الشرر يتطاير من عينيه، لم أنظر إليه كشخص محترم، بل رحت أرمقه بطرف عيني، متذكّرة قفر الحياة التي عشتها، وفتحت شهيتي للمشاجرة.

منذ تلك اللحظة وأنا أشمّ العفونة كلّما التقيت برجل، لعنت أخي الذي ضمّني إلى مزابل الحياة. وأخذت أحدّثه بلهجة حادّة؛ لماذا تنظر إليّ بهذه النظرة الغاضبة؟. وتمتمت؛ أنا لا أحبك، رافعة صوتي قليلاً بحيث يسمعني.

. ماذا قلتِ؟

. لم أقل شيئاً.

. بل قلتِ لا أحبك.

تحبّين مَن إذاً أيتها العاهرة؟ ومَن كان على سريري معك؟.

. أيّاً كان، هو أشرف منك.

وقفت وقفة العارف بنفسه، ودفعته إلى الحائط، فانهال عليّ ضرباً حتى أدماني. اتصلت الخادمة

بالشرطة، التي أتت لتقبض عليه بالجرم المشهود. وشرحتُ لهم أنّه مجنون يضربني كلّ ليلة قبل أن ينام معي، لذا قررت الانفصال عنه، ولم أعد أحتمل؛ وأيّدتني الخادمة بأنّها شاهدة على جرائمه.

من ساعتها غيّرت نمط حياتي، وخلعت عنّي رجسهم لأعود إلى إنسانيتي. أقرّت لي المحكمة بشقّة استقطعوها من أملاكه، رغم توقعاتي الخائبة بنيل أكثر من شقّة. وبدلاً من حصولي على نصف أمواله وأملاكه، حصلت على الشقة وقليل من المال، وما أزال أجهل أين ذهبت الأموال والأملاك، فابن الكلب سجّل تصريحاً بامتلاك شقّتين فقط وبعض المال، أعطتني المحكمة نصفهما، وكانت الأملاك والأموال الأخرى كلّها مسجلة بغير اسمه، تحسّباً لمثل ما حصل وغيره. وكما طرد الخادمة، طردني مع شقته .

أنتِ يا ود شريحة من مجتمع مخمور، لا بل وضع سكران..كنت أعيد ببوحك ما أصابنا من فقد أفاقت عيناء باكراً، فتحت ذراعيها على آخرهما، ومسحت عنها غشاوة النعاس. لاحظت أنّ السيّدة بالكاد تجرجر

خيط النوم إلى جفنيها، محدّقة للاشيء في سقف الغرفة، كأنّها منغلقة على ذاتها.

قرأت عيناء في جو الغرفة الهادئ ضفّة جديدة، ومساحة للطمأنينة. شعرت أنّها بحاجة إلى الكلام، وتشكّلت ذكريات وليد كحبّات العنب الرطبة. ذكريات وصمت، أصباغ وثرثرة، أزرار على فستان أحمر، طفولة وحركاته، معرضه وخلاصه، الارتياح والدفء إلى جواره، إطلاقه شرارات الإبداع، إلغاؤه لها، كلّ خطوة يخطوها، وخفّة دمه؛ الحاضر والماضي يأخذان شكل الانتظار، وقد تراكمت الأحداث والعناصر والموضوعات والصور.

أدارت عينيها في أرجاء المكان، صالة مفتوحة على ركن اتخذ شكل غرفة، وفسحة صُفّت فيها أواني المطبخ وغسّالة صغيرة وطباخ صغير، فتشكّلت الفسحة على هيئة مطبخ. انتبهت لصورة وضعتها راوية قرب السرير، رجل وسيم يقف قربها واضعاً يديه على كتفها بحنان، وراوية جالسة على كرسيّ خشبي

في حضنها طفل صغير، ولها وجه دمّرته الخيبة وأحزان العطش.

نهضت عن الأريكة والشمس تنعكس عن ذكرياتها، تطلّعت في الصورة مليّاً، أعادتها إلى مكانها واستدارت لتدخل الحمام. وكمن استذكر شيئاً، رجعت إلى الصورة ثانية، حاولت مسحها وتنظيفها، لا بدّ أن السيّدة تنظّفها في اليوم عشرات المرّات. الولد يشبه السيّدة، الأنف الصغير نفسه، ونفس الشعر واستدارة الوجه، سبحان الله فالق البذرة. دخلت الحمام وأخذت دشاً دافئاً، مسحت وجهها وشعرها بالفوطة، توقّفت قليلاً، ثم واصلت حركاتها تحاول كشف سرّ السيدة.

كانت تتلمّس موسيقاها من الداخل، إنسانة مثقّفة وقارئة جيّدة، هذا واضح من مكتبتها ومنطقها، اللون الفضي على شعرها زادها وقاراً رغم أنّ وقته لم يحن، سلوكها، تفاصيل وجهها، مشيتها وابتسامتها، تفردها بأنوثة ذات عمق خاص بها وحدها.

أعدت عيناء كوبين من الشاي، وجلست قرب صورة امرأة تحبسها جدران متقاربة، تمّ اعتبارها شقّة،

لـو قارنـت بينهـا وبـين بيـوت العـراق لمـا زادت عـن اعتبارها ركنـاً فـي مطبخ. شدّها عنوان كتـاب تناولتـه من المكتبة وجلست لتقرأ.

أخـذت تتصـفّح الكتـاب بهـدوء، خوفـاً علـى غفـوة خطفتهـا راويـة وتمـدّدت معهـا هاربـة مـن ثقـل شـيء سـهّرها حتـى الصـباح. رشـفت مـن الفنجـان، سـقطت قطرة منه على صحائفه.

غرق الفجر ومات
في غبار الصلوات
لكن في التخمين
في خطرات البال
يصعد من آبار الطين
وجه الأطفال.

كم تحب السيدة هذا الشاعر، أرجعت الكتـاب إلـى مكانه، ثم أعادته لتقرأ آخر السطور منـه؛ (هل الحبّ وحده مكان لأنانيّة الموت؛ وماذا أسمّيك يا موت)؟

راقت لهـا التساؤلات، أعادت الكتـاب إلـى مكانـه، رأت كتبـاً كثيـرة للشـاعر نفسـه. المجمـوعتين الشـعريتين

وكتـابين بـاللون الأسـود والرصاصـي (أمـس المكـان الآن)؛ كتـاب الحصـار، أوّل الجسـد آخـر البحـر، تنبـأ أيّهـا الأعمـى، الثابـت والمتحـوّل بأربعـة أجزاء، أغـاني مهيـار الدمشـقي. فتحـت كتـاب (أوّل الجسـد آخـر البحر).

لا يتوقـف جسـدها عـن تغييـر حـدوده وتوسـيعها لا يقين لهـا إلا فـي نـرد الحبّ. فـي هذه اللحظـة أفاقت السيّدة، أبعدت عنها نوماً لم تقبض عليه جيّداً:

- عمت صباحاً يا عيناء.

- صباحك بألف خير، عيناك متورّمتان سيّدتي؟

- لم أنم البارحة.

- ما الذي أرّقك؟

- وجه امرأة.

- أتراه وجهي؟

- الوجوه كثيرة بكثرة المآسي.

- رفعـت عينـاء صـوتها لتسـمعه السـيّدة مـن خـلال الدش:

- أتحبّين أدونيس إلى هذا الحد؟

جاء الصوت مخفيّا هادئا:

- إنّه عالمي، أركن إليه في فرحي ووجعي، إنّه شاعري المفضّل؛ اسمعي يا عيناء:

- نعم.

- هذا الشاعر نبيّ عصره، افتحي التلفاز من فضلك، نريد أن نعرف أخبار الدنيا.

(المذيع في النشرة الإخبارية):

-في الساعة السابعة من صباح اليوم، انفجرت سيارة مفخخة قرب مدرسة للأطفال راح ضحيتها عشرة أطفال وثلاث نساء ورجلان.

تناثر الماء من شعرها، فقد خرجت مسرعة وأغلقت التلفاز .

-ما أقبح رسالة الصباح. يا إله الأطفال، جاءتك أفضل هدية ترفرف بنقائها.

سرى في عمودها الفقري برد طاعن، وهاجس خضّها ورجّها رجّاً. دارت حول نفسها محمومة، تخلق افتراضات لا وجود لها:

- ماذا لو انقلبت الدنيا الآن؟

أجابتها عيناء:

- إنّها مقلوبة. وها هو الله يرينا الآخرة بالتقسيط وينذرنا بدنوّ الساعة، لكن مَن يتّعظ؟

-لفت شعرها إلى الخلف، وكضفّة بلا قرار جاهدت لتجعل عيناء مبتسمة، تصنّعت الابتسام:

- ها، قولي لي أين تحبين الذهاب؟ هل ترغبين بزيارة المواقع التي أخذك إليها صابر مع ذكرى؟ أظنك لم ترغبي في سوهو، أعتقد أنّه حدثك عن كولن ولسن ورواية (ضياع في سوهو)؟

-يا سيّدتي كلٌّ له ضياعه وسوهوه، فأنا ضعت مع وليد.

أجابتها السيدة :

- وأنا ضعت في الحياة.

-صحيح واعذريني لتطفّلي، يبدو أنّك تحملين على أكتافك حطام الدنيا، فما سرّ ابتسامتك الحزينة؟ ومن الطفل الذي في حضنك في الصورة؟ إن كان ابنك فأين هو الآن؟

-على هونك، كيف أجيب على أسئلتك دفعة واحدة؟

فرّ قلب السيدة من مكانه، اقتربت منها عيناء محدّقة في عينيها:

- تبدوان أحسن الآن.

- من؟

- عيناكِ، ألا تخبرينني عن المرأة التي أرّقتك طوال الليل؟

- الليلة سأقصّ عليك حكايتها، هذا إذا رغبت أن يغادرك النوم.

- وأحبّ أن أسمع عنك أيضاً، اذا سمحت بذلك سيّدة راوية .

فتحت الثلاجة، وتناولت منها تفاحة، راحت تقضمها بشهيّة، والسيدة تخاطبها قائلة:

- البحث عن مصداقيّة نشرات الأخبار في المحطّات العربية خطوة محصورة بين اتجاهين، قنوات تزوّر الحقائق بقدر عدد الدولارات المدفوعة، وقنوات تقودها نعرة طائفية، ونحن يصيبنا العجز حيال ما يدور حولنا.

تـذكّرت ذكـرى، وطلبـت مـن عينـاء الاتصـال بهـا وإخبارها عن مكانها، وإلا أصابها القلق، فأجابتها :

– مـازال الوقت مبكّراً، فبعد سـهرتها الماجنـة ستصحو الساعة الثانية أو الثالثة ظهراً.

أرادت السيّدة أن تمتحن رغبتها:

- هل أنت راغبة في العودة إلى بيت صابر؟

- أعوذ بـالله، لـن أرجـع حتـى أكمـل عدّتي فـي بيتـك، أبدأ.. من بيتك إلى بيت وليد.

- عدّتك، هل أنت مطلّقة؟

- أقصد مدّتي خارج الإطار، تريدين التوضيح أكثر؟

- شكراً أنا أعرف التفاصيل.

ارتدي ملابسك لنتجوّل قليلاً، أرغب فـي شراء جريـدة وقراءتها في مقهى قريب.

في الطريـق، غيّرت عينـاء رأيهـا ورغبـت فـي تواصل السير، رغم ما قالته السيّدة عن تصفّح الجريـدة علـى مهـل فـي مقهـى، بقيـت تتصـفّح العنـاوين الرئيسـيّة كشخص هارب من إشارات إضاءة العبور، تقرأ عنوانـاً وتترك ثلاثـة، المشـي بحركـات روتينيـة، تقود جسداً لا

يتجرأ في تحديد اتجاه، أيّ اتجاه فيه ما يحوّل الغياب إلى منعطف محدّد، بعيداً عن خارطة الغربة ووقاحة انتظار مشئوم.

بعض الجُمل لا تعني لها شيئاً، لكنّها كانت تطيل الوقوف أمام جملة واهية أو شيء يُفلت من حبل الكلمات التي تلتفّ عليها. بدأت من آخر صفحة أهملت اشتعال قلبها في زاوية الأبراج. برج الدلو، تعرف مسبقاً أنّ صاحبه غير محظوظ، وأنه عاطفي وذو شأن. وعلى حذر من خوفها قلبت الجريدة إلى الصفحة الأولى، كان الموت بين سطورها وعلى حبرها.

مدّت عيناء رقبتها، وأربعة أقدام تقود امرأتين إلى مقطوعة غنائيّة دون عنوان، عزف ثنائي، استغراب عيناء من حماية دولة عربية لمرؤوسين سابقين في الدولة.

- لا تستغربي، حين قلت البعثيّين، أقصد من تلوّثوا بدمائنا الشريفة وليس كلّ البعثيين..هم الآن يتجوّلون

بكامل حريّتهم وبتقدير من الدول الحامية، وهذا ما قصده (الشيرازي)؛ حين قال:

(ما معنى الإحسان للمسيئين؟)

- أنا أعتقد أنّ الذي يساهم في إيواء المجرمين، يقع عليه ذنب المشاركة في الجريمة. ويعني أنّهم معترفون بعدم أحقيّة الإنسان العراقي بكرامته، نحن يا ابنتي في زنى كوني، والمسؤولون عن الزنى نعامات تخبئ رؤوسها في الرمال تاركة مؤخراتها للريح، ألم أقل إنّنا في زنى كوني.

. وأنا أعيش في سجن يكوّنني نقطة تافهة، سجنت قلبي مع رجل يعتبر كلمة أحبّكِ؛ نوعاً من تنازل الرجولة. مهما توسّعت الشوارع برقعتها الخضراء، تبقى في عينيّ أضيق من خُرم الإبرة، مادمت لست معه.

ـ أنتِ مجرد وهم من أوهامه، وأنتما الاثنتان فكرة، مجرد فكرة. وعليك أن تفهمي ذلك، فكرة وكلمات.

ـ نحن فكرة مَن؟ الكاتبة أم الرسام؟ ولِمَ تتلاعب بمصيرنا؟

ـ لا تقلقي، أنا أيضاً فكرة.

وضعت عيناء يدها على جبين السيدة:

- يبدو أنّ سهرك البارحة أصابك بحمّى.

-لست أهذي، وما أقوله حقيقة، كلّنا ندور في عقارب ساعتها، ومتى تلاحمت تلك العقارب أغلقت الكتاب وأنهيتُ الرواية.

-تبدين غامضة اليوم، ولمَ أنتِ على علم؟ ولماذا اختصتك بالذات؟

-أنا مرآة نفسها، وخلجات صدرها.

- هل كلّ الروايات فيها من كُتّابها؟

-الكثير.. وإلا أصبحت مجرّد حشو معلومات.

- هل تعرفين شكل الخاتمة؟

-لقد بدأت عملها من نقطة قريبة إلى الخاتمة.

- هذا شيء مغرٍ.

تصادمت الرغبات في روح عيناء حول معرفة نهاية حبّها، هل سيقرّه وليد ويقبل به؟ هل أكوام الألم التي سبّبها لها ستستفزّه لمعرفة أيّ حب أحبّته؟ لمحت في وجه السيّدة شيئاً من الاصفرار:

– ما بك يا سيّدة راوية؟

– أرغب في العودة إلى الدار، أحبّ أن أختلي بنفسي.

– لاحظت أنّك ترغبين في الوحدة، هل لديك أصدقاء؟

– حال عودتنا ذكّريني أسمعك أغنية نقلتها عن كتاب للشاعر (ج. ج. غنج)؛ اسمها أناشيد من الحياة.

. لا أستطيع الانتظار، ماذا تقول الأغنية؟

. اسمعي:

صديقي الطبيب جعلني مريضاً

صديقي المحامي جعلني أفكّر

أفضل أصدقائي قام بخدعته القديمة

ولهذا صرت أبحِر منفرداً ضدّ العاصفة.

. يا..هـ، ما أروعها من كلمات.

نزل المطر خفيفاً لدى انعطافهما يميناً باتجاه الشارع الآخر، انتشت راوية، لها عشق خاص للمطر. منذ أن كانت طفلة تحادثه، تسمع لغته، لعبه على الأشجار والجدران والحشائش، ترنيم شجيرات صغيرة (أتعرفين أيّ حزن يبعث المطر؟) ومثل من يتفحّص شيئاً عثر عليه للتو، قالت:

- أسرعي، لا بدّ من الاختلاء.
بـدت متعثـرة الكلمـات، تغيّـرت بشـكل مفـاجئ، لاحـت عليها إشارات غريبة وأصبحت كخيمة بلا أوتاد، شـيء ما شدّها إليه بقوّة، أخفت وجهها بيديها، كطفل جرّوه من حضن أمّـه، صارت تخاف العيون؛ ثـوبي، ثـوبي، أين ثوبي؟
ـ نحـن فـي الشـارع سـيّدتي، وعلـى عتبـات العمـارة، سندخل.
. ثوبي، ثوبي، ألم أقل لك أسرعي؟
فتحـت بـاب الشـقة بقـوّة، وجـدت عنـد المـدخل رسـالـة، قرأتها بيدين راجفتين، مرفق مع الرسالـة صك باسمها،
ـ انظري يـا عينـاء، (رجفـت شـفتاها كأنّـهـا تلـمّ الكـلام لـمّاً) فـي بريطانيـا إذا نسيت حقّك، تـذكرك بـه الدولـة وتقدّمـه لـك ولـو بعد حـين، وباعتـذار عـن التـأخير. فكيف ستعتذر لنا دولنا على ضياع إنسانيتنا؟
. سيّدتي، اهدئي. هذه رسالة ثانية لك.

ـ ابتعدي عنـي (وقرأت عنوان الرسالة من الخلف). إيّاك الاقتراب منّـي.. (دخلت الغرفة زاعقة) ، أغلقي الباب، أطفئي النّور، أطفئيه بسرعة.

أخافها تصرّف السيدة، يداها تشيران إلى لا شيء، وعيناها شاردتان، لا تدري ما دهاها. طرقت الباب؛ هل أطلب لك طبيباً؟ (لا جواب) هل تتناولين أدوية معينة؟ قولي أين تضعينها، وأنا أحضرها.. (لا جواب).

أرادت أن تسمع شيئاً يطمئنها، وقفت خلف الباب حائرة، سكنت، تحوّلت إلى نهر من العواطف. وقفت على حين غرّة، الحاضر شائخ، والماضي لحظة عابرة. تمدّدت على الأريكة، تكوّمت حول روحها وتشبّثت بها، علّها تعثر لديها على قوّة تستنجد بها، تكرّرت حالتها بين الانكماش والرجفة والوقوف. تعدّى النهار حدود النصف، ولا جواب من راوية. فاتخذت عيناء قراراً بتحدّي خوفها، إذ لا بدّ من مساعدة هذه المرأة الجميلة. اقتحمت تردّدها، وطرقت الباب:

- ست راوية، لقد حلّ المساء، ألستِ بحاجة إلى شيء؟

- لا، شكراً، سأحاول دخول الحمام.

نطّت من الفرحة حالما سمعت الصوت، وحمدت الله لكونها بخير، تنفّست الصعداء وجلست خائرة القوى لفرط الفرحة.

لم تمر سوى لحظات، وإذا بالسيّدة تفتح الباب حاملة بيدها ملابسها، راقبت دخولها الحمام، وتابعت خرير الماء المتدفق من الدش. مضى ربع ساعة، دون أن تسمع حراكاً، ربع ساعة آخر مضى وما يزال صوت الماء وحده، وتبعته دقائق، كادت تنهض بعدها لفتح الباب، لكن صوت الماء توقف.

خرجت راوية، أرادت عيناء الإمساك بطرف حديث، فلم تظهر أمامها نقطة أو فاصلة. البداية ضالة، وصياغة الكلمات انتهت إلى أبجدية غير معروفة.

اللجوء إلى زاوية الصمت غير مستحب في ساعة مثل هذه.

جلستا قريبتين من بعضهما، معزولتين في ألمهما. عقارب الساعة تهرب من العاشرة مساء، والسيدة جالسة على كرسيّ من الصمت، شربت شاياً وأكلت

سندويشاً أعدّته عيناء، وأشباح ذكرى عقيمة تمرّ، تسفو الريح بامرأة وتقلع أوتادها المرتكزة.

تنفّست عميقاً ثلاث مرات، تلتها ثلاث أخر، عادت لصفاء عابر كهدوء موجة من هياج بحرها. هدوء القلِق المرتاب، أغمضت عينيها، وصدرها يعلو ويهبط كحمامة تبني عشاً على حائط قديم، ثم فتحتهما بابتسامة متسائلة:

- أين وضعت الرسالة الثانية؟

قفزت عيناء فرحة :

- حمداً لله على سلامتك.

وناولتها الرسالة المخبأة في مزهرية فارغة قرب التلفزيون:

- ممّن سيّدتي هذه الرسالة؟ هل هي من شخص محب؟

- بل من طبيب.

- أتشكين من شيء؟

- صحّتي جيّدة، أنا حديد، انظري (وفردت طولها) حديد، ولكن أصبح كالنملة حين تعاودني النوبة.

- أيّة نوبة؟

- إنّها حكاية قديمة لا أريد إزعاجك بها.

- بل ستقصّينها عليّ كلّها الليلة.

- حكايتي، أم حكاية السيدة التي زارتني البارحة وأرّقتني؟ الحكايات كثيرة.

صمتت لتتذكر شيئاً.

- .. آ.. آ.. اليوم الاثنين، وغداً لنا مجلس ثقافي.

- أين؟ أتأخذينني معك؟

- هنا، في شقتي المتواضعة.

- وأين سيجلسون وكيف؟

- في أيّ مكان، على الأريكة، على الأرض، يقف واحد ويجلس غيره بالتناوب. المهم أن نكون مع بعض، ويكون لنا حوار وموضوع.

لم تشأ إزعاج السيّدة بالأسئلة، خشيت عليها من نسمة الليل، فأغلقت النافذة، وجلست قربها مقرفصة، تنظر إلى التلفاز، وتعبث بـ(الريموت كونترول)؛ علّها تجد ما يسلّيها. انبسطت أساريرها لسؤال السيّدة عن ذكرى:

- هل اتصلتِ بذكرى؟

- أجل، وهي مطمئنة على بعد أن وصفتك لها. وقالت لي لقد وجدت ضالتّك، أمّا أنا فوجدت من أنتقم منهم وأجعلهم يركعون تحت قدمي، بل يلعقون أصابعي، و بالتفال أمسح صلعاتهم وهم ويتلمّظون، وأسرق منهم ما أريد؛ المال، الشرف، الرفعة، الكذب، الحقيقة. وقد اعتذرت لي لأنها لم تجد حقيقة لديهم، كلّهم مجرد خدعة.

- هل اتفقتما على شيء؟

- رجتني أن أسألك السماح لها بزيارتك يوماً.

- لا يا ابنتي، دعيها تقضي أوقاتها كيفما تشاء بعيداً عن بيتي.

- أعرف، أعرف السبب سيّدتي، ولكن لماذا وافقت على لجوئي إليك؟

- أنت لستِ بزانية، أنتِ ظلّ وألوان وهوس فنان لا يكتمل نضوجه الفنّي إلا بالزنى.

- وهي مثلي لا ذنب لها، كما أنّك توجهين تهمة للفنانين.

- ما قصدت طعن أحد، بل الواقع هو الصحيح في الزمن المقلوب، ولو لم يرسمها وليد لرسمها غيره. ثم ما سرّ وليدك؟ ألم تسألي نفسك عن سبب تأجيل معرضه إلى حين اكتمال صورتكما؟

- لا علم لديّ.

- لأنّه لا يكتمل فنّه ولا ينضج إلا بامرأة، وامرأة مثل ذكرى. ألم يعشقها ويتركك تتعذبين؟ ألم يتلذّذ بأشجانك الموؤدة؟

- الشرف والحب بين يديه، وعيناه على الحرام.

- كلّ ممنوع مرغوب، ولا تنسي أنّه رسمني زانية.

- أيّ ممنوع، في شريعة الرجال كلّ شيء محلّل. أنا رجل إذاً من حقّي معاشرة من أريد. أنا رجل يحلّ لي النظر في وجه كلّ امرأة. أنا رجل لو علا صوتي لا ريب في ذلك. وتطول قائمة الأنا والمحلّلات، وأحبّ أن أجيبك على الشق الثاني من سؤالك:

- أدخلتك بيتي لكونك ضحية حبّك والشكل الذي أعطاك إيّاه وليد، فلا جرم لك فيه، كنت فقط لاكتمال لوحة الزنى.

- معذرة، أنا لا أفهم كلّ كلام الأدباء، دائماً يفلسفون الأمور ويعطونها أبعاداً وتأويلات يصعب عليّ فهمها.

سألت عيناء عن ديوان للشاعر مقبول رسول:

- أعتقد أنّه صديقك، رأيت عليه إهداء خاصّاً لك.

أجابتها راوية:

- وسيأتي غداً، في مجلسنا ستجدين المتواضع والمغرور. أمّا مقبول فيشطب كلّ الشعراء لأنّهم في رأيه شويعرون، وهو ربّ الشعر.

سبح الليل فوق الشبابيك، تسلّل إلى أشيائهم الصغيرة، رسم ظلّه على صورة تجمّع عائلة صغيرة، رائحة الوقت المتعب طرقت باب حقولهم، بين لحظة وأخرى تخرج من دواليب السيدة حكايات بعيدة بثيابها القديمة، وحكايات لمّا تزل تحوك ثيابها، نهار أحب شتاءه وبين خريف وصيف كتبت جملاً لم يفهمها الوقت، فداس عليها وعبر كضوء محطات خانتها القطرُ.

دمـــوع تخوّفـــت مـــن جفونهـــا، علـــى أذرع الليـــل الأخطبوطيّـة، قمـر باهـت يمـارس تلصصـه مـن بـين فتحات الستارة، لا شيء يعنيه غير تفاصيل الشكوى ومناجاتها لإنسانيّة مبتورة، ويعود إلى مخبئه بهدوء.

لاحظـت السيّدة متابعـة عينـاء بشـغف لكتـاب بـين يديها، فأرادت معرفة ما تقرؤه عيناء.

ـ ماذا تقرأين يا عيناء؟

ـ اعذريني عن فضولي، قرأت شيئاً من مخطوطـة أظنّها لك.

ـ هل تبدأ من سبح الليل فوق الشبابيك؟

ـ هي كذلك.

ـ استمتعي بها واعذريني، أرغب في اللجوء إلى الفراش. إذا رغبتِ مشاركتي السرير، لا مانع، فيه متّسع يكفي اثنتين.

واصلت عينـاء القراءة وهـي ماشـية، ووقفـت قـرب السرير. شدّها مقطع جميل، بينما السيـّدة رمت جسداً رجرجتـه غربتـه وهدّتـه الوحـدة، وكـرّرت أربـع مـرات

مقطعاً شعرياً لمحمود درويش؛ (لم يبق في تاريخ بلدي ما يدلّ على حضوري أو غيابي).

تحشرجت عبرات في صدرها، وواصلت بصوت متهدج:

– ويواصلون البحث عن قبري. ثم وجهت كلامها لعيناء:

– تخيّلي، الجميع اتفقوا على موتنا. ألا يكفي أرض العراق ما شربته من دم على مرّ العصور؟ والله لو فيهم ذرّة شرف لهابوا منظر الأطفال المدفونين مع لُعَبهم، أطفال دُفنوا أحياء، أيّ حساب وعقاب نطلبه لمجرمين مارسوا شذوذهم الأخلاقي؟

ـ أنا يا سيّدة راوية أعتبر الأحزاب العراقية قد ساهمت بصمتها في انهيار العراق، ثم أين كانت ولماذا لم تتحرّك أمريكا من قبل؟

ـ العراق مثل بطن الأم، تنجب الصالح والطالح، البيئة العراقية مصدر حركات إصلاحية تنحو نحو المساواة منذ زمن، مثل (حركة بابك الخرّمي، ثورة الزنج، الحركة القرمطية، المعتزلة الداعية لحريّة

الفكر، إخوان الصفا بأفكارهم الإبداعية، أهل الحق) والقائمة تطول حتى عصر قريب. لكن أسلافنا مجّدوا أسطورة الرجل الواحد، واليوم تفنّنوا بتشريدنا، لنبقى نثر أحزاب تلاحق ذاكرتها وتبتكر لها ذرائع تبقيها حيّة.

مسكت عيناء من كتفها، ودنت منها حتى راحت تشمّ أنفاسها:

-ثقي لو كان لدينا ما يكفي من الوعي لأدركنا وهم الأحزاب، هم مجرد حشو في معدن الحرية الوهميّة. لو غربلتهم لوصلت إلى نتيجة مرعبة، الشعب دائماً ضحية تطرّفهم السياسي والديني وغبائهم المتذاكي، والحياة مجرد محطّة وصفارة قطار تعرّت عرباته.

وضعت عيناء المخطوطة أرضاً، واعتدلت في جلستها:

ـ سيّدة راوية ما رأيك بالتطرّف الديني؟

ـ أنا شخصياً أمثّل الحالة برجل مجذوم بُترت ذراعه بينما الأخرى تهرشها الحكّة، تمزّقه من الداخل ولا يقوى على لمسها، بين وقت وآخر يحطّ ذباب على جسده، يتلذّذ بدبيب النمل ويستأنس بهرش الذباب،

ينثر جسده قشوراً ودماً، ينتابه شعور القرف. كلّ ما يملكه هو البصق على خياله وتوسّله بالذباب، هيّا، أهرش.. أهرش؛. هل فهمت قصدي؟. من أين جاء الذباب، أيّة ريح حملته؟ أيّ أيادٍ هيّأته للهرش؟

أيادٍ صديقة بثوب عدو، أيادٍ عدوّة بثوب صديق، أو أيادٍ استدرجته لتغلق بوجهه باب الحياة، لا تستغربي يوماً إذا رأيت إعلاناً في التلفزيون أو دعاية عن أظافر للهرش.

ـ آراؤك أعجبتني وطريقة وصفك للأشياء، ألا تنشرينها في الصحف أو تطبعينها ككتب؟

– عزيزتي كتبت كثيراً وقرأت الأكثر، ولا شيء ممّا كتبته أو قرأته أعاد لي كرامتي.

اسمعي قرأت مرّة شعراً يصف زعماءنا، وتنطبق القصيدة كلّها عليهم، وخاصّة مجنون العراق.

(قضى أوقات جنونية خلقت منه بطلاً
إلا أنه في النهاية
كان ضحية جنونه
وهذا ما جعله البطل.)

ـ أنت مولعة بالشعر، هل توقفت عند أحد غير أدونيس؟

. تعجبني تساؤلات محمود درويش.

(يا موت هل هذا هو التأريخ)؟

ـ لم أسمع بشارع أو مدرسة سُميت باسمه، ألا يستحق ذلك؟

ـ بل يستحقها وأكثر، لكن عندما يموت. أمّا وهو حي فالشوارع والمدارس والقاعات الثقافية تُسمى باسم حكّامها.

. إي والله سمعت وليداً يقول العراق بلد الرشيد.

ـ ومن قال إنّ الرشيد عراقي ليُنسب العراق إليه؟ الشوارع يجب أن تسمّي بأسماء أبنائها، من كدحوا وجاعوا وتاهوا فيها، هم سلالة سومر وأور. هل نسمّي الخليفة عبد الرحمن الداخل أسبانياً، وهل نُسبت أسبانيا له؟ لذا أحبّ تساؤلات درويش لأنّها تفيض فيّ تساؤلات أكبر وأوسع. إمبراطورية امتلكت الأرض، قسّمت الحياة لسنين وشهور، اكتشفت الكتابة والفلك.. و.. ننسبها ببساطة لبدويّ قادم من

الصحراء؟ بدويّ غازٍ؟ أليست هذه كذبة التاريخ؟ ثم من يدري ربّما سيقال في الغد:
العراق بلد بوش؛ وسيصدق الجيل القادم اللعبة، ويقرأ الأطفال في المدارس عن بوش العظيم الذي حمى الإسلام وصلّى وحجّ، وعاد يطوف حول جواريه يمارس شريعة ما ملكت أيمانه مدافعاً عن حرية الإنسان وكرامته.. هذا التاريخ المبرقع.

الوقت يمرّ كما تمرّ لحظة المواجهة مسرعة على رقّاص ساعة دون حواس، بعيداً عن استدراك الكفاية من دم لم يتحمّل ضجّته والتصق بالتراب، لم يعد بمستطاعه أن يتحوّل إلى أمنية بين أسنان مهشّمة.

الانفعالات وإن جاءت متوترة، وقفت مريرة مخدوعة بين الحقيقي والمزيف، مرةً بحجة غسل العار، ومرّة خانها شرف من صدّر الغجريات إلى الخليج على دفعات من سفن الكرامة المحمّلة بأعضاء البترول التناسلية.

كانـت السيّدة تتأمّل عينـاء وهـي تنتقل مـن فكـرة لفكـرة، مفضّـلة حـديث راويــة وصـياغتها الجميلــة، إذ وجدت في حديثها نصّاً أدبيّاً يمسّ أوتـار قلبهـا، وهـي تطيـل النظـر فـي وجههـا كتلميـذ قُدّم إليـه شـرابٌ مـرٌ وحلـوٌ فـي وقـت واحـد. لـم تكـد تـنهض السـيّدة راويـة لتسترجع جلستها علـى الفراش حتـى تململت وتأفّفت، ثم استرجعت حكاية مرّ عليها وقت طويل، لكن فضول عيناء لمعرفة سبب صمت السيّدة وعزلتها قطع حديث السيّدة من لحظة بدايته:

– سيدة راوية، لماذا تفضلين الصمت في جلوسك؟

أجابتها:

يقول (طاغور):

(أنــا طريــق تصــغي فــي صــمت الليــل إلــى خطــأ الذكريات). وأنـا أصغي لنفسـي، الصمت لـيس ضـعفاً أبداً، إنه اكتشاف للحقائق، وساعة التأمّل هي صفاء الاكتشاف.

ـ لم أسمع وليداً يذكر مثل كلامك، بل كان يهذي دون صمت، وأنت تفلسفين الصمت؛ هذا غير معقول.

. بل فلسف على طريقته.

. كيف؟

. هل تذكرين مرّة حين توجّه إلى لوحة بيضاء لم تنقرها ريشته، وصفعها كمن يصفع مذنباً وقال لها: البياض عار؛ ثم خلط مزيجاً من ألوان دون تحديد، وراح يرعد؟ كان يكره البياض.

. هل معنى هذا أنّ وليداً فلسف البياض؟

. أبداً يا ابنتي، بل يخافه، لأنّ البياض هو القاضي الوحيد الذي يكتشف عجز الرجال ويقاضيهم. أنا مثلاً أحب لوحة بيضاء دون إطار أو لون وأرغب أن تتوسّط المعرض، أيّ معرض، لأنّها لا تتواطأ مع أسئلة الزائرين للمعارض الفنيّة. ومن يقف أمامها مستفسراً، يحاول سرقة سرّه هو واكتشاف اعتذاره لنفسه أمام الصفاء.

. لم أفهم سيّدة راوية.

. إنّها فلسفة البياض الصحيح في المعارض الخطأ، على فكرةٍ متى سيكون معرض وليد؟

قال لي ولشقرائه يوم تركناه بأنّه اتّفق على أن يكون معرضه بعد ثلاثة عشر يوماً، ولا تزال في ثيابنا مساحات بحاجة إلى ريشته .

سيّدة راوية، أرجو أن تقبلي توسّلي وتضرّعي .

- على ماذا ؟

- أتوسّل أن تحكي حكايتك الليلة أو ليلة الغد.

ومثل ليل فقد حلمه الأبيض التفتت السيدة يائسة :

- غداً سأكون متعبة، ففي الصباح لي موعد مع طبيبي النفسي وسأرجع منه مرهقة الأعصاب، ولا أدري كيف سيكون مزاجي.

لو وجدتني متوترة لا تخاطبيني ولا تستفزيني، أنا سأكلّمك من تلقاء نفسي. أمّا عصراً ، فلنا جلستنا الثقافيّة .

– وماذا ستقرأون فيها ؟

– أحيانا نقرأ أشعارنا ونناقشها، وأحياناً يأتي أحدهم بديوان أو رواية ونقرؤها ونستعيد أجمل الأشياء في مناقشتها.

– ألا تتكلمون بالسياسة ؟

-اتفقنا جميعا على أن نترك يوماً أو ساعات للرّوح ولمتعة النفس. كلنا بحاجة لذلك ، لذا وافق الجميع على هذا الطرح .

لازمت صمتها وتركت عيناء حائرة بين سؤال يدور في خلدها، وأسئلة تلحّ عليها فتكتمها. وحين رأت عيناء أنّ السيّدة مستغرقة في صمتها، قرّرت هي بدورها الصمت .

حين أفاقت في الصباح، لم تجد السيدة، بحثت عن حقيبتها اليدويّة فوجدت مكانها فارغاً، تطلّعت لساعة يدها، كانت تشير إلى التاسعة والنصف، فاستدركت إنّ السيدة مع طبيبها . بعد اغتسال واحتساء فنجانين من القهوة، ورغبة منها في مسايرة جلساء اليوم، حاولت قراءة بعض المقتطفات من الكتب، على الأقل تفهم بعض ما يدور في الجلسة، فشرعت في حفظ

بعض عناوين الكتب والمقدّمات لكتب أخرى حتى مضى من الوقت ثلاث ساعات في انتظار عودة السيدة.

ذرعت المكان جيئة وذهاباً، ردّدت أبياتاً من الشعر في محاولة حفظها كي لا تبدو بلهاء في الجلسة، توقفت أمام المرآة، صادفتها امرأة أخرى، رفعت خصلة من شعرها متدليّة على جبينها وزمّت شفتيها :

- من أنت ؟ مسحت المرآة بكمّ قميصها .

- لستِ جرساً، أنت مجهولة، راحلة أم مرحّلة ؟

-من أنتِ؟ هزّت إصبع يدها اليمنى كمن يحذّ ر من شيء :

-أنتِ سؤال بلا جواب.

سمعت صوت المفتاح يدور، وقبضة الباب تتحرك، دخلت راوية مردّدة كلام عيناء الذي سمعته وهي عند الباب ؟

أيّة أسئلة تريدين؟ لا تخاطبي المرآة ثانية، إنّها خرساء، فانا قبلك سألتها ولم تجبْني .

عمّـن كنـت تبحثـين ؟ أنـتِ كاتبـة وشـاعرة وتعـرفين نفسـك جيـداً، أمّـا أنـا فلسـت أدري مـن أكـون، أنـا أنـا مجرد لون يا سيّدة راوية .

وضعت السيّدة كيساً من الفاكهة والخضار، وبضعة أكيـاس مـن الفسـتق والجـوز والكـازو، غسـلت خيـارة وناولتها لعيناء، وطلبت منها وضـع دواء جلبتـه معهـا قرب السرير .

-ما هذا ؟ أهو دواؤك الجديد؟

-دعك منها، إنّها أقراص لمنع .. لمنع (ولم تكمل)

تناولـت عينـاء الخيـــارة وقضمت منهـا قطعـة كبيـرة وراحت تلوكها علـى عجل، وهـي تتطلّـع لكيس الـدواء وابتسامة على فمها ؟

. لمنع الحمل؟

رفعـت كـم قميصـها بعـض الشـيء، تنفّسـت بعمـق كمن يشهق :

. هل سمعت بحبوب منع الوطن؟

وضعت يدها فوق صدرها: عيناء يا بنت:

- هـذه الحبـوب نتعاطاهـا لننسـى هـذا (وأشـارت إلـى قلبها) وكي لا نلتحم به.

- لم ترتبك النظرات ولم تهدأ، بل أرادت التجرؤ على الأسئلة، ثـم ضـاعت بـين محاولـة السـيّدة تلافـي أيّ سؤال وطلبهـا تهيئـة الجلسـة، وكانـت يـداها ترتجفـان. سألتها عينـاء مـا إذا كانـت بحاجـة إلـى تنـاول الـدواء، شكرتها وأوضحت لعيناء:

- أنـا أسـمّي هـذا الـدواء دواء التصـبير ويصـفونه (للـدبرشن) أقصد التـوتّر العصبي، ومـا هـو إلا مهـدئ للجسد.

- تظـلّ الـروح تحـوم حولـه، تبصـق علـى بلاهتـه وسكونه، وتحترق منه وفيـه. تقف بـالطريق المعاكس له، روح زوبعة في سجن مهدود ثم تحترق وحدها.

ـ لـو كـان كلّ النـاس مثلك سيّدة راويـة لاحترقوا، أنـت عاطفية زيادة عن اللزوم.

ـ وهذا ما يذبحني.

تشـاركتا فـي إعـداد وجبـة غـداء سـريعة. السـيّدة تتـذكّر أشياء تشعرها بألمها فتغيّر ملامحهـا، وتحـاول

إخفاء الألــم. أمّا عينـاء، فأعدت بشكل جميل جلسة العصر، ووضعت المكسّرات في أوانٍ صغيرة، ثم خطر ببالها أن تسأل السيدة عن عمل كتابي سابق لها، وفرحت بردّ السيدة أنّها ستهديها نسخة من روايتها المطبوعة بعنوان (أقصي الجنون الفراغ يهذي).

- أهي لك؟

- إنّها لي وللسيدة التي أخبرتك عنها.

تحاول عيناء الاستذكار.. آ.. آ.. الروائية التي ستُنهي حكايتنا، أظنّك قلتِ لي مرةِ إنّ خاتمتنا ستكون في المعرض.

- سنرى ما يحصل، لا تستعجلي الأمور. بقي لديك أربعة أيام، ومازال لدينا متّسع من الوقت للخوض في تفاصيل كثيرة.

- هل يعون ما يفعلون؟

- مَن يا عيناء؟

- انظري.

أشارت إلى اثنين يتشاجران بعد نقاش حاد، أحدهما يصف الآخر بالملحد والمضلّل.

– ألم أقل لك اتركي التلفاز؟،

– لكـن الله يقـول : (ولا تنــابزوا بالألقــاب) ويقــول: (بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان).

ـ يا ابنتـي هذا الفسـوق بعد الفسـوق، دعـك مـنهم، واقرئـي الروايـة. اقرئيهـا دون أسئلة، لأنّـي أرغب فـي قراءة عميقة لموضوع سنتناوله اليوم.

– تفضّلي، ولكن..

– نعم، ولكـن.. قرأت عليـه إهداء جمـيلاً مـن الكاتبـة إلى قارئة مجهولة لمَ، أهو لكِ؟

ـ ربّمـا قصـدت إلـى قارئـة سـتجد ذاتهـا ضـمن العمـل، واصمتـي. أرجوك..

لطمت فمها بكفّها، وخرجت فقاعات هواء لـيس لهـا سؤال، تركت الصمت يأخذ مساحته في المكان.

خطـرت ذكـرى علـى بـال عينـاء، فاسـتعجلت نفسـها وردّدت الأرقام بصوت عال، ثم أغلقت الخط مفكّرة، مـا الـذي ستقوله لـذكرى، الراغبـة فـي زيـارة السيدة، كمـا أنّهـا تعـرف مسـبقاً ردّ السـيّدة عليهـا حـين تخبرهـا برغبتهـا، وستقول لهـا إنّـك مجرد فكرة. سـمعتها منهـا

مراراً؛ أنت لست حقيقيّة، أيامك معدودة. والمرأة التي تكون مجرد فكرة طارئة، هل تستخفّ بالحياة أم الحياة تستخف بها ؟

تمنّت أن تقتل وليداً وتقتل نفسها، فقد نفّذت له رغبته وأصبحت نسخة منه (كوبي)، تنطق بلسانه، تفكر بعقله، وترغب برغائبه. وهي من تكون؟ ماذا تحب، ماذا تكره، كيف ترغب أن تكون؟ ما الذي يبكيها ويفرحها؟ إصلاحها، عطبها، من له ومن يحويه؟ وهي ظلّ لرجل مهووس بغيرها.

أعادت التلفون إلى الطاولة، وحاولت استرجاع بدايتها، ومن البداية أرادت أن تعرف نهايتها؛ أعليها أن تستعدّ لحزن جديد؟ السيّدة منهمكة بقراءتها، وهي تحاول الابتعاد عن وهمها حادثتها محادثة العارف بما يجول بخاطرها :

- أجل، أجل، أيّامك معدودات. واتصلت بذكرى.

رجعت إلى الهاتف ثانية تلبية لطلب السيّدة :

- ذكرى اشتقت إليكِ.

واسـتمعت لحـديث طويـل عـن لقاءاتهـا مـع الأثريـاء ومغامراتها.

. لا تنسي يا ذكرى، أيامنا الباقية أربعة فقط.

. أين سنلتقي في آخر يوم؟

سـمعت وتكلّمـت، وأيّـدت معرفتهـا للمكـان والزمـان؛ اتفقنا إذاً.

ساعة ونصف من الخصوصية التي لا تفي بغرضها، اسـتماع لثرثـرة عـاهرة لا يجـدي ولا ينفـع. ضـجرت السـيدة، فالصـوت يقطـع عليهـا تسلسـل أفكارهـا. استدركت عيناء الموقف:

-سأتصل بك لاحقاً.

بعد انتهاء المكالمة وجدت في عيون السيّدة رغبـة في الاستفسار عن ذكرى، فقالت لها قبل أن تسأل:

– هذه المرأة عدوّة نفسها.

– كيف؟

. إنـها تجري وراء غزوها للجيوب والعقول. والغزو هـو الغـزو سيّدة راويـة، لقـد تعدّدت الأسباب والغـزو واحـد. لقـد حكـت لـي حكايـات تقشـعرّ لهـا الأبـدان،

تحـدثت عـن الجـنس دون حشـمة، مـا شـأني أنـا بالطريقـة التــي تمـارس فيهـا الجـنس مـع عشـاقها، وأعتقد أن من يضع سرّه فـي غرفـة فـي فندق أو شقّة مفروشة، يترك سريره في البيت مشاعاً.

. حكيمة عيناء، رغم قصر تجربتك في الحياة.

ـ حكمـة العورات لا تحتـاج إلـى تجربـة، لكن لمـاذا نسمّيها عورات، الله وضع سرّ الحياة فيها؟

كلّمـا زاد تعلّقها بالسيّدة راويـة، شعرت بشوق وألـم موجع في الوقت نفسه، تحاول استفزاز السيّدة للتمتـع بحديثها الجميل الذي لا يخلو من فلسفة وحزن وسعة معرفة، وفـي كلّ لحظـة تقاطع السيّدة التـي رغبت فـي استمرارها بالقراءة:

. لم تجيبيني سيدتي، ما هو رأيك بأنّ الله وضع سر الحياة في العورات ونحن نخجل من ذكرها؟

. الله جعل الكون كلّـه قائمـاً علـى ثنائيات الأشياء، وباكتمالهـا دون نقـص مـن أحـد يسـتقيم الكـون. هـو الـذي خلقكـم مـن نفـس واحـدة وجعـل منهـا زوجهـا ، يـذكرنا بوحـدة الإنسـانية وتكاملهـا (وخلقنـا مـن كـلّ

زوجـين اثنـين)؛ جمـع المتناقضـات جسـدياً ليكـتملا، وباكتمالهما تتوحّد الحياة.

حمدت عيناء ربّها وشكرته على حفظها، فقد وهبها قوة لتصون نفسـها مـن سوء الحيـاة رغـم مغرياتهـا. حيـاة محـدودة ابتـدأت بشـكل الزنـى ورأتـه أمامهـا، تأرجحـت بفرحتهـا، وشـعرت بأهميّـة الوقـار والعفّـة، وأهمية الحب الحقيقي، فقد اختارت البقاء قربه.

الإلغاء إن جاء من حبيب يصبح كالهياج المزدهر بألمه، يتّزن ويترنّح ويئنّ في آن واحد، انصياع جميل بابتهاجـه الفوضـوي، الأصـوات المحفـورة فـي الـذاكرة تصـبح بضـبابيّاتها مجـرد وهـم فـي حضـور صـورة الحبيب.

ليـل راويـة يطـول ، تتدافـع سـاعاته المظلمـة وتحتـدم، بقيـت السـيدة بأنينهـا، تتقلـب وتتحـرّك باتجـاهين، تتـنفس بعمـق وتسـند ظهرهـا إلـى الحـائط وتفرد صدرها. يتحرّك نهداها الطائشان بخبث تحت قميصها البنّي، تفرك شعرها وتمرّر أصابعها من خلال

خصـلاته الناعمـة، وحـين تـتكلّم مـع عينـاء تخـرج كلماتها مبحوحة لعمق صمتها واستغراقها في القراءة.
خرجت من فمها كلمات معسولة بإعجابها ممّا قرأته:

– الله، مـا أروعـك يـا جـلال الـدين الرومـي، اسـمعي عيناء ماذا يقول:(إنّ الله يهب جناحين لمن تخلّى عن حصاد الجسد).

– استعدّي لجلسة اليوم، هيّا لنغيّر ملابسنا.

ارتـدت" راويـة" جاكيتـا مقلّمـاً مـن جهـة واحـدة فـي الصدر بـأقلام بيضـاء رفيعـة، كمـا ارتـدت تحتـه ثوبـاً بسـيطاً، ومشـطت شـعرها كـالمعهود، إذ سـحبته إلـى الوراء وجمعته بـ" بمشبك" خاص للشعر. أمّا عينـاء التـي خرجـت مـن بيـت صـابر بثوبهـا الـذي عليهـا، شاركت السيّدة ثيابها الوقورة وإن بـدت عريضـة عليها قلـيلاً، كمـا أظهرتهـا أكبـر مـن عمرهـا الفتـي. أخـذت تضـفر شـعرها ضـفيرة واحـدة، جعلتهـا تتـدلّى علـى صدرها، وكرّرت شكواها من الشعر الطويل.

كانت شكواها حجّة واهية لتدخل إلى بداية سؤال :

- ألا يزعجك الضيوف؟ خاصّة شجارهم ونقاشهم، وقد أخبرتني بأنّه ينتهي إلى خصام أحياناً، لولا تدخّلكم؟

- لولا الضيوف لكانت البيوت قبراً؛ هكذا يقول جبران. وضيوف الأدب هم ضيوف الروح، إنّي أكره الحياة التي ليس فيها أديب أو شاعر.

- كلّهم فقر وعوز مثل وليد، حبيبي صورة مصغرة من جمع الأدباء.

- لا تتكلّمي عنهم هكذا. خُذي مثلاً تلك الشجرة التي عوّدتني أن أقف أمامها كلّ صباح، انظري.. أليست خضراء زاهية بلونها الأبيض، تستشفّ من النهار صفاءه ومن الليل حكمته.

- بلى والله لقد أغوتني حال دخولي.

- هكذا هم أهل الإبداع، يتألّمون وتبتئس قلوبهم، لتزهو سماؤهم في عيون القارئ كما الشجرة تماماً. هل جرّب أحدٌ أن يسأل الشجرة عن انفعالاتها، أوجاعها مع الريح، آلامها مع البرد، شعورها ساعة تورّدها؟ أبداً، لا لشيء، إنّنا لم نتعوّد على سؤال أنفسنا أولاً. أنا شخصياً أسأل الورود، أقف أمامها

أغازل جمالها. علاقتي معها تثير استغراب صديقاتي، علاقتــي مــع الطبيعــة والله علاقــة خاصــة لا يصــلها الإنسان العادي.

لطالما ضحكت عليّ إحدى الصديقات وهي تشاهدني أحدّث نفسي، وتسألني: ما بك يا راوية؟ فأجيبها: لا شيء، كنتُ أحدّث الله، أو كنت أسأل وردة. أغضب غضباً شديداً لقطع الزهور من أغصانها.. أنتِ غريبة الأطوار،. وليت الناس جميعاً بمثل شفافيتك.

تغيّر الهدوء إلى ضجيج، الكثير من الأخبار عن الأحوال الخاصة، والكثير من الانفعالات، تخمة الأخبار السياسية الجرداء جعلتهم يبتعدون عن تفاصيلها المتفككة. جلس اثنان منهم على الأرض متخذين من كرسيّ خشبيّ مسنداً لهما، إذ تركا الكرسي لضيفة أخرى شاركتهم بساطة اللبس والشعر وحسن الخلق.

بعد طرقــات خافتة يضرب الإيقـــاع ويحول المكان إلى قيامة، تعدّدت الوجوه، واهتزّت الأيدي مصافحة عيناء، حيث أثار جمالها الحضور. كلّ ما

تعرفه أنّهم أصدقاء للسيدة "راوية"، فلا بدّ أنّهم أدباء، شاعر على حافة بئر ينسج كلمته، أو كاتب ضاق بجسده فراح يبحث عنه مثل تأريخ مهجور. كانوا سبعة رجال وامرأتين، وكانت عيناء تنظر نظرة حائرة غير قادرة على التحرّر وفكّ لغز مصطلحات غريبة عليها، وكأنّها في اتساع غير قادرة على لملمة جناحيها فيه.

ثلاث ساعات خافت فيها عيناء من ظلّها، إذ لم تسمع عن ظلّ يواجه صاحبه، وكانت تخاطب نفسها وكان الظل يستهزئ منها:

- أنت مجرد ظلّ عابر.

لم ترَه يشبهها أو يأخذ هيئتها، كان انكساره على الحائط كعملاق. ظلّت غارقة معه، لولا انتباهها لشاعر توسّط المكان وراح ينشد:

هل أختار بابي الأخيرَ؟
أنا مسمار نفسي
علّق عليّ حوائجي البسيطة
باحثاً عن جدار

أنا مَن فرّت يداه منه

كيف أكتب بما لا يصدّقني به أحد؟

علا التصفيق وأطرقت الرؤوس وتنهّدت الصدور، بعد حدوث تصادم في الأمنيات وتلاحم حلمٍ بصدور فرغت من فرط ما تمنّته. وبقي السؤال الوحيد يدور في خوائها..

غـادروا مودّعين بابتسامة، كفكفت السيدة راوية عبثهم، ولملمت أعقاب سجائرهم المتناثرة. ساعدتها عيناء بغسل الصحون والمنفضات، جرحت عيناء إصبعها وهي تغسل قدحاً كُسرت حافته. لفّته بورق التنظيف وعصرته. لكن السيدة طلبت منها أن تضع عليه شريطاً من البلاستر، كما رجتها رمي القدح في صندوق الزبالة. وبهدوئها المعهود، ومثل قطعة حلوى رُشّ عليها ماءٌ مرٌ، جلست على كرسي في المطبخ تتأمل عيناء وتسألها:

- هل استعذبت الجلسة، أم صعبت عليك حواراتهم؟

أجابتها" عيناء" وهي تربط إصبعها المجروح:

-نعم، ولا. وهذا الشاعر مزّقت قلبي قصيدته.
-هذه ليست قصيدته، إنه يحفظها ويردّدها في كلّ جلسة.
-لمن هي؟
-للكاتبة التي ستطبق الجدران علينا، إنّها امرأة صموت ومتفجّرة في الوقت ذاته.
-توقعت أنّها قصيدته، ومن تكون الكاتبة هل تعرفين اسمها؟
ابتسمت راوية وراحت تسترجع مشهد الشاعر كيف وقف كأنّه يعزف معزوفته، تلفّظ القصيدة وكأنّها خبزة طازجة خرجت للتّو.
سحبت راوية كتاباً لكولن ولسن (الفن واللافن) قائلة:
– ستجدين الجواب هنا.
. أنا في حاجة لعمر جديد كي أتعايش معكم سيدة راوية.
مسحت قطرات ماء عالقة على الطاولة وقالت لها:

- في هذا الكتاب ستجدين أنّ الأدب الحقيقي هو حبس دهر في عبارة. سأعدّ طعاماً بسيطاً، هل تشاركينني؟

-بكل سرور، فأنا جائعة. وأتمنى بعد إنهاء الطعام واستراحة بسيطة أن نبدأ من حكايتك سيدتي، هل تمانعين؟

– لا أمانع. بالمناسبة، حين كنت خارج المنزل أخبرتني ذكرى عند مكالمتي أن محموداً الصحفي يسأل عنّي دائماً ولم تخبره عن حكايتي؛ لماذا لم أجده بين أصحابك؟

– سمعت عنه ولم أختلط به، له جلساته ولي جلسائي. يقول إمرسون:

– (الأخلاق الحسنة هي بعض تضحيات بسيطة). لكن المعادلة مع "محمود" تختلف، فالأخلاق السيئة تبدأ من تضحيات بسيطة، ثم تكبر وتتسع الهوّة إلى أن تصل الكرامة، ومثل هؤلاء لا يدخلون بيتي.

– أنتِ تذكّرينني بوليد، أنتم الموهوبون الحقيقيّون. أما الوصوليّون أمثال محمود، فهم.

– هم في المرتبة الأمامية، ونحن في آخر الركب؛ أمرٌ مذهل أليس كذلك؟

رغبة بالاستماع، وعودة لمتاعٍ قديم تركته "راوية" في صرّة قماش أزرق، استخدمته غطاء لرأسها وهي بين جدران السجن.. كان الحاضر يستطيل ويمدّ رقبته لماضيه.

فصـــــل

بحر يتّسع في إصبع

التلفاز إسفنج يمتصّ طالع الحقيقة .

***

من الجميل أن تحطّ قطاراتي في محطّات قديمة، وأن يكون بمقدوري استرجاع صيف جميل، وبالأخصّ يوم الأربعاء. لم يكن إحساساً عادياً، إذ بقدر ما سبّب لي من ألم شديد، كان جميلاً. فقد قرّر جنيني أن يرى الدنيا، فجاء نابضاً بالحياة، والحياة لم تكن عاجزة عن سحب أغطيتها الجميلة لتدثرني بعد ولادة قيصرية.

رحت أتأمل بعد صمودي أصابعه النحيلة، وعينيه الواسعتين اللتين كحلتهما أمّي بكحل عربي فبدتا

نصف وجهه. وكان عمري يمازح السنة الثامنة عشرة، كأمنية تبحث عن نفسها في أغنية جميلة.

كان ذلك يوم الأربعاء الموافق 1980/3/5 وفي وقت أخذت الأشياء التافهة تطفو كما لو أنّ المواعيد كلّها اتفقت معها على أن يبقى الخزي إطاراً للحظات التي نعيشها واللحظات القادمة. وكنت ألجأ إلى صغيري (فارس)، كلّما كثرت الجراح والتحمت مع بعضها، بقيت العيون الضالّة لا تفهم الواقع المعكوس على زجاج النوافذ، فتتحوّل الأماني إلى ضياع.

وقبل أن تكبر يداه الرقيقتان وترسما في حبوهما صورة لكفّ صغير على أرض، سبقهما الموت وأصبحت النخيل جاهزة للحرق.

الثمانينيّات نمت عميقاً في أحاسيسنا، في الحرب مع إيران من أجل اللا جدوى، ومن أجل صياغة اسم للطغاة. تلك الخيبة التي ضيّعت أبناءنا دون، ودون جدوى سجلّنا فيها نصراً للهزيمة، وفصّلنا ثياباً سوداً لوالدات الحزن المنقاد إلى الشظايا والحرق فوق دبّابات القتال.

فما كاد ولدي فارس يستوضح معنى الأوطان ويشرح لي أنّ الوطن ما يثيره ذلك الشيء الجميل في أرواحنا من صفاء نحافظ عليه قدر حبّنا أرواحنا، وليس الوطن ما نجده على الخارطة.

ما كاد يضع صورة لوطنه ويفهم أنّ اللعبة أكبر من طفولته التي لم تردّد قطّ ما كان يردّده تلاميذ الفصل من عاش القائد المنتصر؛ لأنّه استوعب ما نتجادل به في البيت وما نطمح إليه من فكّ لغز الازدواجية التي يعيش فيها طلاب المدارس بين ما يلقَّنون في الفصول المدرسية وقناعات ذويهم، حتى أصبحت الجهات الأربع منافيا لا تستوعب جثث العائدين من الجبهة بعد فضّ الحرب، كما لم يعد الماء قادراً على قراءة ما كتبناه على ضفاف الأنهر في طفولتنا.

كان التهجير والترهيب عنواناً لكلّ الآلام المتغضّنة، وأشرعة الرحيل ترسو بأبناء الوطن خارج الوطن، إضافة إلى طرد ما يتراوح بين خمسة عشر ألف شخص وعشرين ألف من الشيعة خارج العراق، واعتقال الآلاف وتعذيبهم وإعدامهم. وحين لم يحقق

الرئيس المغرور من حربه شيئاً غير نصره الفاشل، قرّر التوجه إلى الكويت عام 1990، فانتهى إلى حرب خاسرة وانسحاب الجيش المهزوم عام 1991، مازال كابوسها يخيم على صدور الشعب وأبنائه الأحرار. كان الجنوب شاهداً على العصر، وسيّداً شامخاً برفضه، والرصاص الذي ينصبّ على رؤوس أبناء الشعب الثائر رصاصاً من أرض العراق، ورصاصاً أمريكيّاً من سماء العراق.

كنت وزوجي نتعثر ببقايا جثث، ندفن أصابع وأرجل مبتورة حفظاً لكرامة الإنسان، وكان وقوفنا مع أبناء العراق محاطاً بالريبة والترقّب من جانب أزلام السلطة، الذين توزّعوا في أرغفة الخبز بين الماء والعجين. حصل ذلك اليوم ما توقعته، يوم كئيب صدمني.

خرج زوجي ومعه ولدي ليوصله إلى المدرسة، ولم يعودا. كما خرج كثيرون مثلهما، دون عودة معلومة أو مصير معروف. بعد أن صادروا كلّ أملاكنا، بيتنا وبناية في شارع الوطني ومزرعة تقع على شطّ العرب ومكتب زوجي، رموني في السجن بحجة أنّي لم أكتب

شعراً يمجّد الرئيس، كما فعل كثير من الشعراء المدلّلين والذين حازوا على البيوت والسيارات والبعثات إلى الخارج للدراسة.

شعراء عابرون انتشرت قصائدهم وأغانيهم كما تنتشر المزبلة، وهم الآن كالخراف مأمأة باسم الشعب العراقي، وباسم العراق يتستّرون على ماضيهم مثل النعام، وهم لا يدركون أو يدركون ويتجاهلون أنّهم معروفون لدى الجميع.

نرجع إلى وضعي في السجن، هل تعبتِ يا عيناء؟

– أبداً سيّدة راوية، أكملي، كلّي آذان صاغية.

– كان حلم لقائي بولدي وزوجي هو خبزي في زنزانة ضيقة.

لا أدري كم من الوقت استغرقنا حين اقتادونا من البصرة إلى بغداد، ونحن جمع من النساء والأطفال المقيدين. الأطفال أعياهم البكاء والخوف من شرطيّين احمرّت عيونهما من البحلقة على النساء، واهتزاز أثدائهنّ باهتزاز السيارة. هل الأوطان تقود أبناءها

مشحونين كالنعاج؟ تعلو وتهبط أجسادهم وفق سرعة السائق وبطئه؟

لم أعرف في أيّ وطن كنّا، كنت أبحث عن وطن عاصم لي وأحلم بوطن.

كلّ ما أعرفه أنّهم أدخلونا جميعاً في مكان مظلم، أو هكذا شاهدناه من خلال عيوننا المعصوبة. الأيدي مقيّدة ومثلها الأرجل، والعرق يصب بتصبّب الخوف في قلوبنا، خوفاً من المجهول المعروف. كنت أتعرّف على الأطفال من حركة أجسادهم الصغيرة المتباطئة، وأتحسّس شهقات الأمهات تستبيح جسدي المنهك.

أما الشتائم البذيئة، فلم تُبقِ لنا عِرضاً أو شرفاً أو كرامة؛ في رأيهم كلّنا زُناة مادمنا ضدّهم وضد القائد، كلّنا نساء قحاب من وجهة نظر عفّتهم التي تشوّه أبناء الأرض العراقية وتغتصب صغارها.

لست أدري لمَ اختاروا الاغتصاب الجماعي، فلم نميّز بين صرخات الأطفال والنساء. وأيّ أمّ لها قدرة شمّ رائحة شهواتهم والإصغاء لنزواتهم، دون أن تعرف أيّ الأطفال ابنها وأيّ الصرخات لطفل أمْ امرأة.

كلّ أمّ ميّزت طفلها شعرت بالعراق يتمزّق بين أصابع شرطة وسجّانين قساة، ساح منيهم على أجساد طاهرة أرداها الرصاص. فقد تطايرت أصوات الرصاص مختلطة بالصرخات، وهدأت، بينما نساء معصوبات الأعين مقيّدات إلى مقاعد ممتلئة بالمسامير.

كان الأطفال المفتاح الأول لأبوابنا، أحدهم كان في الثالثة عشرة، حقّقوا معه بحضورنا، كنّا أكثر من عشر نساء، عرفت عددهن من تعدّد نبرات الأصوات. أمّا الأطفال فلم أستطع إحصاء عددهم، لكن ابن الثالثة عشرة ميّزته من خشونة صوته. سألوه عن إخوته في الخارج، كيف وأين ومتى ولماذا؟ وجسد الطفل ينوء بحمل أسئلة لا يعرف أجوبتها، بينما الصفعات تشتد حتى غطّ في غيبوبة إثر ضربة قويّة.

سقط نتيجة الضرب أرضاً، فعمدوا إلى رشّه بالماء، لمّا صحا علّقوه من قدميه، وضربوه على ركبتيه بالعصيّ.

كان إصرارهم على تعذيبه بحضورنا دعوة تخويف للجسد الذي سيعلّق بعده، وسمعنا صرخة قوية صدرت عنه، ثم

ضحكة أقوى أطلقها معتوه يتلذّذ بالعذاب قائلاً: ها قد قطعنا عضوه الذكري.

تصوّري يا عيناء كم العالم صغير، فقد تعرّفت إلى أخيه وعلمت أنه بعد سقوط الطاغية استطاع أن يأتي به إلى السويد حيث يقيم الأخ، وتكفّلت الدولة السويدية بعلاجه في أرقى المستشفيات وخصّصت له مرافقين؛ إنّها الإنسانيّة المفقودة في أوطاننا. كما عرفت أنّه بدأ يتماثل للشفاء، وصار يمشي، لكن ببطء.

فأيّ أرض تزلزل أبناءها وتسلّمهم لشبح الموت؟. أهي خطيئة الأرض، أم خطيئة الحكّام الفاشلين؟ أم خطيئتنا نحن بتقديسنا لها.

**

في حرب الخليج الثانية، عاش الوطن بلا وطن. بتنا نسفّ أوجاعنا كما الريح والرمال، خوفاً من حفرة حلم نقع فيها، وحذراً من اتجاه قلب نتعلّق به. أما (عيون المها بين الرصافة والجسر)؛ فقد أتلفتها خيوط العنكبوت

والطائرات العاشقة لأجساد أبنائنا. فقد عبر أبو نؤاس؛ على عكازه، باحثاً عن ذاكرة قديمة، أو خمّارة.

بسطت عنقي على وسادة رثّة، وجدفت عكس تيار غرفة ضيّقة امتلأت بنساء عزل، تدثّرنا بدمائنا وصدى صرخات الأطفال الممزّقة أحشاؤهم، فقد فصلوا الأطفال الذين مازالوا على قيد الحياة عن أمّهاتهم. بتنا ليلتين نلامس حطامنا، إذ لا كلام في كأس الكلام، لكننا سكرنا بخمر معاناتنا.

أمّا أنا فقد خبأت حزني بين جدران صدري، وتركت صدري يستغيث:

- ماذا فعلوا بك يا ولدي؟ هل رموا فوقك زبالاتهم؟

ويتسارع إيقاع قلبي:

- ماذا لو اغتصبوك وأنت مقيّد؟ ماذا سأقول لأجيالنا القادمة؟

كي أشرح لهم لا بدّ أن أقرأ التأريخ بنظرة اكتشاف، بادئة من أوّل شريعة للقتل، إلى آخر حصار للهوية. أعطيت نفسي تجلّدها، ورحت أهدئ روع فتاة في الثامنة عشرة، أكلت الأحاديث دموعنا وشربت ما تبقى

في مآقينا. لاحت أمامي خارطة الوطن العربي، أسرجت حصاناً خشبياً ورحت أفلّي شعراته من القمل. دار الحديث بيننا حول مدرّسي مادة التأريخ الذين حشوا عقولنا بخرافة أبطالهم وغزواتهم الموهومة، خنازير مثل أسراب الجراد والذباب.

ازداد سعال إحدى النساء، فقد كانت مصابة بمرض الربو، شهقت استنجدت بنا. صرخنا جميعاً على حارس قريب من زنزانتنا، وبعد جهد وتوسّل أخذها إلى الطبيب، لكنها لم تعُد.

. هل ماتت؟

. أظنّ أنّهم تركوها تختنق حتى الموت.

. كلّ هذا وأنتم في بغداد؟

. نعم. في بغداد الرشيد. مازال الشرف يقود هودجنا، ويقودنا إلى سرير تلو الآخر.

***

قادونا ذات يوم إلى ساحة مسوّرة بسور عالٍ ومحاطة بالشراك حيث جرّوا فيها إحدى النساء، وربطوا كلّ رِجْل بسيارة، وانطلقت السيارتان متباعدتين، فتناثرت الأشلاء والدماء.

أدخلونا بعدها في غرفة زجاجية، يتوسط الغرفة حوض حمام كبير، بانيو، وضعوا فيه الأسيد.

سحبوا فتاة في الثامنة عشر ربيعاً، وأخذوا يغطّسونها ابتداء من قدميها بالتدرّج حتى رأسها، ثم أرجعونا إلى مكاننا في الزنزانة.

ـ هل نمتم سيدة راوية تلك الليلة؟

ـ ومن أين يأتي النوم، ورائحة الدم ـ والله، أقسم ألف مرة بالله إلى الآن مازالت في أنفي. سأذكر لك أن كلّ شيء بعيد عن العراق يعيدنا إليه، شئنا أم أبينا.

ـ هذا لأنّك كاتبة وحسّاسة جداً.

ـ ما يحدث لي قد يحدث لكلّ الناس.

تصوّري، كنت أتجوّل مرة في "الناشينال گالري"؛ تعرّفت على رجل انجليزي، دارت أحاديث بيننا، في

البداية لم يعرّفني بنفسه، فرحت أتفاخر أمامه بما لديّ من معلومات، فقلت له:

-هذا المكان يحتوي على أهم اللوحات. فهزّ رأسه مبتسماً، ثم رحنا نتجوّل، نقف مبهورين ببراعة الرسامين، حدثته باللغة الإنجليزية ولكن بلكنة العربي؛ هل تستهويك صور المرأة أم الحروب؟ فردّ علي:

- وأيّ نوع من الرسم تفضلين؟

-حاولت أن أهرب من سؤاله، واستعرضت عضلاتي بمعلومة قرأتها عن (ليونارد دافنشي) حين وضع لمساته الأخيرة في لوحة (الجيوكندا) وكيف تناول القلم بيده وكتب في كراسة مذكراته (إن جميع الحواس تتمنى أن تلتهم صاحبة هذه اللوحة، وخاصة هذا الفم الرشيق الذي يشتهي كلّ جسد أن يكون له مثله).

- أكمل لي معلومتي بأنّ اللوحة استغرقت معه أربع سنوات، كان يدعو دافنشي أصدقاءه الموسيقيين والمهرّجين لرسم البهجة في نفس "موناليزا" أثناء جلوسها، لذا ظلّت عالقة بشفتيها أجمل وأشهر ابتسامة. وقفنا عند لوحة امرأة عارية، وراح يشرح لي

كيف رسم (روبنز) النساء العاريات والبدينات، وقال إنّه يفرز من خلالهن رغباته الحيوانية المكبوتة، وإنّ الإحساس بالجنس هو الدافع الرئيسي وراء ذلك، رغم ما يدّعيه بعضهم من أنّ البدانة دليل الرخاء والخصوبة.

- فتذكرت التماثيل السومرية ولوحة فينوس وحولها أشكال من الفاكهة الشهية والخبز، بينما(مارس) إله الحرب ينظر إليها شزراً.

لعنت وقتها كلّ مدرسي الفن في بلادنا، إذ لم نتعلم من خلالهم كيفيّة تذوّق اللوحة. وكيف يتمّ لنا ذلك، ودروس الفن يستولي عليها مدرسو الرياضيات والإنجليزي.

– شطحتِ سيّدة راوية وابتعدت عن الموضوع كليّاً، هل هذه رغبة منك في إعطائي جرعة هدوء بعد ما سمعته عن السجن والتعذيب؟

– بل لكل حادثة حديث. وكلامنا عن العري أعادني إلى عرينا الجماعي، أمام المغتصبين. دوائر زرقاء وطعنات، ترسم نقصها على أجسادنا.

***

حين مرّت الظهيرة، كنّا منفصلين عن بشريّتنا أو بالأحرى شكلنا غدا لا يشبه البشر. تورّمت العيون ونزفت الأنوف والمؤخرات، وكلّت مقاومتنا حيث تجمّع السائل الكريه على أجسادنا كطفيليّات. حاولت إقناع نفسي بقدرة فوق قدرات الأنوثة، وتذكرت ما كان يردّد أبي عليّ:

- لا تجعلي أيّ شيء في الدنيا يستعبدك .

كانت صورة ابني تمرّ أمامي، وزوجي يضيء في داخلي إنسانة جديدة، إنسانة بعيدة عن المساومات لا يذلّها أيّ ظرف. وقف أمامي وقفته المعهودة بشموخ وكبرياء، كبرياء المتواضع، وشموخ العارف، أمسكني من يدي، نهضت دون ألم وكأنّي شُفيت من تدرّني وعافتني لمسته. قال لي:

- أنا لا أملك وجهاً للمساومة، أنا لا أعرف غير كلمة واحدة طُز فيكم .

ورحت أردّد بصوت عال:

- لستُ مَن تساوم، لستُ من تساوم.

***

حين صحوت من عُرينا الجماعي، وجدت نفسي ما أزال في المعرض، وأنّ الرجل الذي رافقني ينظر في وجهي. فقد تركني أسرح في أفكاري وآخذ راحتي في التجوال، وبهدوئه الرصين سألني :

- هل عُدت إلينا؟ لقد غبت طويلاً، هل وصلت إلى نهريّ (ايوفريتس وتايغرس).

تعجّبت لفراسته ومعرفته هويّتي، حين سألته عن ذلك أجابني أنّه يعرف الناس من ملامح وجوههم ومن سلوكهم، وأنّه عارف بثقافة العراقي وأصوله الحضارية التي ينهل منها في تعامله مع واقعه الثقافي أو الإنساني.

فقلت له :

- هل وجدتَ كلّ ذلك فيّ؟

أجابني مؤكداً ، وقضينا وقتاً فنّياً وثقافياً جميلاً.
حين تواعدنا، قال لي إنه سيجلب لي كتباً عن الثقافة الفنّية، إذا تسنى لنا لقاء آخر، وسيعلّمني دراسة اللوحة. وذكر لي اسمه الدكتور (وليم توماس) أستاذ في النقد الفني .

رغبت في المشي على ضفة نهر التايمز، ثم قصدت مصطبة على النهر في الجانب الآخر من" لندن آي" ، وجلست قبالتها أستمتع بالنهر.

حالما شممت رائحة مائه، رجعت إلى أوّل يوم وطئت قدماي أرض لندن، حيث كان وصولي إليها شتاء، وبالتحديد في الشهر الثالث. فقد شعرت وقتها أنّ المطر يتلصّص على تخوّفي من انزلاق قدمي في الشارع الممطر، كما اعتقدت أنّ كلّ شيء في الشارع يحاول استجوابي أو مراقبتي ورصد تحركاتي.

لمّا حلّ الربيع، وبعد أن شعرت باطمئنان تجاه ما حولي، احتضنت الطبيعة فأنا أعشقها، ورحت أحاكي أزهارها. كما عتبت عليها لأنّها لم تمرّ بالقصب والبردي، ولم تأتني بأشجار السدر وتهدني قليلاً من

جذع نخلة. راقتني قطرات الندى الملتصقة بورود بيضاء، ففاضت عيناي بالدموع، وأخرجت من حقيبة يدي ورقة وقلماً، وتركت إلهام الشعر يسترسل:

أيتها الطالعة مني
الداخلة إليّ
القمر في يديك غيمة
خُذي أفراس تعبي
وخوضي ماءك
أنت الصامتة الغامضة النطق
لي في دفترك بعض طفل
مثل عودتك في المرايا
ينتظر وجهك
أعطهِ أسماءك
أو اشهدي بأنكِ القطرة الحانية
الماء يظمأ أيضاً
كقيثارة نبي
حين تضيق بها التوبة.

لست أدري حين بكيت بعد انتهائي من قصيدتي إن كنت في حالة بتر المرض من ذاكرتي، أم أعالج المكان بالمكان، أم كنت في حالة اكتشاف للأماني؟

***

سيطرت عليّ بعدها حالة السجن، حيث النار تعوم في قلوبنا، والأرض القذرة تحضن ما تشاء من أجسادنا وتترك من ليس له مكان، فقد كنّا نتبادل الأمكنة، يقرفص بعضنا لمدّة ثلاث ساعات أو أربع، تتقلّص عضلات أرجلنا وتتورّم، لينام بعضنا، وتتوالى الأدوار.

كان المكان يرضع دماءنا، وكنّا نتقاسم القوّة ويشدّ القويّ منّا الضعيف. لم نكن نعرف بأيّة لحظة ستمتد لنا يد جلاد، ليلاً، فجراً، ظهراً، لا يهمّ؛ ما يهمّ هو إقلاق راحتنا وأن لا يغمض لنا جفن. كما لم أكن أعرف أنّ للّيل لساناً، يتحدّث معنا في كثير من الأحايين ليخفّف من آلامنا. صادقته وأخذته الفارس

والفرس، وعلّقت عليه ذكرياتي، يعطيني ما لديه وأعطيه أفكاراً ساهرة، وكم شعرت بيديه وهما تهدهدانني، كما أخذته غطاء وسريراً. حبلت ثلاث نساء.

– هذا يعني سيّدة راوية، أنّكم بقيتم مدّة طويلة في بغداد؟

– ستة أشهر لا نعرف بالضبط أين نحن، كلّ ما نعرف أنّنا في بغداد، وربّما كنّا في مكان آخر وهكذا يوحى إلينا.

***

مرّت أيام عصيبة، وذات جمعة وقف أمام زنزانتنا رجل طويل مزهوّاً ببدلته الخاكيّة، صمت برهة وراح يمشي في الممر، تتجول نظراته من زنزانة إلى زنزانة، ممسكاً بعصاه ذات القبضة الحديدية، استشاط غضباً لصوت فتاة تجرأت عليه وأهانته. كانت زنزانتها لصيقة لزنزانتنا، اقتربت من شباك صغير سمحوا لنا بشمّ

الهواء من خلاله، وأسمعته ما بخاطرها من حقد عليهم. أمر الحارس بإحضارها إليه، سحبها من شعرها وجرّها وهي تشتم وتبصق عليهم. وذهبت ولم تعد، طبقت القاعدة التي وضعت للمتمرّدين لديهم، والمتمرّد لديهم هو من يعلو صوته. كدت أصرخ أنا الأخرى حين شاهدته يمرّغ أنفها ووجهها كلّه في قاع الممر، ثم يسحقه بحذائه، لولا أن سحبتني إحدى النزيلات التي كانت في السجن قبلنا، وكانت أكثر تعقّلاً منّي، أو بالأحرى أصيبت بالبكم إثر تعذيبها.

-قالت إحدى النساء؛ إنهم يترجمون الزمن المرّ.

صرخت بأعلى صوتي؛ وما دخل الزمن بالنكرات. نطّت أخرى تئنّ من جرح الليلة الفائتة، ورمت بنفسها علي. لست أدري من أين اكتسبت تلك القوة وهي الخاوية الجسد؟ ربّما التحدّي أوخوفها عليّ من عقوبة لا نعرف كيف سيكون شرّها، وألجمت فمي كي لا أكمل، أشارت بإيماءات جاهدتُ للوصول إلى فهمها:

- ما مررت به البارحة لا أحبّ أن تمرّ به أيّة واحدة منكن.

-وما هي حكايتها ست راوية؟ من المؤكد أنكم تسامرتم بحكاياتكم المريرة.

-القصص كثيرة، بسبب أو دون سبب.

****

هذه امرأة شابّة لها طفلة عمرها ثلاث سنوات، وزوجها ينتمي إلى حزب الدعوة الإسلامي. دخلوا بيتهم واعتقلوا الزوج، ثم سكنوا معها في البيت، أي أحد يدخل دارهم كانوا يعتقلونه. حاول أخوها الاطمئنان عليها، حينما كانت تنظر من الشباك فأشارت له بعينها أن لا تحاول الدخول. عرف الإشارة وهرب مسرعاً، وفهم المراقبون إشارتها، فاعتقلوها مع ابنتها الصغيرة. لقد عذّبوها بالكهرباء، لكي ينتزعوا منها الاعتراف بمكان وجود أخيها.

حين رموها معنا آخر النهار، شاهدنا البقع الزرق والتغضن يملأ جسدها، ورغم قوّة صمودها، عادت إلينا ذات يوم من التعذيب بلهاء لا حراك فيها سوى

نظرات تائهة، كانت تهذي كأخرس يجاهد للوصول إلى كلمة. فقد اغتصبوا طفلتها الصغيرة أمامها، وقطّعوها بعد ذلك بالسكين، كلّما قطعوا يداً أو رجلاً رموها في حضنها. لم يذبحوا الطفلة دفعة واحدة، بل جعلوا صراخها يملأ قلب الأم ويرجف أوصالها. وآخر لحظة شقّوا بطنها ومسحوا وجه المرأة بأحشاء الطفلة. هل شاهدتِ قسوة في الكون كلّه مثل هذه القسوة؟

أصيبت المرأة بعدها بالبكم والبلَه، وأصبحت مجرّد جسد وعيون تنظر إلى اللا مكان.

– وأنتِ هل سمعك أحد وقت صرخت؟

– من سوء حظي، سمعني حارس آخر، ذو شارب طويل، عريض الكتفين، بسمرة داكنة وشعر أسود، أكرش وقصير القامة، تهدّل حزامه من تحت كرشه فبدت بدنه كروية.

***

زعق بأعلى صوته:

- من هذه القحبة؟

- صمتت الزنازين، وردّد الصدى قحـ..بـ..بـ.. ـه. لكنه بحكم تمرّسه عرف مصدر الصوت، وبما أنّ الاعتراف ليس من شيمنا، قادونا جميعاً إلى قاعة صغيرة ذات جدران من الاسمنت، وسدّوا الباب علينا، بعدها لم نشعر بما حدث لنا. كلّ ما نذكره أنّ العِصيّ دخلت مؤخراتنا، وأن الأحزمة الجلدية استقرت على أثدائنا وتوغّلت في اللّحم.

في نفس الليلة توفّيت طفلة صغيرة بحضن أمّها سمعتها تستغيث بالحارس كي يأخذ الطفلة ليدفنها، بعد أن توسلت وبكت أخذ الطفلة الميّتة ورماها في حاوية الزبالة، بقيت الطفلة يومين حتى عبّت الرائحة إلى أن حان وقت قذف القاذورات إلى خارج السجن .

كانت القلوب تتمزّق، والأجساد والعظام تهتزّ ألماً كالصرير، أمّا أنا فقد استطعت فتح عينيّ بعد غيبوبة بسيطة، فشاهدت سكاكين تلمع، وأصابع مبعثرة على الأرض، ومع ذلك لم تلفظ أيّة واحدة منهنّ اسمي، بينما ماتت ثلاث نساء إثر تيار كهربائي اخترق عوراتهنّ، وخوفاً منّي على الباقيات صرختُ:

– أيّها الأوغاد، أنا من لعنتكم، تف عليكم جميعاً من رئيسكم حتى آخر خنزير في حظيرتكم.

أعيدت الباقيات مسحوبات من شعورهن إلى جدران تصطك على أضلاعهنّ، وقادوني إلى غرفة الضابط (دحّام) ، كان الدم يسيل من أسناني، بعد أن كُسـرت أضراس فكي بضربــة قوية تلقيتها. تركني أقف أمامه مقيّدة فترة طويلة، شرب الشاي بتأنٍ، رفع قدميه على الطاولة، وفي أثناء ذلك كان يتصفّح ملفّاً بيده، يتطلّع بوجهي تارة وينظر إليه أخرى كأنّه يستتشفّ شيئاً.

مسح شاربه بزهو، وسألني عن اسمي. صمتّ برهة، ثم قلت له :

-العناكب عدوّة نفسها، سينقلب الزمان عليها ولو بعد حين.

- نهض من مكانه، ولكمني على فكي المكسور:

- مَن العناكب ياعاهرة؟ ثم عاد لأسئلته؛ ما هي مهنتك؟

وحاول إقناعي بأنّ الأوراق التي بين يديه ليست خاصّتي، ثم مدّ يده بإشارة خاصّة إلى شرطي واقف

عند الباب، أنزل الشرطي أحد الجنازير بسرعة. فصرخ به:

- أيها الأحمق، لم أطلب هذا، بل المنفاخ.

أومأ لاثنين ينتظران دورهما التنفيذي، فوضعت يدي على عينيّ كي لا أراهما متوجّهين نحوي، كنتُ أبحث عن نفسي في شوارع مهجورة، كانت الكرامة ساذجة ومبتورة، وهي تتفرّج على ملابسي المرميّة أرضاً وتبارك عريي المفضوح في دكاكينهم. صفعني أحدهم على عيني، ورمقني بنظرة قاسية لبرهة كأنه يستكشف جمال جسدي، وقال لي :

- عيناك جميلتان يا قحبة.

كادت ضربته تسقطني أرضاً، فتلقفني الآخر بين يديه، ومسكني من الثدي، ثم توالوا عليّ ثلاثتهم. بعد أن انتهوا، طلبوا من الحارس الذي قادني لغرفة الضابط أن يستمتع هو الآخر، لقد أكرموه بي لدقّة انضباطه.

وبين الإغماء والصحو، شعرت بشيء يدور في بطني وهي تنتفخ، كما كانت أحشائي تتمزّق. كان المنفاخ يشكو رقّة أحشائي، وأنا أصرخ من عبثيّته، تردّدت

كلمة ماء.. ماء.. بين شفتي حتى سمعت الضابط يأمرهم بالكفّ عن إيذائي قائلاً :

- لقد نفخنا فيها شهواتنا وستلد لنا عملاقاً.

- كلّ ما سمعته هو، حاضر سيدي. ولم أدرِ بعدها إن استمروا، أو أعادوني بعد تلك اللحظة.

في الصباح أفقتُ كطفلة ضائعة، لا ذكريات، لا وجود. كان صوتي يتقطّع في أغواره النائية، حاولت التحدث إلى رفيقاتي، وجاهدت كي أسمع أصواتهن. لم تعنّي شفتي المتورّمة وفكي المتهدّل، رموشي الملتصقة أقرب إلى الظلام فقد تغطّت بالورم فالتصقت. سألت ولا أدري هل سمعنَنِي؛ هل نحن في صباح أسود؟ وذكرتُ أمنيتي لقطرة ماء؛ وفي الحالتين لم يكن صوتي قادراً على ترجمة ما أريد.

هنّ مثلي أجساد متورّمة، فاحت منهنّ رائحة الدم المتخثر والبول. توقّعت أنّ بعضهن سمعنَنِي، فإذا بي أسمع أقوالهن المبعثرة في محاولة العثور على أرواحهن الضائعة ونشل أجسادهن المتغضنة من أرضية باردة. حاولت جاهدة النطق بأيّة كلمة فنفرت

منّي حنجرتي، تنبأت برحمة سقف يقطر في فمي قطرات ماء ولو كانت من مطر، لكن النبوءات طفت خارج لحظتي.

قلت في نفسي ما أجملك أيّها الحسين؛ وإذا بامرأة تنهض من سوادهـــا وبيدها رضيع ازرقّت عيناه، عبرت زينب الحسينية وحفرت بالقلب ثقوباً وآخت بين لهيبها ولهيبي، انتقلتُ إلى فضاء ضريح سلمان بن داود وضريح علي الشرجي؛ كان الفرات متواضعاً عاصماً للأفئدة. من أين له كلّ هذا اللقاح الذي يعشق أهدابنا المتعطشة للدموع؟

ساحت دموعي فحرقت جروح وجهي وأعادتني إلى واقعي المظلم. هممت بسري أعنّي ياربّي، ثم عدت كمن يهيم بنفسه.

مددت يدي للبحث عن أيّ شيء وإن كان حشرة فقط لأشعر بأنّي أملك حواسي. كان خبز الحياة في سوق (المغايز،وشاي أم البروم)، رأيت نخيلات صغيرات توضأت في نهر الخورة، شواطئ متلهّفة مثلي إلى خطوات تحاصر أبجديتها. أعشابي المتكسرة وخَزتني

فهاج ألم لم أقوَ على تحمّله، بدا لي خدر الكلمات يتباطأ، ثم ولّى وترك الألم يصعب عليّ تحمله.
امتزج صوتي المخنوق بكلمة لبيّكِ لبيّكِ يا بصرتي، أخلقي لي سماءً فيها آدم جديد، آدم لا يقطر بشهواته على نسائه العزل، آدم لا يصادر الوطن ويسحق أبناءه، آدم لا يبني المشانق ولا يسيل لعابه على احتلال الحكم. تذكّرت قول أبي لي دائماً (عليك أن تكوني وفيّـة لنفسك) وراح يشرح لي وأنا ابنة العاشرة فأيّة مصالحة تحضنني الآن؟

تمنيت الموت لحظتها، ها هي الريح يا أمّي تولول لعويلنا الصامت، حرّكت جهتي اليمنى لأستدير ولو بسنتمتر واحد، بجهدٍ سحبتُ كفّي إلى وجهي، صعقتني فلطحته. حرقني العطش فقرّرت الصراخ ضـدّ تدميري، لم أعرف من أين جاء الصوت، وكيف تقلّصت حنجرتي لتطلقه؟ ربّما لأني صرخت باسم الوطن والشعب، ولأنّ الوطن والشعب بداخلي رفضت كتابة شعر يمجّد الطغاة، أو ربما الوطن هو الذي صرخ عوضاً عنّي وبصوتي.

غادرت عيناء الغرفة، وجلبت لها كوباً كبيراً من الشاي، وقالت للسيدة راوية:

- لقد شعرت بالعطش مثلك، وحكايتك جعلتني أعطش بطريقة حتى لو شربت كلّ لحظة سطلاً من الماء لا يرويني. أكملي سيدة راوية، هذا الشاي سأشربه كلّه حتى أصحو لك وأكسر طوق النوم، لا تفوّتي عليّ الأحداث ولو كانت قاسية.

- كيف نكتسب مناعة ضد الشرّ يا عيناء؟ انظري هذا الجرح في يدي، هو أسورتي، كيف نكتب ضدّ خرقة بالية والعالم سجن؟

حرّكت عيناء ساعة يدها واستعطفت الدقائق بالاستطالة، وأن يكون بوسع عقاربها الاتساع لزمن يكفي لسماع أدقّ تفاصيل الحكاية. وحرّكت جذعها كمن يجلس على شوك :

- ما ترينه منّي الآن مجرد رماد، الرماد، الرماد دائماً هو الخصم.

تمدّدت بكامل طولها على الفراش، وفرشت ذراعيها تستكشف شيئاً، وقالت لعيناء:

– نحن في حالة تبادل بين الخريف والشتاء، وفي الحالتين نحن أوراق متساقطة.

- هنا أنا غريبة عن امرأة كنتُها، فما نفع تكوّري في غرفة متواضعة؟ ما نفع قلقي على الطفولة النقيّة واستحضارها لتحتشد على ورقي أو تمرّ عبر خجلي؟ هل أعالج غربتي برفض لمن غرّبني، وهل هذا يكفي؟ أعاين غليان الحرب، وأتتبّع أخبار التلفاز الكاذبة بواسطة عصابات إعلامية تخترق عدوانيتها لعراقيّتنا وعيوننا وأفكارنا. أيكفي أن أضع النقاب وأطالع ما بقي من الوقت لإحياء القليل ممّن مازال يحلم بوطن معافى وسليم بأبنائه؟ كيف نكتفي بما لا يكفي؟ ونحن خارج الوطن نأمل أن يصبح الاعتداء جميلاً.

عشتار لم تلطم على تموز جزافاً، كانت تعي أنّ اللطم الدائم لعنة أبديّة. لذا نحن في حاجة إلى أسطورة جديدة تعيد دماء عشتار إلى مآقيها.

تصوّري، الموضوع بسيط جدّاً، لا دخل لأسطورة أو خرافة فيه، فقط نفتح باب الدار ونغسل العتبة، فالماء هو الماء، والأجراس تنتظر ساعة أن نقرعها.

. إذن سيدتي أين العتبة التي غسلتِها وأين جرسك؟ الكلام سهل، والمهم هو التنفيذ.

– معك حق، أنا مثلاً حين ضاقت الدقائق حولي، لم تكفني الكلمة، بل عجزت عن انتشار وصف الرّعب ووصف كلّ عين وقلب يعتصر في انتظاره، فالرّعب حين يصبح قوتاً يوميّاً تفوح منه رائحة الحياة على شكل قذيفة تجعل الأرض تدور حول نفسها ونحن بين فكّيها نحاول التمسّك بمشروع حلم. أيمكن للتاريخ أن يكون لطيفاً معي ومع شعوري بالقرف منه؟

في لندن اختبأتُ بين سطور رواياتي، أحاول اصطياد هواء نقي ليس فيه غبار مراهنات وسياسة صراعات يوميّة مع الموت، والكتابة هي أضعف الإيمان، وكما

اختبأت بين السطور، خبّأت ذكرياتي في خزانتي ورحت أصارع الحبر مع أوراقه.

- لم لا تكتبين شجباً للأوضاع وتنشرينه في إحدى الصحف العربية في لندن؟

- لست ممّن يشجب لأنّ الذي يفعل ذلك يكذب على نفسه، وهذا ما يطلَق عليه الضحك على الذقون، كالشعارات المعهودة، الشهامة العربية والكرم العربي والنخوة العربية؛ وطز في شواربهم.

يا عيناء الزمرة الفاسدة كانت تعرف بأنّ الأوطان القويّة بشعوبها لا يمكن تفتيتها، لذلك قبل مباشرتها بحصار الوطن فتّتت شعبه وجزأته بحقدها الطائفي وشراستها الدموية، وها نحن خارج الوطن يأتينا الوطن على شكل موت بطيء. من أمريكا، من عمائم، من دكاكين تكدّست بضاعتها التالفة وراحت تفجّرها على شكل قنابل، والأهم من ذلك كلّه الأخطبوط العربي والفارسي، مسكين يا عراق مسكين.

لماذا يعيبون على القذّافي؛ انعزاله واتخاذه قراراً بالانفصال عن الجامعة العربية؟ أنا أعتقد أن مبادرته الشاذة هي الشذوذ الذي بحجم البطولة، فقد أوجعته الصفعة وحاذر متفادياً الصفعة الأخرى. كيف تعيش وتثمر نخلةٌ في ثلج العالم؟ ومن الضحية نحن أم الموت؟ النفط أم الأرض، الأسئلة أم الأحزاب بكلّ اتجاهاتها التي بدافع الظنّ تدافع عن خوفها وخسارتها في المشاركة؟

أحار كيف أوجّه السؤال لقاتل درّب القتلة على يديه، أمدّهم بكلّ فنون القتل والتدمير، وتفرّج على قتلنا ومقابرنا الجماعية؟ شمّ رائحة حليب أمهاتنا وهي تُستخرج من بين الأظافر المقلوعة، هل جاءت الجيوش من أجل تدمير حزب أم سلطته أم العراق؟

ولو غضضنا الطرف عن نواياهم كمّا غضّوا أبصارهم وقت حادثة "حلبچة والأنفال وانتفاضة آذار والمقابر" لوجدنا أنّهم جاءوا من أجلنا، نحن الشعب والأرض، من أجل تطهير عقولنا من الغالب والمغلوب لتضيع الحسبة. وإلاّ بماذا تفسّرين وجود نفس الوجوه في

الحكومة الجديدة، وإعطاء الفرصة لمشعوذين باسم الدين يقطعون الرقاب، وهناك من يدافع عن قتلة باسم المقاومة والدفاع عنهم بحق المواطنة العراقية.

عزيزتي، كلّهم لصوص، لصوص تبادلوا الأمكنة.

– إذاً، سيّدة راوية، ضاعت الموازين؟

– صدّقيني لو كلّ الأحزاب والطوائف والقوميّات مخلصة للعراق بداخلها لا طمعاً بحكم أو حصة، لأصبح البلد ملكاً لنا ونحن سادة.

– وما هو رأيك بصفتك كاتبة ومثقفة؟

– ها نحن شيَع وطوائف وإشباع غرائز وأحقاد عرقية، ومن منفى إلى منفى ضاع المشروع السياسي والوطني؛ إنّها رطانة الأخرس الذي يعرض بضاعته المستهلكة.

– لكنّك كتبت السماء تعود إلى أهلها؛ وعلى ما أعتقد أنّها رواية طويلة.

– على ما يبدو أنّها لن تعود، إنّه مجرد حلم، أو توقّعت أنّها...

– أنّها ماذا؟

– لا أدري.

– لقد صادفت الروائيّة الحقيقيّة وأنا أعرف نهجها الكتابي، تحاور أبطال أعمالها وتترك لهم المجال في اختيار الأسلوب الذي يرتأون الكتابة فيه.

طلبت منها أن نتحاور كأصدقاء، وأن نعيش اللحظة باللحظة معاً. فوافقت، وتركتني أحاورك الآن بصفتي كاتبة وأنتِ إحدى بطلات الرواية، وأنا أتحدث معك بصوتها، كانت تقول لي:

- سأدخل قلبك وأفتح أدراجه وأختار اسم دلال. لكنّي رفضته، وفضّلت اسم راوية.

- أهي تحبّك إلى هذا الحد؟

- بل أنا من قالت شعراً على لسانها، وأذكر أنها قالت لي مرة:

- ضعي يدك في قلمك وتعلّمي كيف تكون الكلمات.

لا تتعجبي يا عيناء، إنّها شاعرة وتعرف لعبة الكلمة، فقد قصدت أن أضع يدي في قلمي وأكتب الواقع المقلوب لأقرأه صحيحاً.

– إنّها كاتبة مجنونة أليس كذلك؟

– يعجبني جنونها يا ابنتي، والفنّان أو الكاتب الذي ينقل الواقع دون جنون يكون مشروعاً فاشلاً للإبداع.

أكملت الشاي ثم أعدّت لها كوباً آخر، وعادت كلّها رغبة في العودة إلى اللحظة التي انتهت عندها السيّدة راوية في السجن. قبّلت جبين السيدة راجية، فلبّت نداءها دون ملل قائلة :

. سأعود بك إلى غرفة نتنة بمخاطنا وبولنا ودمنا.

***

حاولت رفع فخذي عن الأرض، فاصطكت أصفادي وشعرت بدم ساخن يخرج من رحمي. كانت جدّتي تنصحني دائماً: (لا تثقي برجال لا يصلحون إلا للتأريخ، لأنّ التأريخ عاهرة فاشلة). أين هي الآن وماذا ستقول حين تعرف أنّ التأريخ ضاجعني؟ كلّ ما استطعت القيام به، هو فتح رمشي بيدي حين نزلت ثقيلة على وجهي، وحاولت بطرف إصبعي أن أباعد

بين الرموش. فزعت، لم تكن يدي، بل كتلة لحم زرقاء بينها وبين الموت شعرة.

سمعت صياحاً يئنّ وأجساداً تُسحل حين خلت الزنزانة. بعدها جاء من يدلق عليّ سطلاً من الماء البارد، وحُملت على يدي شرطيين إلى غرفة عُلّقت فيها جنازير، وتُركت عصي بطريقة عشوائية، طاولة صغيرة وضع عليها كأس ماء وجهاز ومسجل صغير.

تركوني وحدي أبذل جهداً لترى عيناي النور وأبصر نفسي، بقيت على هذه الحالة أربع ساعات حتى دخل ضابط وثلاثة من الشرطة، وكلّ ما أملي عليهم أمراً أجابوا طوعاً. كانت أمّي وجدّتي تحت ألسنتهم، لم أكتب قصيدة تمجّد الرئيس بحبري، فكتبوا قصيدتهم الحمراء على جسدي، حين امتلأ فمي بالدم فبصقت عليهم. فوثب أحد الشرطة : سيدي، ألا تراها قد تعدّت حدودها، ماذا تأمر؟ ثم مزّقني بيديه:

- أنتم المثقفون يجب أن ننهشكم.

بعدها صرت مجرد جثة تهبط وتعلو في الهواء، وشخير لذّاتهم يدعو لانتقام جديد. تجشأ الشرطي

الثالث كمن انتهى من وليمة دسمة، ولم أدرِ بعدها، كما لم أعرف كم مضى من الـــوقت وما شكل الألم وهو يأخذ شكل حياتي؟. فتحت منخاري وتنفّست، فاعترضني ورم، شيء بداخلي تحرّك و تقاسم خبزه المرّ معي. هل أخطأت بانتمائي لإنسانيتي وامتلأت بحب الوطن؟ أم التابوت يلاحق انتماءنا؟

***

بحذر الفرس من قشة يابسة ترفعها الريح قرأت آية الكرسي، وفي هذه الأثناء سمعت وقع أقدام قرب باب الزنزانة، حمحمت أسأل وأتوسل لصوتي. سمعت صرير الباب الحديدي، تخيّلته سيأتي بقميص يوسف، رفعت رقبتي قليلاً، وإذا بقطعة خبز وقدح ماء بجانبي ثم أغلق الباب. لم تطاوعني يدي، لكنّي تحمّلت ثقلها وأعنتها على الحركة، غمست طرف إصبعي في قدح

الماء فلا قوّة لي على حمله، ثم لعقت إصبعي لأبلّ ريقي.

كان البحر يسحّ في إصبعي، فقد أذابوا كمية من الملح بحيث وجدته بحراً. لم أجرؤ على ثلم الخبزة، دحرجت كرة يدي على بطني، كثر تورّمها كانت كالكرة. فاحت رائحة السائل المنويّ المتعفّنة، لزوجته حرّكت ما أملكه من تذكّري لمزبلة ليست بعيدة عن حيّنا، إذ كانت تلجأ إليها امرأة مجنونة حاسرة الرأس ترتدي ثوباً ممزّقاً، والصبية الذين خذلتهم الأبوة الناقصة والمتسلّلون للقرية بشوارع ذئبية، كانوا صحبتها وأعداءها في الوقت ذاته، يضربونها حين تعثر على بقايا طعام في المزبلة، كما كانوا يضاجعونها تباعاً. الرائحة نفسها ملأت أنفي ساعتها، وضجّت بها زنزانتي الانفرادية.

أين أخذوا بقيّة النسوة، ولمَ سجنوني وحدي؟ أسئلة بلهاء. سمعت وقع خطوات وقفت عند بابي لبرهة، ثم غادرت. خطرت ببالي صورة الغربان المحلّقة فوق تل الأزبال، تمنّيت لو أملك بعض قوة لأحكّ

صدري، فقد اجتاحتني حكة مؤلمة كشكّ الدبابيس. ورأيت الغربان تحوم حولي، تغطّس مناقيرها في عفن المزبلة وتحلّق حولي.

لم أرَ الفهود والصقور، فتبادر لذهني صوت الشعراء، أما كان الأجدر بهم أن يتغنوا بصوت الإنسان؟ الفهد والنسر والأسد كلّها كواسر، هل بالكواسر تقاس البطولة؟ أم بصوتي أنا؟ أنا السؤال.

ولكن الحكّة الملعونة تنهشني، تمنيت أن تصبح الجدران أصابع وتحكّ بطني، لسريان الدم على فخذيّ حرارة جميلة، هذا يعني أنّي أملك جسدي، أملك الشعور به.

خفت إن مرّ ولدي بما أمرّ به، وساءلت صورة زوجي التي لم تفارقني:

- أتراك أخطأت اسمي حين كنت تدعوني وطني؟ أنت المتيّم بوطنك، أتراني مازلت وطنك وهل لي الأحقيّة أن أكون الوطن الذي تحب؟ هل بإمكانك أن تنظر إلى وطنك المسجّي على أرض زنزانة حقيرة؟ أم ستغمض عينيك؟ أظنك ستسدّ أنفك؟ أتراك تسمعني أم.. ويحي،

لا.. لستَ ميتاً. انظر ها هو أبي قد عاد، امتلأت يداه بالحلوى؛ والعيديّة، رأيت أبي يقف على السقف وعلى الجدران وعلى الأرض؛ وأمّي أين ما اتجه بصري تكون، امرأة جنوبية الملامح.

حرارة الدم وصلت لكتفي، هُيّئ لي أنّ النخيل تنحني علي، كما هيّئ لي أنّ الباب سيُدفع بقوّة. لم أتبيّن الوجوه، إن لم يخنّي حدسي، كانت بينهم امرأة سمعت بعض الكلمات منها:

- يجب أن تُنقل إلى المستشفى، إنّها تنزف. ردّ عليها عبد سيّده:

- عالجيها هنا، قحبة وتنزف، شكو بيها.

- أعتقد أنّها سألته؛ وإذا ماتت؟. أجابها:

- عندنا كلاب هواية، نحن كلابهم الكثيرة تخيلي يا ابنتي.

شعرت بدبيب المصل في عروقي، المكان يدور، والوجوه تدور، والسقف يعلو ويهبط، الأصوات تبتعد، سمعت كلمات لم أفهمها، أدوية، ثياب، دم.. الوقت لم

يكن لي، والشرطيّات يستبحن أزرار ثوبي، كلّ شيء غامض، حتى أنا بعدتُ عني.

- من المسؤول عن كلّ هذا الدمار يا سيّدة "راوية"؟ أصحيح أنّه الزمن المرّ؟

لا يا عيناء. العيب فينا، نحن لصوص والزمن أكثر رقة منّا، بل يرجو الستر من عيوبنا. نحن عقارب الساعة، ونحن الزمن، لذلك نأكل بعضنا.

سيّدة راوية، حين ذكرت الشعر والشعراء في حديثك، وما قلتِه عنهم حقيقة، إذ لا فرق بين فارس وقاتل.

– برأيي أنا ليس الفارس من امتطى جواداً وصال وجال وقال؛ ها أنذا، بل من يحمل بيده معول التهديم ويهدم كلّ ما لم يمت للإنسان بصلة.

الإنسان المسكين الذي عادته الأديان والمثل والأخلاق، كلّ الفلسفات ومكارم الأخلاق، وعلى الإنسان أن يطحن نفسه في طاحونة أوامر تهديد ووعيد وعبودية. كن، عليك، لا بدّ، يجب، احترس؛ وهكذا منذ أن يولد. يولد في أوامر، ويموت في أوامر. ما من فلسفة حاصرت الجوع والعراء وكيّفتهما ليكونا

طوع بنان الإنسان، حتى الأيديولوجيات تحايلت عليه، لذلك اغترب الإنسان.

- إنّها نظرة تشاؤميّة سيدتي.

صدقيني حتى نحن نمارس القمع ضدّنا، فنغزو الإنسانيّة باسم حريّة الإنسان.

كلّما اشتدّ عودنا، بطش حكامنا بنا. نزداد قوّة وهم يزدادون بطشاً، والقطار يسير والمسافرون سحابة تتكسرّ على بعضها. ترى ما تقولين عنّي يا عيناء، وقد سمعت جزءاً بسيطاً من حكايتي، وأراك ترتعدين كلّما أوغلت بالوصف وتديرين وجهك من نظرة عيني؟

- صدّقيني سيّدتي، أنا أهرب من ألم يفترس نظرة عينيك، وحين تشخصين البصر، أعرف أنّك أمام ذكرى لا تريدينها أن تغادر فتمسكين بها طويلاً.

خلال حديثك أراقب تحركاتك، ترفعين عينيك إلى السقف وبشكل مفاجئ تعودين أدراجك، ومن أنفاسك المتصاعدة تبكي دون بكاء. لم هذا التجلّد؟ دعي الدمع يغسلك، فالشمعة تبكي باحتراقها وتضيء أيضاً.

– يا عيناء من يعش مع الموت لحظة بلحظة ويخنق صوته لئلا يشمت به الموت ومن يريد إماتته، لا بدّ أن يرعد مع روحه ولروحه؛ فما قيمة ماء مالح يطهّر وجعه؟ لأكمل:

***

- تركوني، أربعة أيام أمضيتها بين إغماءة طويلة ويقظة شبه محتملة. ليس هناك سوى رجفة في صدري، ونبض عانق أرضه الباردة. لعنة أشباح تعبر وتروح يدفعني حدسي إلى معرفتها، غير أنّها تغيب وبغيابها يغيب كلّ شيء حتى أنا.

أفيق لبعض ثوان، وبين الفينة والفينة يُدفع الباب، والمصل الراحل عبر دمي يحاول إنقاذي وإعطائي نبض حياة في وقت نفدت به القدرة على تحريك لساني.

مع الأصوات رأيت ثعباناً يفتح فمه، حدّقت بقوة حتى برزت عروق جبهتي وصدغيّ اللذين شعرت بهما يتورّمان. التفّ الثعبان حولي، فتصلّبت، شعرت بيد تقبض على يدي؛

- هل تسمعينني يا راوية؟

اهتز بدني ورجفت بزوابعه متحدّية الموت، ورغبة في التحدّي، أتحدّى من أجل التحدّي. رغبت أن أقول لهم إنّ موتي يتحدّاكم، بربع استدارة, مال رأسي جانباً. اقترب الشبح من وجهي، غاصت عينا شبح ثعبان في أحداقي، أمسك يديّ بقوة وهزّني ثم رشّ ماء بارداً في وجهي، ارتعدتُ بين يديه في احتفالية التضميد رغماً عنّي. عربدت، التهمت الكلمات، شدّني الشبح بعجالة و أدار وجهي إليه، برودة الهواء جعلتني أنتعش قليلاً.

تسرّبت البرودة إلى أعضاء جسدي العليل، رغم مرور المطهّر الحارق على جروحي كنت أصرخ من برودة الجراح، همس الشبح بقوة:

- أنت قويّة يا راوية، أنا طبيبتك هل تسمعينني؟

اختلطت الأشياء أمامي، كانت مواكب عاشوراء محتشدة قربى، ضاربوا الجنازير والقامة، الطبول والرايات السود.

خرجت امرأة من وسط الحشد، اتجهت صوبي، خفضت رأسها. من التاج الجميل عرفتها، فقد كنت أتوقعها زينب أخت الحسين، أشارت إلى الحشد أن يمارس طقسه. في تلك اللحظة أعانني صوتي، قلت لها:

- أنت تندبين على تمّوزك، أمّا أنا فلم أندب لأنّي أقوى منك. أموت فداء لمن أحب، أمّا أنت فتلطمين ندماً كي يخرج تمّوزك كلّ عام. تملكين موسماً واحداً للحياة، ولي كلّ الحياة التي سأهبها لعراقي الحبيب ليبقي أبد الدهر.

شممت رائحة غريبة، امتلأ المكان بالشموع وغاب حشد العزاء، تجلّدت وسحبت يدي، مددتها صوب ولدي الذي جاء برفقة أبيه وقدّم لي تفاحة ثم سألني:

- هل تألّمتِ كثيراً يا ماما؟. حدّجَ أباه في نظرة تتوسّل البقاء، وطلب منه أن يأخذني معهم، لكنّ زوجي رفض، وأوقد شمعة أدناها مني قائلاً:

- هذه لها، لم يحن وقتها.

تركا الشموع تنير المكان وغابا بلمح البصر، وأعادوني إلى رحلتي مع الشموع، ابتدأت تلك الرحلة مع حلم رأيته في المنام.

كان ولدي مصاباً بمرض الحصبة، طلبت منّي جدّتي أن ألبسه دشداشة؛ من قماش أحمر، عملاً باعتقاد قديم ورثته من أجدادها، كما أعدّت له حساء العدس. كان ولدي الهزيل في حضنها تتحاشى النظر في عينيه الذابلتين، خنقها الألم وهو يلــوي عنقه بصوت خفوت، امتلأت عينـاها بالدموع،

وطلبت منّي أن أقرأ على رأسه سورة مريم؛ وراحت تتلو ما تحفظه عن ظهر قلب؛(كهيعص، ذكر رحمة ربك عبده زكريا) حتى آخر الآيات، ودعت بعدها أن يحفظه الله، ووضعته في حضن أمّي ثم دخلت تصلّي ركعتين، وطلبت منّي أن أقف وأدعو لولدي.

وفي تلك الليلة شاهدت العذراء تقودني من يدي وبيدها فانوس، أدخلتني مكاناً واسعاً بدا كشكل كنيسة، وقالت لي:

- ادخلي هذا بيت ولدي، ادخليه ولا تخافي.

ولما حكيت لأمّي عن حلمي، طلبت مني الذهاب إلى الكنيسة وأن أوقد دستة شموع. زغردت جدّتي؛ خذي ثلاث دستات. وفعلت ما أُمِرت به، وحالما وصلت الكنيسة سألت القس عن تفسير حلمي، فوجدته يبادرني بالسؤال:

- هل قرأتِ سورة مريم؟

وأشار إلى مكان المحراب، وابتسامة عريضة على محيّاه.

. سيّدة راوية اسمحي لي بسؤال.

. تفضّلي.

. هل المسيحيّون يدخلون بيوت الله في العراق؟

. على زمني يا ابنتي، لا فرق في العراق بين مسلم ومسيحي، وأقصد وقت كنت طفلة حتى فترة المراهقة، حين كانت القلوب صافية لا مكان فيها لحقد طائفي أو قومي. وأذكر أنّه في رمضان كنّا نوزّع الأكل على بيوت الجيران جميعاً، والبيوت متراصة بين مسلم

ومسيحي وصابئي، سنّي وشيعي، يشاركوننا أعيادنا ونشاركهم أعيـــادهم. أذكر وأنا طفلة أنّه كان لنا جيران نصارى، وفي أحد أعيادهم يوقدون النار في الشارع، فنجتمع كلّنا من أديان مختلفة نشاركهم النط على النار ونأكل المنّ والسلوى؛ الذي صنعناه بأيدينا قبل ليلة مع (الكليجة) .

وفي عاشوراء كانت تشاركنا نساء الصابئة في الطبخ، حتى أسماء بعض أولادهن علي وحسن، ولي صديقة نذرت أن تسمي ابنها عليّاً حين تُرزق بولد؛ واسمها الآن أم علي.

تتداخل النذور بتداخل القلوب، وما فعله الحاقدون بحقدهم الطائفي في تفريقنا دار عليهم وأحرقهم الزمن بحقدهم. والمصيبة أنّ الدور استمر والحقد طفا كما يطفو الزبَد.

– سيّدة راوية هل أنت مرتاحة مع صحبتك المثقفة؟

– أحياناً أشعر أنّي جثّة تسير في الطرقات، جثّة مسجونة بحزنها، والناس الآن متعجّبة من منظر المقابر الجماعية وصور الأطفال.

* * *

لقد رأيت هذا بأم عيني. فقد ربطوا مرّة طفلة من قدميها في سيّارتين وانطلقت السيّارتان حتى تناثرت الدماء، وكان ذلك أمامنا وأم الطفلة خرّت مغشياً عليها. وفي اليوم نفسه وضعوا طفلة أخرى عمرها ثلاثة عشر عاماً في مفرمة بحجم خلاّطة الاسمنت، بدأوا بإنزال قدميها بالتدرّج حتى رأسها.ماتت أمّها في حينها، وعرفنا حكاية الأم من صديقة لها معنا.

أبُ تلك الفتاة أخذوه في إحدى الليالي، وبعد عشرة أيام اتصلوا بالزوجة وطلبوا منها عشرين ألف دينار كفالة لزوجها فهو بريء. وعندما ذهبت الزوجة وابن عمّ لها إلى مديريّة الأمن ودفعوا الكفالة، سلّموهم الرجل دون أحشاء ودون عيون، فقد شاعت في تلك الفترة ظاهرة بيع الأعضاء للأثرياء، وفي اليوم التالي أخذوا العائلة كلها. وإني أطرح السؤال:

-أين كانت الأقمار الصناعية والتكنولوجيا العظيمة التي تخترق حتى مرور الشبح على الجدران؟

أنا أعتبر كلّ العالم مشتركاً بهذه الجريمة. كلّ العرب الذين دافعوا عن السلطة بصمتهم، والذين دافعوا ومازالوا يدافعون بأصواتهم، كما أين الغرب كلّه بما فيهم الولايات المتّحدة الأميركيّة؟

حال وصولي لندن وأنا في طريقي إلى الهوستل؛ كنت أتساءل؛ هل جئت أفتش عن حياة أفضل أم هربت لمجرد الخوف من الموت؟ كنت أنتزع اللحظات والساعات كما تنزع مغتصبة ملابسها، وفعلاً تمنّيت نزع كلّ ملابسي حتى الجوارب، ورميها في الشارع. ربّما هي حالة هروب من كلّ ما لوّثني حتى نفرت من ثيابي ونفرت مني. وبما أنّي أشاهد العجائز الأنيقات بقبّعاتهن الجميلة المتناسقة مع الجاكيت، أرجعت جوربي إلى وضعه في محاولة المقارنة بين العجائز في العراق وعجائز لندن الهادئة المطمئنة المصانة من الدولة ومن الشارع والناس، ممّا يجعل كبار السن متشبثين بالحياة، متلذّذين بما تبقّى لهم من أيّام؛ بينما

التآكل في العراق يبدأ في سن العشرين، عصّابة سوداء، عباءة سوداء، ثياب سود، وقلب تفحّم بألمه.

حين دخولي الغرفة المخصّصة لي في الهوستل تركت أبسط أشيائي تأخذ لها ركناً، وجلست على الفراش أتصفّح أثقل الذكريات وأوجعها. وفي أصباح متكرّرة أخرج إلى الشارع، ألتقي بالناس وأبعد عن نفسي الوحشة.

أفرح بالبخار المتطاير من الأفواه، أشمّه وهو يردّ على تحيّتي ويواصل الحديث معي في كلام لا أفهم نصفه، ونصفه أستطيع ربطه بمعنى الجمل.

وبعد قبولي كلاجئة سياسيّة أعطوني شقّتي هذه، أوّل يوم دخلتها أفرحني دكان عربيّ قبالة البناية. تركت الشقة غير مكترثة بمحتوياتها، ودخلت، صاحبها سوداني، راق لي منظر البقلاوة وقمر الدين والبسبوسة، والأكثر الكلام العربي.

اختلقت حديثاً مع البقال، فقط لأسمع لغتي. سألته عن أرقام الحافلات في منطقتنا (72، 7، 70، 53) قال كلّها في خدمتي. وتعدّدت الأمكنة والأسئلة والأجوبة،

وهذا الرجل هو دليلي إلى ما أجهله. تحت البناية بار يرتاده العمال الكادحون، في الشقة المقابلة شاب أفريقي حاول سرقتي مرة.

– كيف حصلت على شقّتكِ؟

– لم أحصل عليها بسهولة، كانت الأرض تأتيني على شكل مساحات متعدّدة، فإذا انتظرت سكن الدولة يعني مزيداً من الوقت في الهوستل المُمِل، لذا بحثتُ عن شقّة استأجرتها والجهات المختصة في الدولة هي التي تدفع الإيجار لي. فكنت أستقل المترو، وعلى خط بيكاديللي؛ أدخل وسط المدينة متصلة بالأصدقاء المكتوبة أرقامهم لدي، اتصلت بصديقة قديمة كانت بيننا صداقة حميمة، وعرفت أنّها تشتغل في مكتب تأجير. فرحت لذلك، وتوقّعت أنّي سأصل لما أريد، واتفقنا على يوم اللقاء. وقت التقينا كانت الدموع وسيلتنا الوحيدة، وحصلت عن طريقها على غرفة صغيرة في منطقة كلبرن.

صعدنا درجاً ضيّقاً مكوّناً من خمس وعشرين درجة وغير مضاء، وجدت الغرفة متسخة والغبار يتطاير من

غطاء متهرئ. الأرضية وسخة إلى أبعد حد، والحمّام أسود وبقايا الغائط عالقة فيه.

نمت ليلتها دون تدفئة، استطاعت صديقتي الحصول على بطّانية من شريكها في العمل، وأخذت مائتي باوند مقدّماً كي أحصل على الماء الساخن. تفحّصت حقيبتي لم تَجُد عليّ بمئتي باوند، رجوتها أن تدفع هي، وآتيها بالمبلغ عصراً. وافقت على مضض، رغم توقّعي الخاطئ بأن تدسّ في جيبي بعض نقود، كما خاب ظنّي بأن تبادر لدفع أجرة أسبوع عني. نثرت شعرها الأسود وتفحّصته في مرآة متسخة، مؤكدة لي أنّ صاحب الغرفة يريد أجرته عصراً.

نزلت خلفها أتفحّص الشارع الطويل المكتظ بمحلات الملابس ومتاجر الأغذية ومكاتب العقارات، المارّة مسرعون متعدّدو الألوان، أبيض، أسود، أشقر، شاب. أصابني بغثيان منظر رجل هندي وضع مساحيق التجميل على وجهه، فبدا مبقعاً ومشى يتثنى. واصلت البحث عن محل مجوهرات يشتري منّي أقراطي وخاتمي البسيط وساعتي، كلّ ما تبقى لي من ثروة.

وقتها صودرت أملاكنا، بستان زراعي يقع على ضفاف شط العرب، وبيتنا بمحتوياته كلّها حتى ملابسي وملابس زوجي ولعب طفلي، وكذلك مكحلة جدّتي الفضيّة إذ كنت أضعها في حقيبة مجوهراتي. أهدتني إيّاها قبل وفاتها، فقد كانت عزيزة عليها جداً تعود إليها كلّما أصابها صمت مفاجئ، ثم تخفيها تحت مخدّتها. ارتعشت يداها وهي تسلّمني إياها، وطلبت منى الاحتفاظ بها والمحافظة عليها، ثم أهديها إلى ابنتي إذا رزقني الله بابنة.

ارتعشت روحها حول المكحلة في ساعتها الأخيرة وهي تقصّ عليّ حكايتها، وكيف حصلت عليها من حبيبها الذي مات بحسرته عليها بعد أن زوّجوها من ابن عمها قسراً.

وحين رأيت سرقة المتحف العراقي شاهدت جدّتي ترتدي الهاشمي؛ وتطوف بالشوارع، تشير بإصبعها إلى كلّ الجهات، تتأبّط ذراع الوقت وتختفي، فقد نقش حبيبها اسمها على المكحلة.

فرحت لتثمين البائع لثروتي بـ(300) باوند، إذ ستبقى لي مئة للتقوّت. ذهبت إلى الصديقة، وضعت أمامها المائتي باوند، واستأذنتها في استعمال الهاتف. اتصلت بصديق لزوجي، صرخ حين سمع صوتي؛ راوية أين أنت يا ابنتي؟ دلّيني على عنوانك، وابقي حيث أنت حتى أصلك خلال نصف ساعة.

لم تمض نصف ساعة، وإذا عبد اللطيف فواز وصل فاتحاً ذراعيه على مصراعيهما، واحتضنني قائلاً:

- ابنتي العزيزة.

وقبّل جبيني. تعوّدت أن أدعوه عمّو؛ فهو بسن والدي، واحتراماً لصبغة شعره وتشبّبه قلت له:

- شلونك خُويه على طريقتنا العراقية طبعاً، إن شاء الله تعافت عيناك؟

تلعثم الرجل، وابتلع ريقه، متفادياً أسئلتي عن صحته. جرّني من يدي مودّعاً صديقتي، وطلب من السائق الذي وقف بالسيارة على جانب الطريق أن ينطلق بنا إلى مطعم بغداد في ويستبورنج جروف . الخبز العراقي

والكباب وصحن السلطة، أعادوا لعودي توازنه؛ فمنذ مغادرتي العراق لم أذق أكلة لذيذة.

آخر وجبة كانت رغم أنّي كنت على عجالة ومتخفية بصمتي وريبتي، إلا أنّ طعم "دولمة" أختي مازال بفمي، لفّتها بدموعها وحشتها بخوفها علي من المجهول، ومن ما قد يصيبني في رحلتي عن طريق كردستان.

جلست لوحدها تهيئ الدولمة، لم تطلب مني مساعدتها لئلا يطرق الباب طارق، أو تدخل إحدى الجارات دون استئذان وتراني، فالبيوت مفتوحة دائماً للزائرين.

وبما أنّها لم تعلن عن خروجي من السجن، تركتني أقضي الوقت في غرفة نومها.. ووقت جاءتها الجارة أم عادل تطلب منها خميرة لعجينها، كانت تردّ على أسئلتها اللحوحة باقتضاب.

فأم عادل ثرثارة، كما كانت تتفحص البيت بنظرة المستكشف، هي عادة اكتسبتها من أمّ زوجها وتطبّعت بها، فأطلق عليها وصف وكالة رويتر.

انزعجت أختي من سؤال ملحّ عن ترتيب البيت ووجود ملامح فرح فيه، وقد فتحت الجارة أغطية القدور وشمّت رائحتها متسائلة:

. عندكم خطّار اليوم؟ كم عددهم؟

حدقتها أختي بنظرة ساخطة:

-ولمَ تسالين؟ هذا ليس من شأنك.

استمرّت في استدراج أختي وحثها على الكلام، وفيما هما في شدّ وجذب في الحديث دخل ابن أختي "نضال"؛ وقد وصل لتوّه من بغداد لرؤيتي، بعد تلقيه شفرة؛ ذكرها أبوه عن طريق أحد الأصدقاء. عاد متلهفاً لرؤية خالته التي تربى في حضنها ومع ابنها، دفع الباب بقوة؛ أين خا.. ولم يكمل.

لكن عيني أم عادل نطتا، ونطّت هي في مكانها، فاتحة فمها لتسأل من جديد، فاستدرك نضال الموقف سائلاً أمه؛ أين خالد صديقي، هل وصل من مدينة العمارة؟

ردّت عليه أختي:

- سيصل مع عائلته، أما تراني أجهّز الأكل.

استأذن من الجارة بحجة دخول الحمام، وتوجه إليه. استحمّ، وقلبه من نار وجسده من جمر. خرج يجفف شعره بمنشفة صفراء والماء يتطاير، اقترب من أختي يشمّ رائحة أكلها:

-خالد يحبّ طبخك يا أمّي.

هو يعرف أنّني في مكان مّا من البيت، ولا يريد التعجّل، لوجود الثرثارة التي بدورها أطالت المكوث، وفضولها يقودها إلى اعتقاد أنّ في الأمر شيئاً.

لجأ نضال إلى التمويه أمام القشرة الملتصقة بأمّه، فادّعى أنّه متعب ويريد أخذ قيلولة قصيرة قبل مجيء ضيوفه.

كانت امرأة مترهلة وضالة العقل، شاهد خاتماً من الفيروز بإصبعها، فسألها:

-خالة، بكم اشتريت خاتمك الفضي هذا؟

أجابته :

- عيوني، هذا أخذته من إصبع أم زوجي ساعة تغسيلها بعد الوفاة.

شقيّة وجبّارة، ويجب التغلب عليها (حجل) على رجل واحدة للهروب منها:

- أوه.. أوه.. أشمّ فيه رائحة الموت. لا، لا، أنا أخاف من الموت، سأنام يا أمّي قليلاً، أيقظيني بعد نصف ساعة.

ثم دخل غرفة أمه، إذ طلبت منه ذلك مدّعية أن هذا سيوفر عليها الصعود إلى غرفته في الطابق الثاني، إذ بمجرد صدور صوت منها سوف يسمع ويصحو.

من أين جاء له الصبر والانتظار، وكلّ ما يريده أنا؟. ربّما الجنديّة والتدريب العسكري علّماه أنّ الانتظار حياة. دخل عليّ، عانقني.. ولم أستطع رؤية وجهه بوضوح من كثرة دموعي.

. خالة راوية، في أيّ منطقة من بغداد يقع السجن؟

. عرفت أنّهم في البداية أخذونا إلى موقف في منطقة الكاظمية، في الظاهر هو دار للأيتام، وفي الواقع كان موقعاً للاستجواب؛ وبعدها نقلونا إلى سجن الرضوانية.

– حبذا لو تكملين قصّتك يا خالة.

– من أين؟. أتحبذين استكمال قصة صديق زوجي؟

– نعم، وبعدها ننتقل إلى السجن.

***

بعد انتهائنا من وجبة الكباب طلب السيد "عبد اللطيف" شاياً، بعدها أصابني دوار ورغبت بإفراغ ما في معدتي. سألت عن الحمّام، وهناك تخلّصت من وجبة نسيتها معدتي. خلال جلستنا لتناول الشاي، طلب عبد اللطيف من الشخص المرافق لنا أن يبحث لي عن شقة ذات غرفة واحدة. وبلمح البصر دارت أرقام الهواتف، وبعد ساعة توصّلنا إلى شقّتي هذه. من أوّل معاينة لها وافقت على الفور، فرحت بأوّل سرير سيكون خاصّتي.

لم تدم فرحتي، فقد طلبت صاحبة الشقة مقدم شهر، وشهراً للضمان، وضماناً خطيّاً يتكفّل فيه الضامن بالسّداد عنّي في حال عدم تمكّني من ذلك. شهران، يعني ألف وثماني مئة باوند، فمن أين ستأتي

رحمة تجود بمثل هذا المبلغ؟ ونحن عائدون إلى غرفتي في منطقة كلبرن؛ سأل السائق العم عبد اللطيف:

- ما هي أوضاع صاحبك؟

أجابه:

– هو سيدفع لك.

أعطاني السمسار رقم هاتفه الجوال، وبقينا على اتصال. أمّا صاحب زوجي العم عبد اللطيف، فلم أره حتى هذه الساعة. وإذا رأيته في شارع صدفة، يصفرّ وجهه خجلاً ويهرب كمن ضبط أمام حشد. لم يهرب منّي فقط، بل غيّر رقم هاتفه. نسى ما بعثه له زوجي ساعة عــوزه من قبل، فقد أرسل إليه خمسة آلاف باوند لعلاج مرض أصاب عينيه.

كنت أعرف عنوانه في بيكر ستريت؛ وقد ذهبت إليه أرجو منه ضماناً خطيّاً، ضغطت على جرس الشقة، ردّ على الطارق، فلمّا تحدثت وعرف صوتي، خرس ولم يفتح الباب. تمشيت قليلاً قرب متحف الشمع، محدّقة في الوجوه لعلّي أعثر على أحد أعرفه. تذكرت

صديقاً لي، ليست بيننا علاقة تسمح بطلب يخرق الكبرياء. إنّه أديب كويتي يعمل في إحدى الصحف العربية، اتصلت بعاملة البدالة، وبصعوبة باللغة حصلت على رقمه، بعد أن اتصلوا به وأخبروه باسمي وافق على إعطائي الرقم.

أحاطني الرجل بكرمه وأخلاقه، وطلب من سكرتيره أن أملي عليه ما أريد، وهو سيوقّع على طلبي. كان الضمان الذي حصلت عليه مفتاحاً لصداقة أخويّة، دامت وستدوم لأنّها مبنية على احترام الآخر وحبه. ومازلت أحمل فضله على عاتقي، هو الوحيد الذي يسأل عنّي ويقول لي إنّه في حياته الشاقة لم تكن له أخت وأنا تلك الأخت التي حُرم منها.

انتقلت أحمل بيدي حقيبة صغيرة. في اليوم السادس طرق السمسار بابي قائلاً:

- معي ضيف. فتحت الباب مهلّلة به وبالضيف، الذي عرّف نفسه إلي:

- اسمي أبو غيث، صديق لزوج أختك، طلب منّى مساعدتك. وعرفت عنوانك من السيد عبد اللطيف، لديّ أمانة .

ترك مظروفاً، وقام مسرعاً، ودّعني وغادر. هو الآخر لم أره إلى اليوم، كصاحبنا الذي عزمني على وجبة كباب بقيمة خمسة آلاف باوند.

في شقتي الشبابيك تُفتح من الداخل، إذ ليس بإمكاني رؤية المارّين في الشارع. قبل حضور أبي غيث كان بحوزتي عشرون باونداً، اشتريت ثلاث بيضات وربطة خبز، اشتريت الغداء باثنتين وتركت الثالثة للعشاء.

لم يمر نصف ساعة حتى حضر أبو غيث، وبيده بطانية ووسادة، ودّعني ولم يعد كما أخبرتك.

– هل فتحت الظرف؟

– كان في الظرف ألفا باوند، وصلا في وقتهما. سلّمت صاحبة الشقة ألفاً وثماني مائة، ووقّعنا العقد لمدّة ستة أشهر. بقيت معي مائتا باوند يجب أن

تكفيني لمدة شهرين أو ثلاثة أشهر، حتى يتمّ صرف المعونة الحكوميّة لي.

. ربّما استدان المبلغ مسبقاً من زوج أختك.

. جزاه الله خيراً، أقلّها أحسن من صاحبنا الذي لهف حقّنا وحقّ الصداقة.

– كيف قضيت أولى أيامك؟

– أول ليلة نمت حتى الصباح دون حراك، أفقت في الصباح لا أحس بوجود يدي. فزعت، خلت أنّي مازلت في السجن وأنّي أمرّ بإحدى حالات التعذيب، فقد كانت خدرة لثقل نومي عليها دون حراك. في غرفة النوم دولاب صغير من ثلاث مرايا، بعدد الخانات الصغيرة. كانت المرايا مليئة بالعيون، لاحقتني إلى الحمام، في مرآة الحمام أصبحت العيون أقلّ حدة وأقلّ عتباً، كأنّها ترثي لحالي. فيها نظرة عتب قديم، ورغم رقّتها خفتها، كثيراً ما أجدها على ورقي ساعة الكتابة، وظلّت تصاحبني ليل نهار.

كان صباح عيد، يوم أفقت على المرايا التي بقيت تلاحقني أينما سرت ، كم تمنّيت أن يطرق بابي أحد، أو يهنئني بالعيد، لكن لا عيد ولا تهنئة ولا طارق.

كلّما احتجت لتجربة صوتي، ذهبت لصاحب البقالة أسأله عن مكان ألهو فيه وأقضي بعض وقتي. دلّني على منطقة برتبللو؛ سوق جميل يتوافد إليه السيّاح وسكان لندن كلّ سبت وأحد، هناك وجدت الأحاديث مشتّتة، لكلّ عابر لغته وعشيقته ووجهته، سواء لمتعة الشراء أو متعة التفرّج على البضائع المتنوّعة. رغبة منّي في طرد عزلتي، رحت أبتسم وأحدّث الباعة الهنود بلغتي الانجليزيّة المتعثّرة. وجدتني أبحث عن الشرق فيهم، كما وجدتهم يبحثون عن ضالّتهم في وجوه المشترين مثلي.

بائعو السمك الطازج والخضار والفواكه، الحلي والأقمشة، الجديد والقديم، الأثري والرخيص.

سحرتني ساعة جميلة قال لي بائعها إنّ عمرها مئة وخمسون سنة، مرصّعة بأحجار كريمة، زيّنها الفنان الذي صنعها بالياقوت والزمرّد، أبعدتها عن معصمي،

فقد أدّت دورها بتزيينه لثلاث دقائق؛ أرجعتها متعلّلة بغلاء ثمنها البالغ ألفي باوند؛ ساعة ثمينة من هذا النوع بالطبع لم تكن لامرأة عاديّة، بادلت البائع ابتسامة وعبارة : ذوقك سليم في اختيارها لا بدّ أنّك رجل فنان.

ابتسم هو الآخر:

- أوه.. شكراً. شكراً.

- في طريق عودتي إلى البيت سمعت من أحد المقاهي أغنية تردّد إيلينا عازفة الكمان المرحة الرافلة بالأناقة، تعرف النغم المسرع نحو نفسه.

قارنت بينها وبين أيّة أغنية عراقية، فلم أجد في كتاب الأغاني من كتب عن النغم المرتجف في قلب التنّور؛ المنتظر عودة المرأة إليه. دخلت شقتي وجدتها كئيبة، حزينة حزن الأغنية العراقية. خلعت حذائي وجلست أرضاً، فقد داهمني مشروع قصيدة:

- دخلتُ فنجاني

ارتبكت شجاعةٌ مرّة

باركت نصفها الأسود

بينما النصف الآخر
وقف عارياً
كان يخطّ شيخوخة العبارة.

تركت الأوراق تمتصّ بقايا الفنجان الذي اندلق عليها، وخرجت دون تحديد هوية. لحق بي رجل أسود سمين متسائلاً إن كنت بحاجة لمساعدة، وتفحّصني جيداً، متوقّعاً أنّ مكروهاً أصابني أو أنّني فقدت ذاكرتي. فاستنتجت أنّي أسير كالبلهاء، صمتُ أمامه، ولم تعنّي الكلمات، عدت أدراجي وتمدّدت على الفراش.

. أنا خائفة يا سيدة راوية.

. ممّن؟

. من عالمكم، إنّه مريب، لولا ثقتي من العودة لسجني في الإطار لانتحرت. غداً سأعدّ ترتيبات عودتي، وأتصل بذكرى أحدّد لها مكان لقائنا وأطلب منها جلب ثوبي الأحمر معها؛ لازالت فيه مساحة بيضاء بحاجة إلى تغطيتها بالأحمر.

. تبدين غريبة يا عيناء، ووجهك شاحب جداً، ما السبب؟

. كان الأجدى أن لا أعرّض نفسي لعذابكم وألا أوافق على خروجي مع ذكرى، رغبت في رؤيتكم ورؤية واقعكم.

. وهل أعجبك؟

. حاشا لله، لن أعيد الكرّة.

. لا بأس عليك، غداً ستتوسط صورتك المعرض، ويكتب عنك الصحفيّون، لا تقلقي، الأيام مضت، وما هي إلا سويعات.

. سيّدة راوية، تطفّلت على روايتك ووجدتُ من يتكلّم عنك أنت.

. ألم أخبرك عن أسلوب الكتابة، ستجدين رواية داخل رواية.

. هذا يعني أنّك بطلة من كلمات.

. كما أنت من ألوان.

. وقصتك في السجن، أهي حقيقة أم من خيال الكاتبة؟

– أرجوك احكي لي عن صداقاتك في الغربة، كيف كوّنتها، وبعد ذلك عودي إلى السجن حتى لحظة أكلك الدولمة في بيت أختك.

***

. في الوقت الذي كانت تسري فيه الشائعات عن العداوات بين المبدعين، وعن الهمز واللمز، قرّرت اختيار أصدقائي وانتقاء من أجد فيهم أخوّة صادقة لي، وتركت الذين تجزأت أخلاقهم ومبادؤهم. في الغربة تحتاج المرأة لامرأة مثلها، لخصوصيّات لا تفهمها إلا الأنثى. ورغم طبعي المتحفّظ في اختيار الأصدقاء، كنت أخشى السواد لذا تلبسني الحذر. لكن رغم ذلك هناك مساحة بيضاء أجل، من السهل الحصولُ على صديق، لكن الأصعب هو الحفاظ عليه. والآن دعيني منها ولنرجع إلى السجن، حيث حبسوني وحدي كعقوبة خاصة.

***

في سجني الانفرادي قضيت ثماني سنوات، استنطقت الجدران الباردة فلم يجبني أحد. أجابتني حركة في أحشائي بعد مرور ستة أشهر من انفرادي بزنزانة شهدت على حمل غاضب في بطني. شهران أصارع فيهما حملاً مقتّه، أمٌّ تشمئز من حملها.

رغبت أن أصبح قطّة، يطاردها القطّ ويأكل صغارها، لتركته يدخل أحشائي وينهشه قبل مجيئه.. نمت ليال على بطني، نطّطت بقوّة، طفرت، قفزت كمن يلعب مائتي مرة، تصبّب عرقي، تحشرجت أنفاسي في صدري، واختنقت. غالبني النزف، فرحت بنزفي، نطّطت بقوّة أكبر، فرحت، بكيت؛ ثم غبت بمصل المخدّر.

من قام بذلك؟ من حقنني وأنهى نزفي؟ ما شكل المارد الذي حملته وكيف كان حجمه؟ لم أعرف ذلك، ولم أكن راغبة بالمزيد من المعرفة. بقيت بعد ذلك ضعيفة البنية، تصاحبني دوخة وصداع، وألهث لمجرد حركة

بسيطة. تراضيت مع ضعفي، حتى جاء ذلك اليوم الذي قادوني به إلى المدير الجديد، الذي درس اضبارتي جيّداً وأرسل في طلبي.

في طريقي إليه تذكّرت حبسي في المراحيض لمدّة أسبوعين، تُقدّم لي وجبات الطعام قرب الغائط. وقفت أمامه صامتة، وراح يعرّفني بنفسه:

– أنا المدير الجديد، وعندي ما تريدينه، ولي عندك ما أريد.

خفت أن يقصد اغتصابي، شعرت بميل للقيء، فوضعت يدي على فمي، قلت له:

- سيدي رحمي طري، فقد أسقطت جنيناً منذ مدّة قصيرة.

ضحك بصوت مبحوح:

- لقد أسأتِ الفهم. ما قصدت ذلك، بل قصدت قلمك. أعصريه جيداً، واكتبي لي قصائد شعر في الموضوع الذي آمرك به. اتفقنا؟.(ثم أجاب)؛ اتفقنا. (ودون أن يترك لي مجالاً للمجادلة)؛ لقد اشتريتِ كرامتكِ بالموافقة.

- قلت له: أيّة موافقة؟
- أجابني:
- الموافقة على عدم سجنك في المراحيض.
- فاضطررت إلى القول: كما تشاء.

حالما سمع موافقتي، طلب أن يبقي الموضوع سرّاً بيننا؛ وإلا أعرف نتيجة ما سيحصل لي، واشترط أن أكتب له غزلاً، لأنّه لا يحبّ الأشعار السياسيّة الجوفاء.

أخبرني عن حبه لفتاة جميلة، ابنة وزير، ويريد مراسلتها شعراً لعلّها تحبه. وراح يحكي لي عنها، كلّما ضاق به الليل وكرهته حبيبته ونفرت منه، وأنا أكتب.

رغبت مرّة في انتهاز فرصة، ورجوته الكفّ عن تعذيب فتاة رموها معي في الزنزانة قبل ثلاثة أيام، وأن يرحموا صغر سنها وضعف بنيتها، فهي فتية لا تتحمل وحشية الشرطة.

لكنه صاح بوجهي ثائراً:

- ها، بدأنا نتمرّد؟ اسكتي وانسيها، وإلا جعلتك مثلها تنسي اسمك.

- في الليلة ذاتها رقدت بدمائها قـربى، كانت عينـاها محدّقتين في السقف، تحجّرت ملامحها وتصلّبت. صمتها عذّبني، لم أقدر على مساعدتها، جاءوا في الليل وجرّوها من شعرها وعيناها ترجوانني، تشبثت أصابعها بأطراف ثوبي، سمعتها تقول: حميد. الناصرية.

- كانت أشجع منّي، لم ترضخ وأنا رضخت.

منذ ذلك اليوم وعيناها ترافقانني أينما ذهبت، وصوتها يرنّ في أذني، حتى صرت أتوقّع أنّ كلّ من اسمه حميد يخصّها أو يعني لها شيئاً. عند باب الزنزانة ماتت.. ومن تلك الليلة صارت الجدران عيوناً، والأبواب والمرايا كذلك، حتى صرت أخاف النظر في مرآتي.

وقت رحيلي من العراق لم أجلب معي مرآة، متوقعة أن المرآة التي تعكس عيون المعذبين تبقى في العراق، لكني وجدتها معي في لندن.

ـ ألهذا تراجعين العيادة النفسية؟

. نعم، ولهذا السبب صادقني طبيبي، وتمنّى أن يرى أعمالي مترجمة ليتعرّف عليّ أكثر.

. ماذا كتبتِ للمدير الأحول من شعر؟

. أمطرته غزلاً، ونعمت بهدوء واستقرار لسنوات.

***

اقترحت عليه كتابة شعر سياسي ونشره في الصحف ليُشار إليه بالبنان، وسألني إذا كنت مستعدة لذلك. سألني متخابثاً، ولمح الاستهجان على ملامح وجهي.

تباعدت شوارع البصرة، واقتربت منّي إشارات المرور، رجال ونساء وأطفال، جاءتني النساء اللواتي سُجنت معهنّ أوّل أيّامي على شكل سؤال يؤرّقني.

رمى ظرفاً أمامي قائلاً:

- أنتِ رغبت بذلك، لا دخل لي.

- ثم فتح الظرف وقدّمه منّي، سحب صورة وراح يلوّح بها أمامي، وطلب مني الجلوس:

- اسمعي يا راوية، سرت في الشارع شائعات تؤكد أنّ الشاعرة راوية زانية وهذه إحدى صورها بالجرم المشهود، وستُعلّق جثتك غداً على باب داركم، وأعلّقها في ساحة (أم البروم).

جاءتني شجاعة غريبة، أخذت الصورة منه، وإذا بي عارية بين خمسة رجال.. سألته:

- كيف حال الماجدات، أقصد ماجدة حبيبتك؟ ارتخى وتهدّل كرشه، وتحوّل الغضب إلى ابتسامة.

قلت له:

- سننشر قصيدة عن ماجدة في الصحف؛ وأرشدته لصديق صحفي.

- في زنزانتي حسبتُ كم من الوقت مضى، وكم سيبقي لي من عمر، شعرت بالانتصار على مدير السجن الذي ينتصر علينا بصولجانه وجبروته وخنثه السياسي. وتحدّياً له ولخنث أمثاله واجهت التحدّي، وبقيت حائرة في العثور على شيفرة شعرية.

تذكرت صديقي فرقد؛ وبعض الأحداث التي مرّت لي معه، فأشفقت عليه. فقد أُجبر على العمل ضد

قناعاته، ولأنّه صحفي ماهر اختاره ابن الرئيس للعمل معه. أعرف أنّه مجبَر، وأعرف نوع التهديد الذي أجبروه به على الموافقة. فقد جاءوا بصحفي رافض وأخواته الثلاث وزوجته أمام فرقد، وأحضروا الكلاب لتنهش أجسادهم حتى تناثرت الدماء والأشلاء كتناثر الحبر على الورق، فاختار الصفحة الثقافية.

وأنا اليوم أختاره، لأني مثله، جبانة وقابلة للمساومة. حاولت مراضاة نفسي بأنّي أشتري شرفي وسمعتي وروحي، واستهزأتُ من نفسي:

– أيّ شرف وأيّة روح يا راوية تبحثين عنها؟ ومن أجل مَن تنتظرين الحياة؟ ابنك، زوجك؟

سمعت صوتي داخلي يئنّ:

- من أجل الوطن وافقي، أنت كاتبة والوطن بحاجة لقلمك كي تعرّي هؤلاء الحثالة أمام العالم.

- أخذت القلم والأوراق، ورحت أمتحن قدرتي الإبداعية في خلق شفرتها. وسأخبر المدير العفن أنّي أمجّده، وسأجعله مثل جلجامش وأتكلّم بلسانه، وأبعده عن قصائد العشق. ولو خاف سأوضّح له أنّنا

سنتكلم عن العظماء بصوت جلجامش، وأنّ أسلـــوب إحضـار التـأريخ هـو توريـة لعظمتـك أيضـاً سـيدي.

وبصقت:

- (ابن الكلب، حاشاك من السيادة) فجاءت القصيدة،

أنا جلجامش العظيم

أنا من قطع أشجار الأرز

وقتل خمبابا

صديقي الذي أحب

بين قبضة الموت

فمن ذا الذي يدرك خطط الآلهة؟

لا تقف حائراً

لا تقف مكتوف الأيدي

أنا صديقك القديم

(أنا رقصة الماء)

ها إني أروي عن مضجعي

الشبح الجائع

ارمِ له كسرة خبز.

فرحت بقصيدتي، وتركت شفرتي بين قوسين. كانت قدماي تتسعان في محاولة إعطاء فرجة أكبر للمشي، فقد مشتا متراصّتين ومنفرجتين بفرحهما، والشرطي يقودني إلى غرفة المدير. وقفت قبالته دون خوف، تبسّم في وجهي وربّت على كتفي برفق، طلب لي بعض أكل وقدح عصير، وسألني: يبدو أنّكِ نمت جيداً؟

اتسعت عيناي وأنا أردّ عليه:

- أستطيع حماية نفسي من السهر.

كلّ ما فعلته لحظتها، سحبت كتفي من يده، وقلت في نفسي شُلّت يدك؛ انفرج فمي عن ابتسامة مقيتة، في حين كانت عيناي تندسّان في الورق. شدّ الورقة من يدي، وراح يقرؤها.

- هل أعجبتك القصيدة سيدي؟ (وأكملت)؛ إنّها بصوت جلجامش وصوت أنكيدو صديقه لحظة موته. كان صامتاً، خفت أن يستشفّ ما بين السطور، تابعت صمته، وسمعت أنفاسي. في انتظاري الردّ

ساقتني الذكرى إلى زوجي الذي تدور أنفاسه حول رقبتي، وأنا أقرأ عليه مشروعاً جديداً لقصيدة.

تلتفّ أنامله حول رقبتي، وتعبث بخيط الوسط بين نهديّ، كفّه المرتعشة تجعلني أرمي الورق أرضاً وأعانقه.

دخل الشرطي حاملاً بيده وجبة الأكل والعصير، اقترب المدير مستفسراً عن السطر المقوّس بين قوسين، شرحت له أنّ التضمين في القصيدة يجب أن يوضع بين الأقواس. رغم عدم فهمه تظاهر أنّه فهم، وطلب منّي اسم الصحفي، أعطيته إيّاه فرحة؛ لكن يا سيدي لا أعرف عنوانه حالياً. قاطعني بإشارة أن اصمتي قائلاً:

– وهل يصعب ذلك؟

قادني الشرطي إلى حيث أكون، جلست القرفصاء، أنبش في تراب ريبتي، فتطايرت أغبرة الحلم، وتراقصت أمـــام ناظري، وأتخيّل أن صديقي فهم الإشارة. ثم يصعقني ألم الواقع، وأعود لمحاورة النفس؛ لا، سيفهم أسلوبي. كان يقول لي: (أنت

سلسلة الماء وأشعارك رقصة مائية)؛ وكان يتصل هاتفيا بعد كلّ قصيدة أبعثها له:

– شكراً راوية، لقد شاهدت رقصة الماء على ورقك.

فاحت زفرة الكباب، فقد رموه بقربى كمن يرمي قطعة لحم لكلب. أفرغت ما في معدتي في صفيحة معدنية، تصاعدت رائحة كريهة منها، توحي ما بداخلها من روث وبول، وبقيت على معدة خاوية حتى الصباح.

ما إن أطلّ وجه النور في زاوية صغيرة، سمعت وقع أقدام، مددت رأسي، شاهدت شرطياً، رجوته أخذ الأكل ورميه. رائحة حموضة الأكل أزعجته، صرخت به إحدى السجينات:

-أريده لا ترمِه. توسّلت إليه.

- ردّ عليها فرحاً؛ بما أنّي سأرميه في الزبالة، إذاً خُذيه.

- وضحك ضحكة مدوّية، وهو يرى تناثر الكباب على الأرضية؛ امرأة زبالة.. ها.. ها..

- ما إن مرّت لحظات حتى تهافت فريق من الشرطة، وامتلأ المكان بخنازير تترصد حركات عيوننا

المطلّة من الشبابيك الحديدية الصغيرة. أخافنا الوضع، كرهنا ملامحهم الوحشية، مئات مهرولة، تحتشد مزدحمة، وصمت يسود المكان. مضت ستّ ساعات على حالة الترقب والانتظار، والعرق يصبّ من وجوههم ووجوهنا. وعرفنا من خلال همستهم بوجود مسؤول كبير في السجن، كما شاهدنا شرطيّاً يأمرهم بالانصراف.

كيف يخاف هذا المسؤول من سجينات عزّل، مددت وجهي حيث أخفى الحديد نصفي، وتجرّأت بسؤال لشرطي قريب مني: هل هناك مشكلة يا عمّاه؟

نفث دخان سيجارته في وجهي ونهرني:

- عميت عينك، أنا عمّك يا قحبة.؟

- اقترب منه شرطي آخر، وأمره بالهدوء:

- سيغضب المدير، فقد أمرنا بمعاملتها معاملة حسنة.

أحضرني المدير إليه ذات يوم، وطلب منّي قصائد أخرى، قال لي إنها ستأخذ الصدارة في الصحف، وقد

راقت للصحفي فرقد الذي رحّب به، وطلب منه أن يقصده كلّما رغب في نشر قصيدة لأنّه شاعر متميّز.

فرحت ورجفت أعماقي فرحاً، كتمته كي لا أُكتشَف، فقد بلع الطعم هذا الشويعر المعتوه، ووصلت إشارتي وشفرتي لفرقد.

- عزيزتي عيناء، اعذريني فقد تعبت. والأخيلة التي عصرتها وأحضرتها معي تدور حولي كشبح مسلول، وأريد الراحة. تصبحين على خير، وغداً سأريك مكان التقائك بذكرى في ماربل آرج.

فصـــل

فصل الروح عن الجسد

لا أعرف
في أية أرض سيتحوّل جسدي
إلى نفط .

*** * ***

الساعة تشير إلى الثالثة ظهراً، تحركت راوية مثقلة، فتحت عينيها وفركتهما. وكمن يبحث عن ضوء أزاحت عنها النعاس، ومدّت يدها نحو عيناء التي رقدت قربها

هامدة الجسد، حرّكتها بلطف وتركت الفراش. وضعت غلاّية القهوة على النار، ودخلت الحمام لشطف وجهها. فرشت أسنانها، وعينها تطلّ كلّ ثانية على الغلاية.

دخلت عيناء تسحب رجليها، وأكملت ما بدأته راوية، استخرجت من الثلاجة قطعاً من الجبن الأبيض المغموس في زيت الزيتون. وجلستا تلوكان لقماً على مضض، تطلّعت كلّ منهما في وجه الأخرى، وعلى حين غرّة ضحكتا، نطّتا في وقت واحد وضحكتا ثانية. ثم بادرت السيّدة بالكلام :

- بعد الإفطار سنخرج.

- إلى أين؟

- سأرشدك إلى شقّة وليد، فأنا أعرف مكانها جيداً.

ثم أشارت إلى عيناء:

- لا تسأليني، سبق أن سألتِ وقلتُ لكِ هكذا أملِيَ علي. عيناء، عزيزتي.. قد تجدين كلامي غريباً عليك، فنحن الشعراء والكتاب أوراق وشحنة قلم. ولا تستغربي

صمتي، فأنا أحاور صمتي وأسمع همسه.. هيّا أنا جاهزة.

في ماربل آرج، لمحت السيدة ذكرى تدخل أحد المحلات :

- عيناء تلك ذكرى أليست كذلك؟

- أين؟

- دخلت إلى محل(Evans)؛ فلندخل هناك.

- لكن هذا محلّ للمقاسات الكبيرة، وهي ممشوقة القوام.

- ربّما دخلت للفرجة أو ربّما شاهدت كويتيّاً أو إماراتيّاً يشتري لزوجته البدينة، وأرادت صيده. هيّا، ادخلي.

كان العناق حاراً وجميلاً بين ذكرى وعيناء، لاحظت ذكرى وجود السيدة فسألت عيناء :

- مَن مرافقتك؟ أهي السيّدة التي أخبرتِني عنها؟

- هي بعينها.

- لمَ تقف ساكنة وتتفرّج علينا فقط؟

- دعكِ منها، أجيبيني ماذا تفعلين هنا؟

جئت أقتل الوقت، حيث بتُّ أعدّ الدقائق للخروج من عالم وسخ، ليتنا لم نفكر بذلك. وأنت هل أعجبك يا عيناء؟

ـ لم يعجبني، لكن السيّدة سحرتني بكلامها ولطف طباعها وكرم أخلاقها، وتمنّيت أنّي لست مجرد كلمة من كاتبة أو لون من فنان. غداً، غداً سنلتقي هنا. ولا تنسي يا ذكرى الساعة الحادية عشرة.

– هو كذلك، وداعاً.

– وداعاً.. إلى الغد.

خيّم الليل على "عيناء وراوية،" في صدر كلّ منهما حزن الفراق. جلستا في الغرفة في وجوم وشحوب، جلستا القرفصاء، وطلبت عيناء من السيدة راوية تكملة حكايتها.

تأوّه قلب السيدة وهي تسرد من جديد:

***

- في سكون الليل، وقت تقلّب الزمن من يد ليد تهجم الـذكريات علـى غيـر عادتهـا، تـركض خـارج الأيـام، تستعيد الخسارات والأفراح، سحق العظام الطريّة. تمرّ الأجناس الكادحة، بائعو الكبة، بائعو الفول، المثقفون والبسطاء، فالوقت في السجن على متّسع لاستيعاب الجميع. يخفق قلبي خارج دقاته حين أشاهد زوجي يخترق حائط السجن، يقفز ولدي على كتفي، وبتزاحم الجراح لأفكاري أسمع صوت نباح الكلاب، فيضيق متسع الذاكرة، تعبر الأيام بتكوينها المزاجي وفق مزاج مدير السجن. تطرقني تحت سندانها، أتحسّس يدي اليمنى إن كانت مازالت صالحة للكتابة، أمنح نفسي أبعاداً تتمسّك بلحظاتها وتفكّ اللغز، وأرجع أعطي كلماتي مدخلاً آخر، أعصر فرحي الهش، وأتجوّل بتوجّس يعيدني إلى وضعي.

ذات يوم، وبعد أن كتبت ما يقارب الثلاثين قصيدة، طلب مدير السجن إحضاري إليه. نهضت بقوّة مخذولة، كأنّي أسحَب لساحة الإعدام. الاحتياطي

مـن الـركض لـم يعنّـي ولـم يفـكّ قـدميّ المغلـولتين. تدافعت مع نفسي وسألت الشرطيّ:

- هل عرفتَ ما الأمر؟

كثـرت الظنـون كمـا كثـرت التسـاؤلات؛ الممـر إلـى غرفـة المـدير لا يأخـذ غيـر خمـس دقـائق مشـياً، فاستطال دهراً.. دخلت على المدير وهو يشرب القهوة، اخترقت أنفي وحواسـي الرائحـة، سـحبتُ نفسـاً عميقـاً لأستمتع برائحتها.

أمرني بالجلوس على كرسي أعدّ مسبقاً لي، وطلـب لـي فنجـان قهـوة. نهـض متـأمّلاً تصـرّفي المتظـاهر بالبرود، لا أحبّ إعطاءه فرصة انتصاره علـى ضعفي، دار حـولي عـدة دورات. وبغـرور تحسـس كرشـه، وتركني أتساءل في سرّي: ماذا لو شكّ بأمري؟

أفتح باباً وأغلق باباً في صمتي، وأتمهّل في شرب قهـوتي. وحـين وجـدني أمسـك يـدي الراجفـة بيـدي الأخرى سألني :

- ما بك يا راوية؟ ما الذي أصاب يدك؟

- لا شـيء.. إنّها تـؤلمني وقد نمـت عليهـا البارحـة طويـلاً.

- بماذا ستكتبين اليوم ؟ دعيني أرى.

وتفحّص يدي، تظـاهرتُ بثقلهـا، وأشـرت إلـى موضـع الألم. ضغط على رسغي بقوة قائـلاً :

- ألا تكتبين لي قصيدة جديدة؟

ارتفعت حرارتـي، وتـدفّق الـدم فـي وجهـي؛ مـا علـى إلا أن أستدرجه لكشف أوراقـه. رأيـت علـى الطاولـة أوراقـاً صفت كتابتهـا بشكل جميـل، لتكـون مخطوطـة جـاهزة للطبـع، وانتبهـت للعنـوان (لغـز الانتظـار). سـألته إن كان الكتاب لـه، أجابنـي بغرور :

- نعم، إنّـه ديوانـي، وسأطبعه.

سألته بتخابث :

- من المؤكد أنّك بذلت جهداً في اختيار العنوان.

استدار كلّه أمامي: بصراحة.. اختاره لـي السيد فرقد.

هزّتني رجفة صاعقة، فالعنوان إشارة لـي،.

لاحظ الارتباك : ما بك يا راويـة؟

-لقد فرحت لك يا سيدي.

ورجفت فرحاً.. أمسكني من يدي؛ الفضل لك يا راوية ولفرقد، فقد كان لطيفاً معي، ومنذ القصيدة الأولى (وراح يشرح لي باللهجة العراقية؛ (إي هايه القصيدة مال جلجامش) ثم أكمل :

- منذ القصيدة الأولى أصبحنا أصدقاء، وصار يتّصل بي يومياً طالباً قصيدة جديدة، وقال لي إنه سيشركني في مسابقة أدبية، فقد راق له شعري.

ابتسمت حين سمعته يقول راق له شعري؛ واستدركت الموقف متسائلة:

- ها.. وبعدين؟

- صرنا أصدقاء، ونخرج معاً للنزهة.

- سيّدي أنا أعرف فرقد، لا يملك إلا راتبه.

. لا، لا.. (ونفخ صدره) كنت أعزمه أنا وعلى حسابي، ليش أنّه غشيم؛ أنتم الأدباء ثروتكم بس القلم.

ردّدت في نفسي : شكراً فرقد، شكراً. سمع همسي، وفتح عينيه وأذنيه: تشكرينه على ماذا؟

- أشكره لأنّه لم يخذلني ويحرجني أمامك، سيدي.

- لكنّي لم أقل له أنّك أرشدتِني إليه.

وراح يـدور بعينيـه فـي كلّ أرجـائي.. تناولـت الأوراق أقرؤها، وأداري ما قلته، قرأت عليه مقطعاً جميلاً.

الذي تراه العين

حقيقة تنتظر

دفـع صـدره أكثـر، اقتـرب منّـي بكرشـه المضـغوط بالحزام:

– أمازلت تشكرينه؟

–من سيّدي؟

– صديقك فرقد.

– ما قصدته سيّدي من الشكر هو موقفي تجاهك ورأيك علـى أنّـي بعثتـك للرجـل الصـحيح، الرجـل الـذي يستحقك ويقدّر موهبتك، فأنت الآن شاعر مشهور.

لقف بيده قدح عصير جُلب إليـه قبـل قليـل، وقدّمـه إلـي:

- العصير بانتظار أن تشربيه.

وطلـب منّـى أن أكتـب لـه قصـيدة الليلـة، وسـتكون خاتمـة الـديوان. وافقـت علـى الفـور، فقـد أوقعنـاه فـي فخّنا، أنا وفرقد.

بعد أن عدت فرحة إلى زنزانتي، صحت بصوت عال: لا، أنا أوسّع لك الدرب. وذكرت اسم فرقد، ضحكت وتوقفت بسرعة. رغبت بالصراخ، صرخ بي جسدي الخرب. وجلست أجادل الجدران التي رسمت عيوناً تسألني وتتوسل، وامتلأ المكان بالعيون. تذكّرت القصيدة المطلوبة مني ، وجدت الأطفال تمسك الورق لي، شاهدتهم كلّهم قربي ، حاصرتني النساء، ثم غبن، بغيابهن تركن لي مساحة من الحرية لأكتب عنهن وعنهم.

تصوّرت أنّي خارج السجن، أبحث في الناصريّة عن حميد، أيّ حميد أسأله إن كانت له بنت في السجن. طرقت الأبواب، حفرت الناصرية شبراً شبراً، ولم أعثر على حميد. وجدتني في معادلة خُذ وهات، مزّقت الورقة الأولى وكتبت غيرها، لم أدرِ كم من الوقت مضى وكم من فقدان الذات حاصرني. كان ضوء النهار يدخل نافذتي، سمعت الشرطي يأمرني بتحضير أوراقي.

طلبت منه أن يستدير لأتبوّل، سحبت التنكة إلى زاوية لا تصل إليها عينه، وأفرغت ما بمثانتي، جرجرت أوراقي معي. لم يستقبلني كعادته فرحاً، بل كان مكفهراً مقطّب الحاجبين، سحب الأوراق من يدي بقوة، وأمر بإرجاعي إلى الزنزانة.

- أما كان بمقدوره أن يأمر شرطيّه بأخذ الأوراق؟
- بصراحة يا عيناء، أخافني وجهه.
- ربّما تعرّض إلى توبيخ من زوجته، فهؤلاء المستأسدون معكم فئران قرب زوجاتهم.
- فكّرت ساعتها بذلك، وفكّرت بأوامر أعلى منه نقلته إلى سجن آخر، أو ربّما "الغجريَّة"؛ خاصته استولى عليها مسؤول أعلى رتبة منه.

***

مرّ أسبوع يا عيناء، وأنا مثل الخبز في التنور، كم تمنيت إعادة ترتيب الأشياء أو إرجاعها إلى أوّل يوم دخلت فيه السجن. أفكار مشوشة تطرأ فجأة، إصرار

الجلادين على إذابة النساء بالأسيد ورمي عظامهن في تابوت الخيبة. أسبوع لا أستطيع وصفه، أحياناً كثيرة تضيع منّي انفعالاتي، وأجدني مجرد بلهاء تخونها الكلمات.

استعرضت مساحة الجدران، شقوق السقف وعدد بلاط الزنزانة، وكم عدد الحفر في طابوق الحائط، وكم حشرة استأنست معها وأنست لي.

فرحت بدخول برص يزحف، وعرفت حرية الوزغ، أمّا آدميتنا فدون الزواحف. كتبتُ عنّي، أنا راوية الكاتبة، ومزّقت الأوراق.

حفرت تحت البلاط، ودفنت النتف الممزقة، كي لا ينتبه أحد، فالشرطي وقت ذهابي للمدير يدخل زنزانتي ويفتش ما تركوه لنا من نعمة. فراش رث، بطانية ممزقة أكلني البرد من ثقوبها.

ليلتها حلمت حلماً غريباً، رأيت البلاط يتكسّر لوحده، ولكلّ كسرة أربعة أرجل ترفع الجدار وتهتزّ، الأرض أصبحت حفرة.

خرجت كلماتي على شكل سكاكين، سمعت ضجيجاً وصراخاً يملأ المكان، كان الضجيج على شكل أشباح مرعبة بأسنان طويلة وأشكال قبيحة، والسكاكين مغروسة فيها. دارت الأشباح حول الزنزانة محاولة كسر الجدران وتهديمها، حاصرني اللسان وعصرني، ولم أصحُ إلا على صراخي وأنا أتصبّب عرقاً.

جلست أعدّ للمائة كسباً لوقت الصحو وهرباً من رعب الحلم؛ وكثيراً ما داهمني هذا الحلم في الليل. أمّا في النهار فكنت أحسب خطوات الحراس، أفتح خرائط التهديم والبناء في روح امرأة مهجورة، أنزوي في جلستي، وأهب انطفائي لحظة توهّج، أنتقل إلى سطوح المنازل، إلى هلع شاطئ شطّ العرب من تماثيل شيّدت على ضفّته، وجدتني أسمع صدى نفسي.

في نهاية الأسبوع، وفي يوم الخميس تحديداً، وقت كنت كورقة هشّة، سمعت اسمي يردّده الحارس :

– راوية، راوية.. انهضي المدير يريدك.

سرت خلفه أمتحن قدرتي على التصبر، دخلت عليه فوجدته مبتسماً، حفرت الابتسامة نهرين على

حدود شدقيه، نفرت من صبغة شعره بعض شعيرات وتمرّدت. جلستُ دون أن يأذن لي بالجلوس، أطرى عليّ وتمنّى لي العافية، فلولاي لم يفز ديوانه بجائزة تقديريّة من الاتحاد.

سألته؛ أيّ اتحاد سيدي؟

بلع ريقه، لا أدري لما توقعت أنّه يكذب علي، أو كان يستدرجني بأسلوبه الغث، أو كانت مجرد شكوك تداهمني.

وفجأة رأيتني أعطيت المدير أكثر من ما يستحق، لمجرد أنّي تصورته يفكر. لم يُجب على سؤالي ويوضح مصدر التقدير لديوانه، طلب مني الوقوف قائلاً:

- انظري في عينيّ وحدّقي دون أن ترمشي.

لم تدمع عيني بجمود التحديق، وعندما وجدني صلبة سألني: كيف استطاعوا الوصول إليك؟

. لم أفهم سيّدي، من تقصد؟

يبس ريقي، بلّلت شفتي فلم أفلح بترطيبها؛ فتح درجه واستخرج ملفاً: عملنا يا راوية يتطلب السريّة التامة،

وكـي نحمـي الشـعب والـوطن مـن الأشـرار (ثـم عـاين وجهي) الأشرار أمثالكم، نتكتّم على أسرار عملنـا. ومـا يحيّرني (ثم صمت، ووجّه سؤالاً):

- هل تدرين أنّي لم أنم ليلتين؟

- قلت له:

- أبعد الله عنك السوء يا سيّدي.

- قال: بسببك أنتِ.

- لا أدام الله لي عمراً إن سبّبت لك الضيق.

اصفرّ وجهه واحمر :

- جاءتني أوامر بتمزيق اضبارتك.

- راح يمزق الملف إرباً، ورماه في سلّة المهملات.

حاصـرتني السـنون التـي قضـيتها فـي السـجن، ولـم تصعقني المفاجأة، وكأنّي كنت على علم بمـا سيحصل. ودون أن أترك موضعاً للشك سألته

- متى سأخرج سيّدي؟

- أجابني غاضباً :

- غـداً، غـداً سـتقلّك سـيّارة إلـى مكـان متّفـق عليـه، وهناك ستجدين من ينتظرك. فاستعدّي، غداً صباحاً.

أردت أن أستجمع جرأتي، صرت مثل الطريدة التي تجابه صائدها، كان باستطاعتي استبيان التعنّت المر المتحشرج في صوته، قراءة هواجسه والكثير الكثير من الإيهام اليابس على تقاطيع وجهه، شفتيه المثقلتين بالأسئلة. حاولت زمزمة كلامي، تفحّصت الغرفة بزواياها، خطوت خطوتين نحوه وقلت له:

- سوف نشتاق لك سيّدي.

ابتسم ابتسامة ماكرة وقهقه.

- اهـ.. اهـ.. على منو الكذب؟ على هايه الشوارب؟

وددت لو بمقدوري البصق على شنبه، احتشدت الدنيا كلّها في صدري واختنقت باختناق دمعة الفرح. رجعت أرتّب لحظاتي وأحسبها بالثانية، بربع الثانية. أشدّ البُرَه الفالتة وأجعل منها حبلاً يخنق عنق الوقت. سمعت الصمت مرّة أخرى يعاجلني ويهمس :

-لست بحاجة لهذا الحبل، أقبلي ظمأك.

- أجبته: أليس لي حقّ حتى بالأمل؟

انتبهت إلى صرصار صعد على ثوبي، تركته يتمادى في سيره، صارت لي رغبة في معرفة قصده. استقرّ

عند موضع السرة، مددت لـه إصبعي كـي يخطو عليـه، لـم يجفـل منّـــي. دخـل برصــان وتصــارعا، ربّمــا جــاءا لتــوديعي. ابتســمت وأنــا أســترجع ذكـر أختــي ودخــول البرص تحت ثيابها فـي إحدى الحسينيّات القديمـة فـي منطقــة "المنّــاوي". أظـنّ حتــى البــرص يرغـــب بشــمّ رائحـــة الخــوف الأنثــوي، فهــي تخافــه حــدّ الجنــون، سقطت وقتها مغشيّاً عليها، جمعنـا لهـا زجاجات العطر ورششـناها عليهـا، كـان العطـر رخيصـاً وغاليـاً بقيمـة القلــوب البــيض. بعــد أن غســلنا جســدها بالمـــاء والصـابون، بقيت ترتجف وتصطك أسنانها. سرنا إلـى بيــت صــديقة لوالــدتي، لحقــت بنــا "الملاّيــة"؛ وقــرأت المعوّذات على رأسها، طلبت مـاء ممزوجـاً بمـاء الـورد، مسـحت وجههـا حتـى استعادت أنفاسـها الهادئـة، وعـاد صوتها الخفوت إليها.

هنا لا عطر ولا "ملاّية" تقرأ قربي ما تيسّر من القرآن الكـريم. احتـدم الصـراع بـين البرصـين، سـقط الصـغير أرضـاً، انقلـب علـى قفـاه، تابعـت ضـعفه وقـرّرت سـحقه بنعالي.

بقيت أستطلع أسئلتي وأضيع بين البائن والمخفي، جمعت المتبقي من آدميتي ودلقته في رئتي، حيث جاء على شكل نفس متقطّع. عند مدخل الرئة شاهدت ثماني سنين مرميّة في سلّة زبالة. وعند نفسي الضائعة بحثت عن نفسي وشككت في تذكّرها لي، وهل أنا هي أم هي أنا؟. ماذا لو خرجت، ووجدت زوجي وابني بانتظاري، لم تطرأ لي مثل هذه الفكرة أبداً، تمنيت أن يطول انتظاري لأستمتع بأمنيتي قدر المستطاع. عند التاسعة صباحاً خرجت من زنزانتي معصوبة العينين، يقودني شرطي من يدي. سألته:

- إلى أين تقودني يا عمّاه؟

ومن صمته عرفت أنّه غير مخوّل بالرد عليّ. فرحت بانطلاق السيّارة خارج السجن، سألته:

– أين نحن وأين ستأخذني؟. فلم يجب، قادني لشرطي آخر، فكّ وثاق يدي، و بدوره قدّمني لرجل جالس في سيارته. جلست في المقعد الخلفي، سيّارة عاديّة، ليس فيها رائحة شرطة، حاصرني فضولي لسماع صوت السائق :

- ما اسمك يا أخ وهل لك أولاد؟ بمن تحبّ أن أسمّيك باسم ابنك أم ابنتك؟ أظنك أبا ماجد أو فاضل؟

جاء صوته قويّاً ببحّة: على مهلك، لست أباً لأيّ اسم ذكرتِه. اصمتي الآن أرجوك، فالوقت طويل لديك الآن وستملكينه، بعدها ستجدين من يكلّمك.

لم أستلم حوائجي، تعمّد الشرطي نسيانها وهو يحدث للسائق. مضي من الوقت أكثر من ساعتين، على حسب تخميني. تركتُ الصمت يلهو، شاهدته كرجل يلفّ سجائره بين أصابعه، تجمّعت حلقات الدخان على أجفاني. تركني صمتي مغادراً حالما وقف السائق وطلب منّي النزول، وهو يشير إلى سيارة تنتظرني. جرّبت الركض، أضعفتني الفرحة والقرفصة داخل الزنزانة. استجمعت قوّتي المتبقيّة، خرج زوج أختي من السيّارة، وعانقني. بلّلتنا الدموع وبلّلناها بدويّ أرواحنا وقلوبنا، أسندني على يده، وأدخلني السيّارة، مسحت دموعي، ومسح دموعه أيضاً؛ سألته:

- أين نحن يا شاكر؟

- أجاب : على أطراف مدينة الديوانية، سندخلها بعد ساعة.

- تناثرت الأسئلة، كحديقة من الثلج لا دفء فيها سوى الدموع، وتهرّب زوج أختي من الكثير من أسئلتي. كان يقول : هوّني عليك، أنت بحاجة إلى راحة الآن.

انحدر عن الشارع العام ودخل شارعاً فرعياً، توقفنا عند مطعم منزوٍ، أخذنا ركناً في آخر المطعم الذي تفوح منه زفرة اللحم المترجرج فوق صحون الرز.

تجشأ أحدهم بصوت عالٍ، اقترب منّا شاب حاملاً صينيّة يعلوها الذباب، وقدّم لنا ما طلبناه. لم أرغب بالأكل، كرهت منظر اللحم المقطّع، ولحدّ الآن أكرهه وأشعر بالغثيان لرؤيته منذ تقطيع الطفل بالمفرمة أمامنا. طلبت من شاكر أن يجد لي حماماً، سألني : الحالة ذاتها؟

قلت له :

- ذاتها ازدادت أكثر.

- هو يعرف أنّي أصاب بحالة من الشرشرة كلّما توترت؛ وحين رجعت شاهدت رجلاً يرتدي بنطلون جينز وقميصاً أبيض، يضع على عينيه نظارة قاتمة. همست بأذُن شاكر: هل نحن مراقَبان؟ قال لي : وهل تعتقدين أنّهم سيتركوننا وحدنا؟ هذا أمر طبيعي (ودارى بسمة بين شفتيه).

قلت له: لماذا تبتسم؟

- لم يجبني، بل طلب منّي العودة إلى السيارة. وما إن فتحت الباب حتى رأيت الرجل الذي كان يراقبنا جالساً فيها. رجعت إلى الوراء قليلاً، ثم صرخت به :

- قُم، أتلاحقنا إلى هنا؟

- رفع النظارة عن عينيه وابتسم، صرختُ :

- فرقد، فرقد. كيف لم أتعرّف عليك؟

- وأطلقنا عنان الدموع.

الطريق من الديوانية إلى البصرة يستغرق خمس ساعات، عرفت خلالها كيف استدرج فرقد مدير السجن، ومن القصيدة الأولى عرف أنّي في قبضة الرجل الذي أمامه. صادقه مادحاً شعره، وسهل له

سبل الانتشار ليكسب ثقته. عرف اسمه الكامل، لكن الخبيث لم يخبرهِ عن مكان عمله بالضبط، قال له إنّه يعمل في أحد السجون ولم يفصح أكثر. ملت بجسدي كلّه صوب فرقد: خفت أن لا تكشف شفرتي.

أجابني ومسح على كفي:

-وهل أتوه عن قصائدك ،أنا رقصة الماء، كيف أنسى رقصة الماء.

- لكنكم أطلتم علي.

أجابني شاكر:

- المهم أنتِ معنا الآن، لو كنا نعرف مكانك لافتديناك بأرواحنا.

وضع فرقد مرفقيه على الكرسي الأمامي، حتى شعرت بأنفاسه تحوطني:

- لو تدرين كم بذلنا من جهد ومال كي نصلك؟،. ابن الكلب الوسيط أخذ مليوني دينار ليوصلنا إلى رجل ذي نفوذ، وهو بدوره يوصلنا لآخر بإمكانه تعريفنا على شخص في الأمن، وعلى هذا المنوال. أموال وهدايا، ومن البصرة إلى بغداد والملايين تكثر.

وحتى نستطيع جمعها، نحتاج إلى وقت طويل كي نبيع ما نملك، والحلقة تدور وتدور؛ المهم المرحلة القادمة.

- هل هناك مرحلة أخرى؟

- ردّ فرقد ومسح على شعري:

- يجب تهريبك من العراق، وبأقرب فرصة. تساءلت: كيف؟

- أجابني واثقاً:

- أتممنا كلّ شيء، وستعرفينه في حينه.

بين الديوانية والبصرة تاهت منّي الأسماء، تاه منّي وجهي، خصلات شعر ولدي، حضن زوجي، أمّي التي ماتت بحسرتها عليّ مثلما أخبرني شاكر. طلب منّي شاكر التخفّي صباحاً لئلا يراني الجيران، كما أخبرني أنّه اتفق مع أحد المهربين لإخراجي من العراق سراً عن طريق الشمال. فزعت من فكرة التيه الجديد، استدرت بكلّي إلى شاكر:

– وكم سأبقى عندكم؟

أجابني : ثلاثة أيّام فقط، لقد حدّدنا بالضبط ساعة مغادرتك حين عرفنا موعد خروجك من السجن.

- سألته : ومن أين ستدفع للمهرّب؟

- امتدت يد فرقد تشدّ من أزري، أُثقِلتُ بالرعود والغيوم والمجهول. وقبل أن نطرق دار أختي، أخبرني شاكر أنه باع قطعة الأرض المسجّلة باسم أختي، كما تصرّف بالذهب الذي تركته في حوزتها.

من أوّل طرقة على الباب بهدوء، فتحت أختي، وكأنها كانت تحسب الدقائق، شهقت ورمت بنفسها علي، ثم سقطت مغشياً عليها.

الكلام رطانة تزحف بحروقها، تركض الكلمات بعيداً وتقترب، والقمر يتلصّص علينا من الشرفة. أزحنا عنّا تراب السنين بابتسامة مترنّحة بعذاباتنا، وبما أنّها لم تخبرني عن زوجي وابني عرفت أنّي فقدتهما إلى الأبد، لم أشأ إحراجها لتهرّبها من نظرات عيوني.

في الصباح دخلنا المطبخ، أربع عيون متورّمة، نحاول خلق ضحكة فاترة. صحا شاكر على أصواتنا وشاركنا شرب الشاي، شربه عاجلاً وقال لأختي:

-راوية تحبّ السمك، وتحبّه مشويّاً فتهيّئي.

- دفعت الباب جارة أختي، دون أن تطرقه، وطلبت من أختي رغيف خبز، أمّا أنا فأسرعت إلى غرفة النوم واختبأت فيها.

أعرف جارتنا حوريّة، زوجها يشتغل في دائرة الأمن، وفي أيّام القحط فقط امتلأت ثلاجتهم بالفاكهة واللحوم والأسماك.. سألتْ عن الشاي، وهل شربت أختي وزوجها فقط، ولمن "الاستكانة"؛ الثالثة. أعطتها أختي رغيفين لتخرج، وتمنّت لها العافية فقد كانت تشكو من ألم في معدتها.

عجنت أختي "الكليجة"؛ وشويت خبزها في التنّور قبل السمك، وشوت في الفرن أصابع العجين قائلة:

لا بدّ من التقوّت، الدرب طويل أمامك وشاق، كُلي لتستردّي عافيتك.

على برج المحطات، على برج المراقبات، وعلى برج يأكل نفسه مرّت ثلاثة أيام بليلتين. كان الوداع مختلفاً هذه المرّة؛ وقفنا نتطلّع لبعضنا فالاحتضان لا يجدي. ابن أختي اختصر الوداع ودسّ رأسه بين

الوسادة واللحاف، تشاغل شاكر في تصليح سيارته. تسمّرنا كسمكة ابتلعت طُعماً، لبطت دواخلنا، تناثر الماء المالح على سفحه. تفجّرت أختي بصمت خشية أن يسمعها أحد، لفّت الشيلة على صدري ووضعت العباءة على رأسي؛ هكذا أفضل، لن يعرفها أحد.

قال لها زوجها وهو يدخل حقيبتي الصغيرة في السيارة، بعد أن طلب منّي الجلوس في الخلف:

- إن رآنا أحد وسأل قولي له إنّها إحدى قريباتنا جاءت لزيارة طبيب، وبعد الفحص الأول طلب منها المكوث يومين لاستكمال الفحوصات.

لم أعرف ما الذي حلّ بي، أصبحت قطعة ثلج، جسدي كلّه جامد. ضمّتني أختي إليها وشهقت بقوة :

- شاكر دير بالك عليها، أعطها شاياً كثيراً، جسدها بارد جداً.

- لم أرَ الشوارع أو البيوت، لم أعرف وجهي الذي أحمله أو يحملني. بمن سألتقي، ومع من سأسير، أحمل في حقيبتي تأريخاً من الخسران.

بقيت صامتة لم أفتح فمي طوال الطريق، هُيئ لي أنّي شاهدت شبحاً يصعد معنا في السيارة، أصبحت ميّتة، ومفصولة عن جسدي؛ ليته مات. موت الجسد هيّن، يتحلّل ويصبح بترولاً، بينما موت الروح يرافقني، يتتبع خطوي، ويعدّ على أصابعه كم من الوقت يحتاج جسد راوية ليتحلّل إلى بترول، وأيّ بلد سيصدّر زيت راوية.

توقف شاكر حين شاهد السيارة التي تنتظره.

- أي طريق اجتزناه وأين نحن؟

سمعتهما يتهامسان، رشّ شاكر الماء على وجهي :

- ما هذا البرد يا راوية؟ لا تموتي الآن أرجوك، أنت بحاجة إلى كلّ شجاعتك.

لم أسمع الأصوات بعد ذلك.. ثم انتبهت بعد مدّة على صوت امرأة تخلع ملابسي، وتقول لي: أنت أجمل في الملابس الكردية.

صوت المرأة أعاد لي توازني، سألتها:

- أين نحن ولماذا أنا هنا؟

أجابتني:

- لا تخافي، غبتِ عن الوعي قليلاً. خُذي اشربي.

قدمت لي كوب حليب ساخن، حنجرتي متعطشة. كان الحليب يخزني ويعطيني فراغ الساعة وحقّ تفحصي نتوءات الحدود وهي تمتدّ على غموض المصير. رجتني أن آخذ حمّاماً ساخناً، وافقتُ على الفور، فكلّي أرتجف.. بعدها ودّعتني.

كلما مشت السيارة قليلاً أوقفونا من أجل التفتيش، فأرى طفولتي تحوم حولي، أحلام مراهقتي، عيون أختي وبكاء ابنها المتقطّع؛ وجها ابني وزوجي رافقاني. الهرب من مدينة إلى قرية، ومن جبل إلى سفح. تكسّر السؤال في البلعوم، تذكرت إحدى قصائدي،(ما أوسعني حين أُسَجن بخيطها إني أتغطى بخيط عريان).

كنت أتعثّر بسروالي العريض، والأصداء كسراب يلحق بي، يرسم خطوطاً متعرّجة ونقاطاً وفواصل. يكتب ويمحو، يخربش ويمزّق، وأنا أتنقل من مهرب إلى مهرب.. وقفت السيارة على حدّ بعيد، خرجت أنظر خلفي، لم أجد مدرستي الابتدائية أو طلاب الجامعة.

لم أسمع سوى رطانة لا أعرفها، ولغة غريبة إلى أكثر غربة منها، وبأعجمية هجينة ضحك الوقت عليّ وأوصلني حدود تركيا.. بقيت متخفّية لمدّة أسبوع، مُنحت بعده جواز سفر مزوّر, عليه صورتي.

وأنا أسير خلف ضابط الهجرة في مطار هيثرو، تابعتني خميرة العجين ورائحتها المشهّية في تنّور أختي. جاءتني في المطار ورفعت السراويل على شكل علم.

بين الضجيج والساعات المتهدلّة من أيامها وقفت في المطار محاصرة بضياعي ، لكن المترجم الذي كان عراقيّا ترجم التفاصيل التي دعتني أطلب اللجوء أنقذني من حيرتي .

تفحّص الضابط كتبي، وتمنّى قراءتها مترجمة إلى اللغة الإنجليزية. وكلّما أسهبت في وصف حالي، ردّ علي الضابط :

*** Yes, we know. Don't worry .**

– وماذا بعد يا سيدة راوية؟

- لا شيء يا عيناء.. انتهي دوري، سأضع يدي على يدي، وأستمع للراوية الأصلية. وغداً سترجعك إلى وليد.. انتهت حكايتي والصباح انشق، وأعتقد أنّه حان الأوان لنصبح مجرد كلمات على سطور وفاء عبد الرزاق.. وسأراك في قاعة العرض، أو قد أقف عند صورتك وأستذكر الأحداث كلّها، أو أكتب قصيدة نهائية.

إنه وقت يقول لأحلامه افترقنا
هذه آخر عكّاز لساق الليل
أيّتها السماء امنحيني نفسَك
النهار آتٍ
في الجهة الأخرى من الذاكرة.

رقدتا بالشكل الذي أردته لهما، لم يبقَ من العتمة غير ذيولها. وضعت عيناء يدها تحت خدّها، وراوية تبحث عن لحظة تسرق فيها النوم. بقايا أنين عالق بالشراشف، بقايا جُمل لا حاجة لذكرها، بقايا تفاصيل ليس لها مبرّر، وبقايا ساعات مختلَسة من الوقت.

رنّ جرس منبّه الساعة، فقد ضبطته عيناء على العاشرة، غضبت السيدة من صوت المنبّه، ووبخت عيناء، وكأم خانتها انفعالاتها ابتسمت في وجهها. تذكرت موعدها مع الطبيب في الحادية عشرة، ساوت الوسادة والشرشف، ورأت في عيني عيناء دموعاً مترقرقة. سألتها :

- أفي الصباح دموع يا ابنتي، إنّه يوم جديد وسترين وليداً فيه؟

أجابتها عيناء :

- أنا جدّ آسفة، ما قصدت إيلامك، لكن الوداع وداع يا سيّدة راوية.

أجابتها:

- أعرف.. أعرف فقد تقلّبت على جمره، وغداً سينتهي كلّ شيء وستفرحين بزوّار المعرض، أو قد ينتبه لدموعك الحبيسة ناقد فنّي، هذا إذا انتبه لها، فالنقاد اليوم مجرد وهم فنّي، وربّما ستصبح نظرتك كابتسامة الموناليزا.

شربت الشاي عاجلة، وغادرت متوجهة إلى الطبيب.

بينما كانت عيناء ترتدي ثوبها الأحمر شاهدت في المرآة حقيبتها اليدوية، عطر، قلم روج أحمر، بطاقة وليد. رجعت للمرآة ثانية، لعبت بشعرها الأسود؛ من أنت يا عيناء؟

مرّرت يدها على خصرها، وعادت تسأل المرآة:

- كيف خطرت على بال فنان؟ هل تشعرين بالدفء وأنت محاصرة في إطاره؟ هل سيرغب بك زائر ويشتريك؟

خطت خطوتين نحو الهاتف، وضعت يدها عليه ورفعتها فوراً؛ لا.. ذكرى لا تصحو الآن.

تسرّب الجوع لمعدتها، دسّت في قطعة خبز قليلاً من الزبد والمربّى.

قلقت على السيدة، فقد أخبرتها أنّها ستعود بعد ساعة، وقد مرّت الآن ساعتان. فتحت دولاب ملابس راوية، شمّت رائحة الأمومة؛ أمن المعقول أنّ الرائحة مازالت تنتظر ابن راوية؟ ألم يصبها الذبول؟ لم تفتح التلفاز، لا تريد رؤية بقايا عظام في حفرة.. فتحت درج

الدولاب، وجدت صورة لنساء الهور. أكواخ عائمة على صدر الماء، مشاحيف ترسو، طيور تلعب في فضائها ثم تدسّ مناقيرها في المياه وتلتقط سمكة. لم تكن صورة بل سينما متحركة تجسدت على الحائط. دخلت الحمّام ووقفت أمام المرآة، تذكّرت ما حكته راوية. شاهدت عينين اخترقتا المرأة، دخلتا في جوف عينيها. فركتهما بقوّة، حرقة مؤلمة أصابتهما. قفزت كطير طُعن بحربة.. تهيؤات، تهيؤات يا عيناء.

فرحت بدخول السيّدة، التصقت بها. وجدت السيّدة بحاجة لمن يخرجها من خوفها ومن كابوس الواقع، فقد كانت السيّدة متوتّرة ومصفرّة.. ارتجفت شفتاها وطلبت الماء، شربت حبّتين، ورجت عيناء إيقاظها في الساعة العاشرة قبل خروجها.

الخيالات عمياء، عقارب عمياء، غطّت الأكل الذي أعدته بورق السليفون ووضعته في الثلاجة. في مرآة الحمام بعد أن استرجعت ما بمعدتها، إثر حموضة أصابت معدتها، لم ترَ غير عيناء متسائلة: ما الذي تفعله ذكرى الآن؟

جلست هادئة وأخذت تقرأ رواية السيدة، حيث رجتها السيدة بإكمالها، وبسبب سماعها لحكاية السيدة تكاسلت (أقصى الجنون الفراغ يهذي). في أثناء قراءة عشر صفحات من الرواية داهمتها إغفاءة خفيفة، ثم غطّت في نوم عميق.

في العاشرة انتبهت على منبّه الساعة، نهضت مرعوبة.. ارتدت ثوبها الأحمر على عجل كانت حريصة على جلبه معها حين تركت بيت صابر وكأنّها تعرف أن لاعودة؛ وأيقظت السيدة.. مشت السيدة متعثرة الخطوات، سألتها عيناء عن ما تريده. قالت لها: أريد كوباً من العصير.

اتكأت على الأريكة، أسندت رأسها إليها، وتابعت عيناء وهي تمشط شعرها؛ سبحان الخلاّق، كم أنت جميلة.

– جمالٌ وهم ريشة ولون.

– أنا متعبة يا عيناء، هل بإمكانك الذهاب بمفردك؟ اتصلي بذكرى قبل خروجك.

أدارت الأرقام على عجل، سمعت ذكرى تقول لها؛ أنا أنتظرك. أنا الآن في ماربل آرج ومعي صديق يريد مشاهدتك.

– من هو؟

– الصحفي.

. ألم أقل لك إنّني أكرهه؟

– أرجوك، لقد توسّل إليّ وخجلت منه، طلب نصف ساعة من وقتك.

ألقت سماعة الهاتف غاضبة: الوقحة..

من هاتفها النقال سمعت صوته: من؟

. الصحفي محمود.. العاشق الولهان.

أكملت زينتها، ارتدت جواربها وانتعلت حذاءها. انحنت على السيّدة وقبّلتها. رفعت السيّدة يدها إلى الأعلى؛ هذا يكفي، سأغمض عينيّ وأعدّ للخمسة، اخرجي بعدها، لا أحبّ الوداع؛ سأراك في المعرض.. واحد، ثلاثة، خمسة.

إلى الوراء. الحافلة رقم 7 دلّتها على وجوه هجينة ووجوه أصيلة.. في نهاية أجورد رود شاهدت ذكرى.

انتبهت لبقعة بيضاء بثوبها لم يصلها اللون فقالت؛ ساعة واحدة تكفي لملء بقعتين أو فراغين بدون لون؛ لذا لم يقلق حين حدّد وقت المعرض في اليوم الذي يلي وصولنا.

نزلت من الحافلة، كان محمود بانتظارها، وشاهدت ذكرى تحمل بيدها حقيبة ملابسها وحقيبة يدوية كبيرة، قالت لعيناء:

- لقد نشف ريقه وهو يتوسّل لقاءك، تمشّي معه قليلاً، وسأذهب قبلك إلى شقّة وليد..

لوّحت لها مودّعة:

- لا تنسى قبل انتهاء الثانية عشرة، باي.. باي.

- وهل ستعرفين مكانها ؟

- نعم معي العنوان سألت عن الشقة ورتبت أمري لا تخافي.

حاول المشي قربها لاصقاً كتفه بكتفها، ومسترسلاً في أحاديثه عن حبّه لها وولعه بها منذ النظرة الأولى، وأنّها المرأة التي يبحث عنها في وجوه النساء. لكنها كانت ترى وجه وليد متجسّداً في وجوه

المارّة وفي واجهات المحلات والأضواء، في وجوه السكارى وبلورات الندى على ورق الأشجار.

- أخذ خصلة من شعرها الطويل بين يديه:

- أحببت الليل من أجل شَعرك، سأكون عبداً لك أي ليلي الحبيب.

أجابته دون النظر في وجهه:

- أنا لا أحب العبيد (ثم همست في نفسها؛ أنت عبدة لوليد).

الأضواء في الشارع تخترق رجفة الهواء في ظلّ الليل، كانت بصمتها تبعث إشارات لقلبها؛ أخفق، أخفق في حبّك لوليد. حدّجت زرقة السماء الشاحبة، تنفّست بعمق. أحسّت بطفل قلبها يعزف على وتر اللقاء، سأكون في بيتك يا وليد، في العلن، في الخفاء، في القرب، في البُعد؛ أنا لك.

سمعها "محمود" تهذي والعرق يتصبّب منها:

- ما بالك يا حبيبتي؟

- سؤاله أعادها إلى حيث هي، نظرت إلى ساعة يدها وجدتها تشير إلى الثانية عشرة إلا عشر دقائق.

ركضت مسرعة، التوت ساقُها وسقطت أرضاً. ركض نحوها محمود محاولاً رفعها من الأرض، نهضت رغم وجع ساقها، وتركت فردة حذائها وحقيبة يدها على الأرض، سمعت صوت محمود يردّد خلفها: حقيبتك وحذاؤك

أبعدت الصوت عنها بصورة وليد وصوته، كانت تركض مسرعة حتى سبقته. ارتبك محمود متعثرا، استوقفته إشارة عبور المشاة بينما عيناء عبرت إلى الجانب الثاني من الشارع وغابت في لمح البصر.

لا يدري إلى أين وكيف غابت، من هم أهلها، أين دارها؟ ما عرفه عنها ذات مرّة وهو يسأل ذكرى أنّها تسكن إحدى الشقق في ماربل آرج، والمنطقة كلّها شقق، هل يطرق كلّ الأبواب ويسأل عنها؟ هل ينتظر في هذه الساحة الكبيرة المزدحمة كلّ يوم لعلّها تطلّ من أحد الشبابيك؟ لماذا كانت غامضة؟ لماذا لم تخبراه من تكونان أهما زائرتان أم مقيمتان؟ عاد إلى بيته يائساً، وحاملاً بين يديه حقيبة وفردة حذاء. رمى الحذاء أرضاً وفتح الحقيبة، وجد فيها مرآة صغيرة،

قلم روج وزجاجة عطر أهداها إليها، لم تستعملها. في جيب صغير في الحقيبة عثر على كارت شخصي، فرح، ربما عن طريق صاحبه سيصل إليها. وجد عليه اسم وليد سالم والعنوان باللغة الإنجليزية.

Waleed Salim

Seymour Street W2 2AZ 22

marbelarch t. 0207 4353222

***

بفرح علّق اثنتين وخمسين لوحة في هايد بارك جاليري؛ وضع ملاءة بيضاء على طاولة صغيرة ودفتراً لتوقيع الزائرين. عاد إلى البيت متعباً، تذكّر أصدقاء له نسى دعوتهم لمعرضه. مرّت نصف ساعة وهو يتصل ويواعد إلى الغد، تمدّد على الأريكة في الصالة. ترك التلفاز مفتوحاً ويده تثقلها زجاجة البيرة، نام قليلا من شدّة التعب. وحينما صحا فجأة على صوت مطربة

عربية، تذكر أنّه ترك باب الشقة مفتوحاً. أغلقه، ورجع خطوتين، ثم تركه مفتوحاً.

في التلفاز تراقصت المغنية أكثر مما غنّت، حقنت شفتيها بالكولاجين، كحلت عينيها بالأسود فبرز اللون الأزرق بعدساتها اللاصقة، تركت وصلة شعرها المستعارة تتدلّي على ظهرها. بصق عليها وعلى مثيلاتها مطربات النصف الأسفل، وهو يقول افتح.. تأكل (ملبناً).

انتبه إلى الساعة، وجدها تشير إلى الواحدة، هرع إلى مرسمه، وجد الإطار يحوّط امرأتيه. شاهد على الأرض حقيبة يدوية، فتحها فوجد فيها مجوهرات ونقوداً، كانت هذه الحقيبة من جهة الشقراء. نظر أرضاً جانب السمراء لم يجد شيئاً.

غمس فرشاتين قريبتين، واحدة باللون الأزرق والأخرى بالأحمر، ولوّن؛ ملأ فراغين في ثوبيهما لم يسعفه الوقت لإكمالهما. انتبــه لعيني السمراء، وجد فيهما دموعاً محبوسة، لمع سوادهما فأصبح كريستالياً؛ تذكّر أنّه لم يرسمها بهذا الشكل.

أطفأ النور ليشاهد الدموع، عثر على بريق أعمق من ذي قبل. فرح بلوحته الثالثة والخمسين؛ بقي جالساً أرضاً وعيناه في الصورة، يحتسي بيرة ويرجع إلى لوحته. يدخل الحمّام، ويعود إليها، حتى طرق الصباح زجاج النوافذ، استبشر خيراً.

اختار سلسلة ذهبية ربطها في اللوحة من الخلف، لم يشرب شيئاً، غلّف الصورة جيّداً. ونزل إلى الشارع مؤمّلاً أيّام عزلته، وفي يده يافطة كتب عليها الدخول مجاني.

لاحظ رجلاً يتبع خطواته، حاملاً بيده كيساً. كان يسير خلفه خطوة بخطوة، أينما اتجه وكيفما سار، إن أسرع أو أبطأ، ظل يلاحقه حتى دخوله قاعة هايد بارك جاليري.

انشغل بتعليق الصورة، كانت آخر لوحة كما كان محمود أوّل زائر. اعتذر وليد لمحمود وأخبره أنّ وقت الزيارة هو الساعة الحادية عشرة، والآن التاسعة؛ لكنّ المعرض كلّه لك، وأهلاً بك.

أجابه محمود بود:

– وأنت أيضاً. اعذرني على تطفلي وملاحقتي، هل هاتان الصورتان لابنتيك؟

أجابه منشغلاً: لا، ليس لي بنات، كما إني لست متزوجاً.

أخرج محمود الكارت من جيبه: هل هذا خاصتك؟

- نعم، كيف حصلت عليه؟

خشي أن يخبره الحقيقة، فقد تكون السمراء أخته. تدارك الأمر معتذراً، حاول إعطاءه الكيس، لكنه تراجع قائلاً :

- لا فائدة، أو لنترك هذا لوقت آخر.

- اتصل عبر النقّال بالمصوّر الخارجي في الجريدة: احضِرْ بسرعة، إنه سبق صحفي، صور وألوان وأضواء لا مثيل لها.

كان قرب المصوّر صحفي يعمل في إحدى المجلات، وما هي إلا ساعات حتى احتشد المكان بالمصوّرين والصحفيّين والزوّار وكاميرات التلفزيون.. الأسئلة الصحفية والمقابلات كلّها تدور حول صورة

الفتاتين، وبالأخص تلك الدمعة المخبوءة، واتفق الجميع على أنها موناليزا 2005 .

أتوقف هنا على حدّ الكتابة؛ فقد أخذت الأمكنة مواقعها على الورق، والشخوص التصقت أسماؤهم بالسطور. اقتربت الذكريات من بعضها، ونامت السجون في ظلماتها. خطّت السيّدة راوية اسمها في دفتر الزائرين، وصافحت وليداً قائلة :

- الوقت على آخره.

الحضور جميعاً، بمن فيهم محمود، التصقوا على الجدران، كلّ شيء بدأ ينطوي ويأخذ شكلاً على صفحات ورقية من كتاب.

إنّها الكلمات يا وليد، والطرقات هي الطرقات يا راوية، لا أكتب خطأ فيكم أو أعمّق الضوء فالحلم مازال على الشجيرات الصغيرات تلعب به الريح، فقط أعطيتُ يقين حبري لآخر قطرة.. لم تعد ذاكرتي جاهزة للذبح، ها هي أجراسي تقرع في الكتاب، يكفي

زحفكم نحو البداية. فقط عودوا إلى (السماء تعود إلى أهلها).

للعاقل ذاكرة مجنون، وللجفون تكوين البدء. على فنتازيا الخيال المعجون بدم الواقع، ذات مساء في أوّله خمسة أشقّاء للريح، وآخره سؤالان في دفتر الغياب.

على سحب السلاطين، نسجتُ مكاناً لماء العراق، فأهلاً بكم على دهشة القصب.بتواضع إيقاع شقيق لقلوبكم .

أترككم.

2005-8-27